محمد مهدي البصير

عصر القرآن

مطبعة المعارف - بغداد

محمد مهدي البصير

عصر القرآن

مطبعة المعارف - بغداد

المقدمة :

أريد بعصر القرآن هذه الفترة التي تبتدىء بقيام الدعوة الاسلامية وتنتهي بزوال دولة بني أمية في الشام . وقد أطلقت عليها هذا الاسم لغلبة روح القرآن ولغته على خطب خطبائها ورسائل كتابها ولأثره البيّن في ألسنة شعرائها . فقد رقق من لغتهم ولطف من أساليبهم ووسع دائرة مداركهم ومعارفهم ، ومن أمثلة أثره البين في كلامهم قول الكميت بن زيد في هشام بن عبد الملك :

ألم يتدبر آية[1] فتدله على ترك ما يأتي أم القلب مقفل

فانه مستمد من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ـ « سورة محمد » . وقوله في نفس القصيدة :

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل

فأنه مستمد من قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » ـ (البقرة) .

وقول عيسى بن فاتك الحبطي في الخوارج :

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

فانه مستمد من قوله تعالى : « .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله والله مع الصابرين. » ـ (البقرة) ، ومثل هذا كثير . بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم أن أسلوب الكميت في الجدل والمناظرة مستمد من القرآن وأن فن عمران بن حطان الممتاز بتوخي الحقيقة والتزام الصدق إلتزاماً تاماً من جهة

---

(١) يغلب على الظن أن الكميت يريد بقوله (ألم يتدبر آية ... البيت) قوله تعالى في سورة المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » على أن لهذه الفقرة نظائر كثيرة في القرآن الكريم .

وبمزاولة اللفظ وجمال التعبير ورصانته وبساطته من جهة أخرى مستمد كذلك من القرآن . وسأشير إلى أثر القرآن في أدب هذا العصر مراراً أخرى عديدة في ثنايا هذا السفر .

وما أعدك بموسوعة تستوعب أدب هذا العصر درساً واستقصاء وتستوفيه عرضاً وتسجيلا ؛ ولكني أرجو أن أضع بين يديك مجموعة فصول تحتوي على المادة المقرر تدريسها في دار المعلمين العالية من أدب هذا العصر ، وقد لا يخلو من فائدة أن أخبرك أني درست نثر هذا العصر من حيث تأثره بالقرآن وتقليده له في مذاهبه وأساليبه البيانية ونسجه على منواله . وأني جمعت بين خطب صدر الاسلام وخطب العصر الأموي في مكان واحد لأنها تتفق في مقاصدها وأغراضها ولا تختلف في لغتها وأسلوبها ، وفعلت مثل ذلك بالعهود والرسائل لنفس السبب ، وأني درست الشعر من حيث هو ممثل لأهم المذاهب والنزعات الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية ، فقد درست الحطيئة و كعب بن زهير مثلا على أنهما ممثلا أكبر مدرسة بدوية شعرية نشأت في الجاهلية وعمرت زمناً غير قليل في الاسلام وهي مدرسة أوس بن حجر أستاذ زهير بن أبي سلمى ومخرّجه . ودرست حسان بن ثابت على أنه ممثل أكبر مدرسة شعرية حضرية نشأت في الجاهلية وامتدت حياتها زمناً غير قليل في الاسلام .

هذا في صدر الاسلام . أما في عصر بني أمية فقد قسمت الشعر أقساماً ثلاثة هي : الشعر السياسي ، والشعر العاطفي ، والشعر التقليدي . فأما الأول : فهو هذا الشعر الذي يمثل الأحزاب التي كانت تتطاحن في سبيل الاستيلاء على الخلافة وتثير الحروب وتريق الدماء سعياً وراء الاستئثار بزعامة المملكة الاسلامية الفسيحة الأرجاء . وأما الثاني : فهو هذا الشعر الذي يمثل الحياة الغرامية التي كان يغلب عليها العفاف والطهر حيناً والعبث والمجون حيناً آخر ، تلك الحياة التي

نشأت عن تدفق الأموال على الحجاز وغلبة الترف على فريق كبير من سكانه وشيوع الغناء والقصف في المدينتين المقدستين مكة والمدينة . وأما الثالث : فهو هذا الشعر الذي يقوله الشعراء المتكسبون في كل زمان وفي كل مكان من مديح وهجاء وفخر ورثاء وغير ذلك مما يجري على ألسنتهم بحق وبغير حق. وقد اكتفيت بدراسة المقدمين من كل نوع من هذه الانواع .

وبعد ، فقد كانت هذه الفصول تلقى على الطلبة في غرف التدريس إلقاءً وتملى عليهم إملاءً . وفي ذلك ما فيه من عناء ومشقة ، وفيه كذلك ما فيه من تضييع للوقت وتأخير للعمل ، ولم يكن هذا مقصوراً على الفصول التالية ، ولكنه يتناول كثيراً غيرها . وكنا نعاني كل هذه الصعوبات بسبب مشاكل الطبع والورق وما إليها . ولكن يبدو أن حدة هذه المشاكل قد خفت الآن، وأننا أصبحنا قادرين على نشر ما نسوّد من أوراق ، فعسى أن لا يكون بقاء ما نسوّد في طيات الخفاء خيراً من ظهوره إلى عالم الهواء والنور .

وختاماً أحب أن أتقدم بخالص الشكر وصادق الامتنان لزملائي أساتذة اللغة العربية في دار المعلمين العالية ، لأنهم أحسنوا الظن بهذه الفصول وقرروا إصدارها في شكل كتاب ، ولمجلس أساتذة الدار المذكورة لأنه أيد قرارهم بهذا الشأن ، ولحضرة صاحب المعالي وزير المعارف لأنه شمل هذا القرار بعطفه وأمر بتنفيذه .

محمد مهدي البصير

الجمعة — ١٨ حزيران ١٩٤٧

الباب الاول

النثر في عصر القرآن

كنت قد نشرت الفصول التي يتألف منها هـذا الباب بشكل مقالات في العدد السادس (كانون الأول ١٩٣٩ م) السنة الرابعة من مجلة المعلم الجديد البغدادية ، وفي العددين الأول والثاني (كانون الثاني ١٩٤٠) السنة الخامسة من المجلة المذكورة .

وقد اقتضى سياق البحث في هذا الكتاب أن أدمجها فيه لانها تؤلف جزءاً كبيراً منه ، ففعلت ذلك بعد أن هذبتها تهذيباً واسعاً فحذفت منها ما بدالي فيه رأي وأضفت اليهـا ما جد عندي من آراء وملاحظات متواضعة

الفصل الأول

النثر الفني في القرآن

أ ـ تمهيد في النثر الجاهلي ونشأته وتطوره وضياعه .

ب ـ النثر الاسلامي . ابتداؤه بالقرآن . القول بخلو القرآن من النثر خلوه من الشعر . رفضه .

ج ـ أنواع النثر الفني عند العرب . وجودها جميعاً في القرآن . النثر المرسل . المزدوج . أنواع السجع . الأسجاع القصيرة . الأسجاع المطولة . السجع المرصع . المحلى بالعائد .

د ـ ميل القرآن الى التزام قافية واحدة .

هـ ـ بعض خصائصه الفنية الأخرى . قلة الغريب فيه . اشتماله على الشعر . استعمال المحسنات البيانية في غير تكلف . التكرير . استعمال أدوات الاستفهام بمقياس واسع .

و ـ خاتمة .

* * *

أ ـ الواقع أنه ليس بأيدينا شيء يمكن الاطمئنان اليه على أنه نثر جاهلي ، لأن عرب الجاهلية كانوا يعتمدون فى رواية أدبهم على الذاكرة ، وهذه مهما بلغت من القوة لا تستطيع أن تخزن الكلام المنثور وتحتفظ به أجيالاً متعاقبة ؛ وقد أصاب الشعر الجاهلي شيء غير قليل من الفساد والاضطراب بسبب ما يعتريها من الضعف والوهن ، فما ظنك بالكلام المنثور ؟!. ولكننا مع ذلك لا نشك في أن النثر الفني [1] وجد قبل الاسلام وأصاب حظاً لا بأس به من الكمال

(١) أريد بالنثر الفني الكلام البليغ غير المنظوم الذي تصور به الأشياء أو الأشخاص أو الحوادث تصويراً مؤثراً .

والنضج ، ولا شك كذلك في أنه كان مؤلفاً من خطب الخطباء وسجع الكهان[١]، ولنا على ذلك دليلان : أحدهما أن الخطابة كانت في صدر الاسلام فناً كبير الحظ من الرواج والانتشار [٢] يمارسه الخلفاء والولاة والقواد فيحسنون فيه ويجيدون ويبلغون من النفوس والعقول كل مبلغ . وهذا لا يمكن أن يحدث فجأة في تأريخ الأدب ، بل لا بد من اجتيازه مراحل كثيرة مهدت لتقدمه وعملت في تكوينه وإعداده . وثانيهما أن مؤرخي الأدب القديم الذين استقوه من منابعه ووقفوا على أصوله ومصادره مجمعون على أن كهان العصر الجاهلي كانو يلتزمون السجع فيما يصدرون من أحكام ويذيعون من نبوءات ، ولا بد من قبول هذا الاجماع والرجوع اليه في تكوين فكرة صحيحة عن نشأة النثر العربي الفني خصوصاً إذا علمنا أننا لم نتبين حتى الآن ما يبعث على الارتياب بهذا الاجماع . إذن فقد كان للعرب في أيام جاهليتهم نثر فني ولكنه ضاع لغلبة الأمية عليهم ولم يصلنا منه شيء يمكن الاطمئنان إليه .

ب ـ وإذن فلنبحث عن النثر الفني في الاسلام، وهذا يبتدىء دون أدنى ريب بالقرآن . ستقول : ولكن القرآن سفر ديني قبل كل شيء وقد ذهب فريق من المستشرقين والنقاد العرب منهم الأستاذ وليم مارسيه William Marsais والدكتور طه حسين إلى أنه خالٍ من النثر خلوه من الشعر وما أشك في أن القرآن سفر ديني قبل كل شيء ولكنني لا أستطيع أن أتصور كيف يقدم ناقد عربي أو مستعرب يقرأ القرآن ويفهمه ويتذوقه على القول بخلوه من النثر الفني خلواً تاماً ؟!

---

(١) ربما كان لعرب الجاهلية نوع آخر من النثر الفني . ولكن ليس لدينا ما يدل على وجوده دلالة قاطعة .

(٢) اذا اتخذنا خطب النبي والراشدين مقياساً لخطب العصر الجاهلي أمكننا أن نلاحظ أن هذه كانت تشتمل على كل ضرب من ضروب الكلام الفني ، ففيها السجع وفيها الازدواج وفيها الكلام المرسل الذي لا يتقيد بوزن ولا قافية .

ج - نحن نعلم أن النثر إما أن يكون مسجوعاً أي مؤلفاً من فقر تلتزم فيها القافية ولا يلتزم فيها الوزن كقول ابن العميد في مخاطبة والٍ متمرد (فانك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة) (١) أو مزدوجاً وهو ما تتزن به أواخر الجمل دون أن يلتزم فيها الروي كقول الجاحظ في ادعاء أحمد بن عبد الوهاب : (انه عتيق الوجه أخمص البطن) (٢) أو مرسلاً وهو ما خلا جملة من الروي والوزن على أن يكون بالطبع فصيح اللفظ حسن التأليف محكم السبك كما هي الحال في كل نوع من أنواع الكلام الفني .

وأنت إذا تصفحت القرآن وجدته حافلاً بهذه الأنواع الثلاثة . فأما النثر المرسل فان القرآن يرجع إليه كلما رأى أن التزام السجع لا يتفق وأداء المعنى بصورة سليمة . ومن أمثلة ذلك قوله في سورة يوسف المكية التي يغلب عليها السجع : « بسم : يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين . » ومثل هذا في القرآن كثير نكتفي منه بما تقدم .

أما الازدواج فهو شائع في التنزيل العزيز ولا سيما في الموضوعات التي تتعلق بالوعظ والارشاد والتحذير من بطش الله وعقابه والتبشير بما عنده من حسن

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠ طبعة المطبعة الحنفية بدمشق .

(٢) رسائل الجاحظ ص ١٨٧ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .

المآب، خذ مثلاً على ذلك قوله في سورة الطارق المكية :

« بسم : والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ . فلينظر الانسان ممّ خلق ، خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . »

وقوله في سورة البلد المكية :

« بسم : ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة . والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة » .

وقوله في سورة الغاشية المكية :

« بسم : هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة. تصلى ناراً حامية » .

فواضح أن فواصل (١) هذه الآيات تتفق وزنًا ولا تتحد رويًّا . ومعنى ذلك أن الآيات المذكورة من النثر المزدوج .

على أن الطابع الذي يمتاز به القرآن إنما هو السجع الذي إفتنّ به إفتنانًا ، واستحدث منه ضروبًا وألوانًا ، فهناك السجع القصير الفقر (٢) كقوله في المدثر المكية :

« بسم : يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر ».

وله في (الرحمن المكية أو المدنية على قول) :

« بسم : الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان »

---

(١) الفواصل : جمع فاصلة وهي ماتختم به الآية .

(٢) السجعة القصيرة هي التي لا يتجاوز عدد كلماتها عشراً (راجع المثل السائر ص ٩٧) طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ هـ .

وقوله في سورة النجم المكية :

« بسم : والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة (١) فاستوى » .

وقوله في الدهر المدنية :

« بسم : إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا » .

وهناك الأسجاع المطولة (٢) كقوله في وصف المنافقين في سورة البقرة :

« بسم : في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (٣) . وإذا قيل لهم آمنو كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (٤) » .

وقوله فى وصف سفينة نوح (ع) والطوفان وما يتعلق بهما بسورة هود المكية :

---

(١) المرة : قوة الخلق وشدته ، وقيل ان المعنى بالآية هو جبرائيل (ع)

(٢) السجعة الطويلة هي التي تتألف من احدى عشرة الى عشرين كلمة ، ويعتقد صاحب (المثل السائر) بحق : « أنه لا ضابط للاسجاع المطولة » (انظر المثل السائر ص ٩٧ طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ هـ)

(٣) تتألف هذه الآية من سبع كلمات وبهذا تختلف وما تقدمها وما يأتي بعدها من الآيات الطوال .

(٤) أوردت طرفاً من الآيات المسجوعة في سورتي الدهر والبقرة المدنيتين لأنبه الافكار الى أن الزعم القائل بخلو السور المدنية من السجع نظراً لاشتمالها على الفرائض والأحكام غير صحيح ، وللقارىء أن يرجع الى كثير من السور المدنية الأخرى كالجمعة والمنافقين والزلزلة ليرى أن هذه السور حافلة بالاسجاع .

«بسم : وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل: يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين [١] » .

وهناك السجع المرصّع [٢] وهو الذي تزدوج أواسطه أو غيرها من اجزائه علاوة على ازدواج فواصله واتفاقها في الروي ، كقوله :

«بسم : والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحاً. فأثرن به نقعاً. فوسطن به جمعاً» [٣] فأنت ترى أن كلمتي العاديات والموريات تتفقان في الوزن والروي علاوة على اتفاق آخر الآيتين فيهما ، ومثل ذلك يلاحظ في قوله «فأثرن، ووسطن» ، فهاتان الكلمتان تتفقان وزناً وروياً علاوة على اتفاق الآيتين الكريمتين في الآخر . وهذا النوع الطريف من السجع منتشر في القرآن ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة (الغاشية المكية) : « إن [إلينا] أيابهم . ثم إن [علينا] حسابهم » .

(١) تختلف الآيات المسجوعة المطولة التي اقتبسناها من سورتي البقرة وهود طولا وقصراً ، فلآية « وهي تجري .. الخ» تتألف من تسع عشرة كلمة . والآية « قال سآوي . الخ» من ثلاث وعشرين ، والآية « وقيل يا أرض . . الخ » من سبع عشرة ، ويسمي القدماء هذا النوع من السجع (بالمطرف) لاشتمال طرفي السجعة على روي واحد دون أن تتفق الجملتان في عدد الكلمات .

(٢) آثرنا تسمية هذا النوع من السجع بالمرصع لترصيع فقره بكلمات تتفق في زنة المقاطع وفي الحرف الآخر علاوة على اتفاق الفواصل ، والقدماء يسمونه التصريع تشبيهاً للسجعة ببيت من الشعر ، مشتمل على قافيتين . ونلاحظ أن هذه التسمية غير مفهومة ، لأن اتفاق الكلمات في الوزن والروي - ان صح هذا التعبير - لا يقع فى الفقرة الواحدة وانما يقع فى فقرتين أو أكثر .

(٣) العاديات المكية .

وقوله في سورة (الانفطار) المكية : « إن [الأبرار] لفي نعيم . وإن [الفجار] لفي جحيم » . وهكذا .

وهناك نوع من السجع لم ينتبه إليه أحد من القدماء فيما أعلم ، وقد سميناه (المحلى بالعائد) لاشتماله على فقرة يتكرر إيرادها في تضاعيف الكلام لتكسبه رنة موسيقية خاصة ، ولتترك له في النفس أثراً قوياً جداً [1] : مثال ذلك أن (الرحمن) المسجوعة اشتملت على آية تكرّر إيرادها إحدى وثلاثين مرة ،هي قوله تعالى : (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان) وأن « المرسلات » المسجوعة كذلك التزمت إعادة قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » ثلاث عشرة مرة ، وان (القمر) التي هي أشد التزاماً للسجع من السورتين السابقتي الذكر كررت أربعة مرات آيتين متتابعتين بدلاً من آية واحدة وهما قوله: « فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » . ولكي تقدّر هذه الموسيقى البيانية الجميلة حق قدرها أورد هنا مُثُلاً قليلة من كل من هذه السور : قال في(الرحمن):

« بسم : خلق الأنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأيّ آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وقال في المرسلات :

---

(١) فطن الاستاذ أنيس الخوري المقدسي الى هذا التكرار الموسيقي فى (المرسلات) وشبه الآية المكررة بـ (اللازمة شعرية) ـ (تطور الأساليب النثرية ص ٣٨) وفطنا نحن له فى (الرحمن) و (القمر) ونرجح تسمية الآية المعادة بـ (العائد) لاعادتها غير مرة في تضاعيف الكلام ، وهذا مايسميه الفرنسيون فى الشعر (رفران ؛ Revran والألمان في الموسيقى(ليت موتيف) Leitmotiv ـ ولست أعرف لما سماه الاستاذ المقدسي (لازمة شعرية) وسميناه نحن (العائد) وجوداً في غير القرآن من الكتب العربية المنثورة .

« بسم : إنما توعدون لواقع. فاذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أُقّتت . لأيّ يوم أُجلت . ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذّبين . ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذّبين . ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين » .

وقال في (القمر) :

« بسم : كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجّرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قُدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر (١) . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدّكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . كذّبت عاد . فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢) » .

د ـ ومن يمعن النظر في القرآن يجد أنه شديد الميل إلى التزام قافية واحدة فقد التزمت الراء المنصوبة بالفتحة في معظم آيات سورة الدهر . واللام المنصوبة بها كذلك في (المزّمل) إلا قليلاً . والألف المقصورة في ست وخمسين آية في سورة النجم التي عدد آياتها اثنتان وستون . بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك،

---

(١) الدسر : جمع دسار ، وهو المسمار .

(٢) فصل بين الآيتين المكررتين عند اعادتهما المرة الثالثة بقوله : « بسم : انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم محتظر . » وحلت كلمة « فذوقوا » محل الكلمتين الأوليين في الآية « فكيف كان عذابي ونذر » عند اعادتهما المرة الرابعة . وغني عن البيان أن هذا غير مؤثر في الغرض الفني المقصود من الاعادة .

فقد التزمت الراء المسكنة في (القمر) من البداية إلى النهاية . وهناك سورة قصيرة روعيت فيها وحدة القافية مراعاة كاملة : منها (الشمس) و(الفيل) و(الاخلاص).

أتقول إن القرآن راعى في هذا أذواق العرب الذين هم يفضلون وحدة القافية على تعدّدها في أشعارهم ؟ قد يكون ذلك . إن القرآن حفظ للعرب نحوهم وصرفهم وأساليبهم في منثور الكلام ، وليس من المستبعد أن يجاريهم في ميلهم الشديد إلى وحدة القافية .

هـ ـ أضف الى ما تقدم أن للقرآن في أنواع نثره ، مسجوعاً كان أم غير مسجوع ، سمات وصفات يمتاز بها من الناحية الفنية [1] . فمن ذلك وضوح عبارته وقلة الغريب في لغته .

نزل القرآن ليكون هادياً لمن قرأه ومرشداً لمن سمعه ، وغني عن البيان أن كتاباً هذه غايته وتلك مهمته يجب أن يكون واضح الأغراض جليّ المقاصد ، وهذا ما حصل للقرآن بالفعل . فهو من جلاء التعبير وقلة الغريب بحيث لا يصعب فهمه على قارىء متوسط في ملكاته وثقافته . وقد سبق هنا إيراد مثل عديدة من سور مختلفة بعضها مكي وبعضها مدني . وقد رأيت أننا لم نفتقر للتعليق على ألفاظها إلا نادراً . على أني لا أنفي وجود الغريب [2] في القرآن نفياً باتاً ،

---

(١) ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) ص ٤١ و ٤٢ الجزء الأول مطبعة دار الكتب بمصر سنة ١٩٣٤ سبع مميزات للاسلوب القرآني غير ما نذكر هنا ، وذكر الأستاذ أنيس الخوري المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية) الجزء الأول ص ٤١ ـ ٤٨ أربعاً فليراجعها من اراد .

(٢) نريد بالغريب غير المألوف من الألفاظ ، وقد الفت كتب كثيرة في غريب القرآن غايتها البحث عما كان غريباً عن لغة قريش خاصة (كأرائك) و (معاذير) ـ اي ستور ـ اليمنيتين ، او عن اللغة العربية عامة (كسندس واستبرق) الفارسيتين ، و (مسك) و (كافور) السنسكريتيتين ، وغير ذلك .

ولكنني أزعم أن لغة القرآن مألوفة على الأكثر وأن الغريب لا يوجد فيها إلا نادراً .

وقد اشتد الانسجام في عبارة القرآن حتي أدّى لاستحالة آيات كثيرة أبياتاً أو أشطراً مستقيمة الوزن من الشعر ، من ذلك قوله (العاديات ـ مجزوء الرجز):

والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً

وقوله (النازعات (١) ـ مجزوء الرجز) :

والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً
والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً

وقوله (المرسلات (٢) ـ مجزوء الرجز أيضاً) :

والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً
والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً
فالملقيات ذكراً

وقوله (الانشراح ـ مجزوء الرمل)

ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك
ورفعنا لك ذكرك

أما الاشطر فهي كثيرة جداً منها قوله تعالى (الدهر المديد) :
« فجعلناه سميعاً بصيرا »
وقوله ـ الأحزاب ، المديد أيضاً ـ « إنه كان ظلوماً جهولا » .
وقوله ـ الزلزلة ، المتقارب ـ : « وأخرجت الأرض أثقالها » .
وقوله ـ الأنفال ، البسيط ـ : « ليقضي الله أمراً كان مفعولا » .

---

(١) النازعات : النجوم او القسي
(٢) المرسلات : الرياح او الملائكة او الخيل

وقوله ـ القمر ، الرجز ـ: « كأنهم أعجاز نخل منقعر[(١)] » .

وقس على ذلك كثيراً مما هو موجود في تضاعيف السور .

وقد عقد (السيوطي) في كتابه (الاتقان) فصلا ضافيا للكلام عن الشعر في القرآن ، فليراجع .

ولم يكن هذا النثر الجميل الذي يبلغ من شدة انسجامه أنه يستحيل شعراً موزونًا في كثير من الأحيان يخلو من المحسنات البيانية ، بل إنه حافل بها في أجزائه ، ولك أن تقرأ أية سورة من سوره المكية أو المدنية لترى أنها لا تخلو من تشبيه بليغ أو استعارة جميلة أو كناية مستملحة أو مجاز مستطرف أو طباق منسجم ، بل ربما اشتملت السورة على هذه المحسنات كلها أو أكثرها . بيد أنه يجب أن يلاحظ أن هذه الزخارف البيانية إنما تأتي عفواً وتفيض من منبع الالهام فيضًا ، وإلا فأيّ تكلّف في هذا التشبيه :

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون[(٢)] القديم[(٣)] »

---

(١) في سورة الرحمن المكية آية تكون شطراً من الرمل متبعاً بكلمتين تؤلفان ذيلا طريفاً هي : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وقد احتذى صفي الدين الحلي المتوفى سنة (٧٥٠) للهجرة مثال هذه الآية فنظم على نسقها موشحة أولها :

شق جيب الليل عن نحر الصباح　　　أيها الساقون

وفي سورة الاسراء آية بدئت بشطر من الهزج وختمت بمثله وتخللها كلام منثور منسجم كل الانسجام مع هذين الشطرين من حيث الاطراد والرنة الموسيقية وهي ـ بسم ـ « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » . وقد قلد ابن معتوق الموسوي أحد شعراء العراق في القرن الحادي عشر للهجرة هذه الآية بنوع من الكلام سماه بنداً ، وكان البند رائجاً في العراق رواجاً لا بأس به في أثناء القرن الماضي . ولعل من خير قائليه في هذا العصر المرحوم الشيخ صالح التميمي البغدادي الذي يبدأ بنده هكذا :ـــ

« سل الخلخال ينبئك　　　وحاشاه من الافك » ، وابن الخلفة وبنده معروف .

(٢) العرجون : الشمراخ المعوج

(٣) ياسين المكية

وفي هذا التشبيه :

« بسم : وإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان[١] »[٢]

وفي هذا التشبيه :

« بسم : مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً[٣] » .

وأي تعسف في هذا الطباق :

« بسم : والسماء رفعها ووضع الميزان[٤] »

وفى هذا الطباق :

« بسم : والضحى والليل إذا سجا[٥] »

وفي هذا الطباق أيضاً :

« بسم : وإنه هو أضحك وأبكى ، وإنه هو أمات وأحيى[٦] »

وأي تعمّل فى هذا المجاز :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

وفى هذا المجاز أيضاً :

« ربي إني وهن العظم مني (واشتعل) الرأس شيبا[٧] »

---

(١) الدهان : جمع دهن أو هو ما يدهن به

(٢) الرحمن

(٣) الجمعة المدنية

(٤) الرحمن .

(٥) الضحى المكية .

(٦) النجم المكيه .

(٧) مريم المكية .

الحقّ أن القرآن مثل أعلى في استعمال المحسنات البيانية ضمن حدود الاعتدال وبدون تعسف ولا تكلف .

وحيث أن القرآن يستهدف قوة التأثير على عقول سامعيه وقارئيه وقلوبهم علاوة على الجمال الفني ، فقد عمد إلى استعمال عدة وسائل أهمها التكرير ، وقد رأينا أنه يلتزم تكرار آية أو آيتين مراراً عديدة في السورة الواحدة طلباً للرنة الموسيقية ، فنلاحظ الآن أنه يكرّر اللفظ أو الجملة مرتين أو ثلاثاً سعياً وراء قوة التأثير :

١ ـ « بسم : إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق[١] »

٢ ـ « بسم : فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة[٢] »

٣ ـ « بسم : كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون[٣] »

٤ ـ « بسم : إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر[٤] »

وهذا السبب الذي دعا القرآن إلى استعمال التكرار والاكثار منه بنسبة كبيرة هو الذي حدا به الى استعمال أدوات الاستفهام بمقياس واسع جداً ، فهي تطرد فيه مرة للتنبيه ، وتارة للاستنكار ، وطوراً للاثبات عن طريق النفي . فمن أمثلة الأول قوله تعالى :

« أرأيت الذي يكذّب بالدين فذلك الذي يدعّ اليتيم[٥] »

---

(١) العلق المكية

(٢) البلد

(٣) النبأ

(٤) المدثر

(٥) الماعون المكية

ومن أمثلة الثاني قوله :

« بسم : أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ أفلا تعقلون ؟[١] »

وقوله :

« بسم : أفتمارونه على ما يرى ؟[٢] »

وقوله بعد آيات قليلة في نفس السورة :

« بسم : أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ »

وقوله في آخر هذه السورة :

« بسم : أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ »

ومن أمثلة الثالث قوله في الكلام عن الانسان :

« بسم : ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين[٣] ؟[٤] »

وقوله :

« بسم : ألم نجعل الارض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجا .. الخ[٥] »

وقوله :

« بسم : ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى[٦] ؟ »

---

(١) البقرة

(٢) النجم

(٣) النجدان : طريقا الخير والشر

(٤) البلد

(٥) النبأ

(٦) الضحى

(و) إذا كانت أنواع النثر العربي تنقسم الى نثر مرسل وآخر مزدوج وثالث مسجوع ، كما ذكرت ، وإذا كان ما أوردت من النصوص القرآنية غير منتحل ولا مكذوب ، وإذا كان ما زعمت وجوده في القرآن من عناصر البلاغة كسلامة اللفظ وانسجام التعبير والاشتمال على المحسنات البيانية في غير تكلف موجوداً فيه حقاً ، أقول: إذا كان كل ذلك صحيحاً فليس من المجازفة في شيء أن نقرر أن القرآن سفر منثور له قسطه من الحيوية والجمال وحظه من البراعة والقوّة .

الفصل الثاني

الخطابة في عصر القرآن

أ ـ إنتصار القرآن من الناحية الأدبية .

ب ـ أثره في خطب القرن الأول للهجرة وكتبه .

ج ـ الخطابة في عصر الراشدين :

خطبة أبي بكر في وصف الملوك ، خصائصها الفنية . خطبة عمر بعد تشييعه سعد بن أبي وقاص ، أسلوبها . خطب الامام علي ، الشكوك بنهج البلاغة ، مناقشتها ، وصف الشيخ محمد عبده ماترك نهج البلاغة في نفسه من الانطباعات (هامش) ، الشريف الرضي ، سيرته ، ثناء عليّ على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، بقية المصادر التي نقل عنها الشريف الرضي ، عشر خطب للامام علي في العقد الفريد ، مُثل منها ، استعراض الصلة الفنية بين خطب الراشدين والقرآن ، طبيعة علي بن أبي طالب الشعرية وأثرها في خطبه ، خطبته بعد تلاوة « ألهاكم التكاثر » ، مثل منها ، مميّزاتها الفنية .

د ـ بقاء الخطابة على عهد بني أمية كما كانت في أيام الراشدين . خطبة للحسن بن علي ، خطبة لمعاوية بن أبي سفيان ، خطبة لعمر بن العزيز ، خطبة لعبد الله بن الزبير ، نبذة من خطبة لابي حمزة الأباضي .

هـ ـ العناصر التي تجمع بين القرآن وخطب القرن الاول للهجرة . أسباب تأثر العرب بالقرآن في هذا العصر .

***

(أ) من اليسير جداً أن ندرك أن انتصار الدعوة الاسلامية لم يكن دينياً وسياسياً فحسب ، وإنما كان أدبياً أيضاً ، وأدبياً إلى حد بعيد ، فليس من شك في أن تلاوة القرآن باتت أمراً لا بد منه لجمهور الأمة العربية عند غلبة الاسلام

على شبه الجزيرة : يتلوه المسلم المخلص الصادق لأنه يؤمن به ويمجده ويقدسه ، ويتلوه المنافق الذي يدين بالاسلام في الظاهر ويعاديه ويكيد له في الباطن لتنطلي حيلته وتجوز على أنصار الدين الجديد خدعته ، على أنه لا يبعد أن يستحسنه ويعجب به كثيراً أو قليلا من الناحية الفنية .

وغني عن البيان أن كتاباً هذا حظه من الانتشار والذيوع لا يلبث أن يستولي على كل عقل وينفذ إلى قرارة كل نفس ويؤثر في كل خيال . وهـذا ماحصل بالفعل، فقد كان القرآن عظيم التأثير في أذهان العرب وقرائحهم ، شديد الاستيلاء على عقولهم ومداركهم ، ليس فقط في أيام النبي والراشدين ، بل وفي أيام بني أمية ، حتى أننا لنستطيع أن نسمي هذا العصر الذي يبدأ باعلان الدعوة الاسلامية وينتهي بزوال دولة بني أمية في الشام : « عصر القرآن » وما بيان ذلك ولا إثباته بعسير .

(ب) فأكبر مميّزات القرآن كما رأيت في الفصل السابق : قلة الغريب وشدة الانسجام إلى درجة تستحيل معها العبارة في كثير من الأحيان شعراً مستقيم الوزن . واستعمال الزخارف البيانية كالمجاز والتشبيه والاستعارة والجناس والطباق في غير تـكلف ولا تصنّع ، والتزام السجع في مواطن كثيرة وتطويله حيناً وتقصيره حيناً آخر ، والاستعاضة عنه بالازدواج أحياناً وإحلال الـكلام المرسل محلها كلما اقتضت ذلك سلامة الأداء .

ونحن واجدو هذا كله بنسب مختلفة طبعًا في خطب الراشدين وكتبهم التي حفظتها لنا معاجم الادب والتاريخ الجديرة بالثقة كـ (البيان والتبيين) للجاحظ، و (تاريخ الامم والملوك) للطبري ، و (مروج الذهب) للمسعودي ، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه ، وما يجري هذا المجرى من المراجع المهمة . وفي الخطب والرسائل التي حفظتها لنا هذه المصادر أيضاً عن العهد الأموي . ونعرض الآن

للخطب لخطورتها وغلبتها على القرن الأول للهجرة على أن نبحث عن الرسائل في فصل قادم .

(ج) اقرأ خطبة أبي بكر في وصف فريق من الملوك(١) :

« إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما عنده ورغّبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الاشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط الكثير ، ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البهاء(٢) ، لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسي(٣) والسراب الخادع ، جذل الظاهر ، حزين الباطن . فاذا وجبت(٤) نفسه ونضب عمره وضحا ظله ، حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقل عفوه ، ألا إن الفقراء هم المرحومون ، وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتابه وسنّة نبيه صلى الله عليه تعالى وسلم . وإنكم اليوم على خلافة النبوة ، ومفرق المحجّة ، وسترون بعدي ملكاً عضوضاً(٥) وملكاً عنوداً ، وأمة شعاشاً(٦) ودماً مفاحاً . فان كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفو بها الأثر ، ويموت بها البشر ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن والزموا الطاعة ولا تفارقوا الجماعة ، وليكن الابرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر(٧) ..الخ»

فأنت ترى أن هذه الخطبة القصيرة تحتوي على عدة فقر مسجوعة ، وعلى

---

(١) خطب ابو بكر (رض) ذات يوم فقال : « ان أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك » فرفع الناس رؤوسهم فقال : « مالكم ايها الناس انكم لطعانون عجلون » ومضى في الخطبة .

(٢) الباه : النكاح

(٣) القسي : الرديء الفضة

(٤) وجبت : ماتت . ووجبت الشمس : غابت ، والعين غارت

(٥) ملك عضوض : فيه جور وعسف .

(٦) شعاعاً : متفرقة

(٧) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

جمل أكثر منها مزدوجة ، هذا إلى أنها لم تخل من المحسّنات البيانية التي وردت فيها عفواً ، فما أشك أنك قد استملحت تشبيه الملك السعيد في الظاهر الشقي في الباطن (بالدرهم القسيّ والسراب الخادع) . كذلك لا أشك في أنك قد استظرفت هذا الطباق « يحسد على القليل ويتسخط الكثير » وهذا الطباق : « جذل الظاهر حزين الباطن » .

وخُطب عمر (رض) لا تقلّ عن خطب أبي بكر روعة وجمالاً ، إليك منها هذه الخطبة التي ألقاها بعد تشييعه جيش سعد بن أبي وقاص : —

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرّف لكم الأقوال ، ليحيي بها القلوب، فأن القلوب ميّتة في صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الامارات : فالحياء والسخاء ، والهين واللين ، وأما التباشير : فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسّر لكل باب مفتاحاً . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكّر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيك[(١)] من الكفاف ، فانّ من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فأنهوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع ، فالى من يبلغناها ، نأخذ له الحق غير متعتع[(٢)] »

في الواقع أن هذه الخطبة تكاد تخلو من الازدواج والسجع ، إلا أنها عامرة بكثير من المزايا الفنية الأخرى : فهي صحيحة اللفظ مطردة الاغراض والمقاصد

---

(١) في تاريخ الأمم والملوك (يكفيه) .
(٢) تاريخ الأمم والملوك طبعة ليدن السلسلة الأولى المجلد الرابع صفحة ٢٢١٩ .

اطراداً منطقياً واضحاً،منزهة عن وحشيّ الكلام وحوشيّه ، وهذا هو ما أعجب عمر من زهير بن أبي سلمى كما تعلم وما نجده في خطبه كلها . وموقف عمر من الزخرفة البيانية في خطبه شبيه بموقف زهير منها في شعره ، فهو لا يكدّ في سبيلها ذهنه ولا يجهد قريحته ، ولكنه لا يأباها إذا جاءت فيض البديهة . ومما جرى على لسانه عفواً من هذا القبيل في الخطبة الآنف ذكرها هاتان الاستعارتان الجميلتان في قوله : « فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد » . وأحب أخيراً أن ألفت نظرك الى هذا التحليل الدقيق والوجيز في وقت واحد للعدل والاعتبار والزهد ، فانه من أهم عناصر البيان في هذه الخطبة ومن أسطع الأدلة على أن المقصود منها لم يكن (مجرد الأداء) وإنما هو (إثارة الجمال الفني) ومحاولة التأثير عن طريقه في نفس القارىء أو السامع .

ولعثمان (رض) خطب قليلة رواها الطبري وغيره من المؤرخين يخيل إليّ أنه ليس من الضروري الوقوف عندها والتحدث عنها . وعلى هذا ننتقل إلى خطب الامام عليّ (ع) التي لا بد لنا من إطالة الوقوف عندها والافاضة في الكلام عنها لكثرتها وتنوّع موضوعاتها وعظم خطرها من الناحية الفنية[1] .

---

(١) قد لا يخلو من فائدة كبيرة أن نثبت هنا وصف الامام المغفور له الشيخ محمد عبده أحد شراح نهج البلاغة ، الانطباعات التي تركها هذا الكتاب في نفسه ، قال : —

« كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية ، توحي اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جواد الفضل والكمال .

وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباه النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرماها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء . . وأحياناً كنت أشهد عقلاً =

ستقول : « وما رأيك بالشكوك التي حامت منذ عصور وما زالت تحوم حول (نهج البلاغة) ؟ وأجيب بأني لا أعتمد على هذا الكتاب في اقتطاف المثل التي أختارها لهذا الفصل من خطب الامام علي ، هذا مع العلم بأني أصحّح نسبة نهج البلاغة إليه إجمالاً . وأقول إجمالاً لأنه ليس من المتعذر أن يغفل الشريف الرضي عن قبول خطبة أو رسالة أو كلمة مدسوسة على جدّه إذا كان لهذه من حسن الصيغة وجمال الصورة وسمو الهدف ما يضمن جوازها على أمثاله من أعلام البيان . كما أنه ليس من المتعذّر أن يدسّ أحد النسّاخ جملة أو أكثر في ثنايا هذا السفر ، وقد دُسّت الأحاديث قبل هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودُسّت بمقياس واسع جداً . وما أشك أنك ستسألني عن الأسباب التي تحملني على أن أقف من نهج البلاغة هذا الموقف . وإليك الجواب :

١ ـ يزعم المرتابون بنهج البلاغة وفي طليعتهم ابن خلّكان (١) أن الشريف

= نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الأهلي واتصل بالروح الانساني ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الأعلى ونما به الى مشهد النور الأجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس .

وآناء كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة ، يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم الى دقائق السياسة ويهديهم طريق الكياسة ويرتفع بهم الى منصات الرئاسة ... »

(شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ١ ص ٣ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر) .

(١) الواقع أن الشبهة التي أثارها ابن خلكان لم تتناول نسبة نهج البلاغة الى الامام علي فقط . وانما تناولت نسبته الى الشريف الرضي أيضاً . فهو يقول في ترجمة الشريف المرتضى ما نصه : « وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضي . وقد قيل انه ليس من كلام علي ، وانما الذي جمعه ونسبه اليه هو الذي وضعه ، والله أعلم »(وفيات الأعيان طبعة بولاق ، الجزء الأول ص ٣٣٨)

وواضح أن هذه الكلمة لا تعتمد على مصدر ولا تستند الى أساس ، ومما لا شك فيه أنه لو كان ابن خلكان يعرف أحداً يمكن أن تعزى اليه هذه الاقوال لما تردد في ذكره . ولكنه الهوى أعاذنا من شره ، ووقانا كيد شيطانه .

الرضي هو الذي صنعه ونسبه إلى جده، ونحن إذا استعرضنا سيرة الشريف الرضي في أوثق المصادر التي عنيت به وكتبت عنه كـ(يتيمة الدهر) و(مقاتل الطالبيين) و (الكامل في التاريخ) تبين لنا أنه رجل جمّ المروءة محمود الخصال طاهر الذمة شديد التمسك بالدين . ومما يؤيد هذا ويؤكده أن هذا الرجل ولي نقابة الطالبيين وإمارة الحاجّ وولاية دفع المظالم في حياة أبيه الذي طالما اضطلع بأعباء هذه المناصب وأخيه الشريف المرتضى وهو أكبر سناً وأكثر فقهاً منه . أفيعهد إليه كل هذه المناصب الدينية الخطيرة مجتمعة ومتفرقة وهو من فساد الذمة بحيث يختلق كتاباً كاملاً وينحله إماماً من أعظم أئمة المسلمين ؟

٢ ـ على أن الشريف الرضي لو كان من الذين يعبثون بالنصوص التاريخية فيزيدون فيها وينقصون منها إرضاء لنزعة من النزعات لحذف من كلام جده خطبته في الثناء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي :

« لله بلاد فلان ، فقد قوّم الأود ، وداوى العمد[1] ، خلف الفتنة[2] وأقام السنّة ، ذهب نقي الثوب قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه ، رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي[3] » .

٣ ـ ومع أن الرضي روى عن مصادر ضاع أكثرها ، فلا يزال في حوزتنا عدد لا بأس به من هذه المصادر ، كـ(البيان والتبيين) و (مروج الذهب) و(تاريخ الامم والملوك) .

---

(١) العمد : العلة

(٢) لم يدركها ولم تدركه

(٣) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٦١ـ٥٦٢ طبعة مطبعة دار الكتب العربية بمصر .

وأنت إذا درست أقوال الامام الموجودة في هذه الكتب وقارنت بينها وبين الخطب والرسائل والحكم الموجودة في نهج البلاغة ، رأيت أنها تحمل على العموم طابعاً واحداً وتمثل أسلوباً واحداً وعبقرية واحدة .

هذه هي الأسباب التي تحملني على تصحيح نسبة نهج البلاغة إلى الامام علي إجمالاً . أما المثُل التي أود إيرادها في هذا الفصل من خطبه فهذه هي مقتبسة من الجزء الثاني من العقد الفريد[1] ، قال عليه السلام :

« الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه ، واستوجبه[2] على جميع خلقه ، الذي ناصية كل شيء بيده ، ومصير كل شيء إليه ، القويّ في سلطانه ، اللطيف في جبروته ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، خالق الخلائق بقدرته ، ومسخّرهم بمشيئته ، وفيّ العهد ، صادق الوعد ، شديد العقاب جزيل الثواب ، أحمده وأستعينه على ما أنعم به مما لا يعرف كنهه غيره ، وأتوكل عليه توكّل المستسلم لقدرته ، المتبرىء من الحول والقوة إليه ، وأشهد شهادة لا يشوبها شك أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبّره تكبيرا ، وهو على كل شيء قدير » . ومنها :

---

(١) لعلي بن ابي طالب (ع) في هذا الكتاب عشر خطب ، عرض في خمس منها للسياسة فتكلم عن رجالها وأحداثها فى عصر من سبقه من الخلفاء وفى عصره تلميحاً وتصريحاً واقتصر فى الخمس الأخرى على تمجيد الله والثناء على الرسول (ص) ووصف الملائكة والكلام عن الدنيا والموت والبعث وعلى اسداء المواعظ والنصائح الدينية والأخلاقية. ومما هو جدير بالذكر أن كثرة خطب الامام المروية في العقد الفريد وبراءة ساحة مؤلفه مما يتهم به الشريف الرضي : هما اللذان حملاني على ايثاره فى ايراد المثل والشواهد .

(٢) استوجبه : استحقه .

« وأشهد أن محمداً (ص) صفوته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً ، وإلى الحق داعياً ، على حين فترة من الرسل ، وضلالة من الناس واختلاف من الأمور ، وتنازع من الألسن ، حتى تمّم به الوحي ، وأنذر به أهل الأرض ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله فانها العصمة من كل ضلال ، والسبيل إلى كل نجاة »[١].

وقال من أخرى :

« أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار اليوم والسباق غداً ، ألا وإنكم في أيام أمل ، من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله ، قبل حضور أجله ، نفعه عمله ولم يضرره أمله ، ومن قصّر في أيام أمله ، قبل حضور أجله ، فقد خسر عمله ، وضره أمله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولم أر كالنار نام هاربها ، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل[٢] »[٣].

وقال يوبّخ أصحابه لتواكلهم عن نصرته :—

« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهن الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، تقولون في المجالس كيت وكيت ، فاذا جاء القتال

---

(١) العقد الفريد الجزء الثاني . طبعة المطبعة الجمالية بمصر ص ٣٥٢

(٢) مما يستدل به الشاكون في نسبة نهج البلاغة الى الامام علي (ع) على اختلاقه كله أو أكثره اشتماله على خطب مسجوعة زاعمين أن السجع من مميزات النثر العربي في القرن الرابع للهجرة ، الا أننا اذا تذكرنا ما أسلفنا ايراده من نماذج السجع فى القرآن تبينا ما في هذا السبب الباعث على الشك من قوة ووجاهة ، على أننا قد روينا هذه الخطبة المسجوعة لعلي (ع) عن غير نهج البلاغة .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٥٣

فلِمَ حيدي حياد(١) ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليل بأباطيل ، وسألتموني التأخير(٢) دفاع ذي الدّين المطول ، هيهات لا يمنع الضيم الذليل(٣) ولا يدرك الحق إلا بالجد . أي دار بعد داركم تمنعون ، ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون . المغرور والله من غررتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . أصبحت والله لا أصدق قولكم . ولا أطمع في نصرتكم . فرّق الله بيني وبينكم . وأعقبني بكم من هو خير لي منكم . وددت(٤) والله أن لي بكل عشرة منكم رجلاً من بنى فراس بن غنم ، صرف الدينار بالدرهم »(٥)

والآن ، أرأيت كيف يقلّد هؤلاء الخطباء القرآن فيسجعون كما يسجع في غير تكلف ، ويكثرون من الازدواج كما يكثر منه ؟ ويميلون إلى الكلام المرسل كلما استدعته سلامة الأداء كما يميل إليه ؟ أرأيت كيف يذهبون مذهبه وينحون منحاه في إيثار المألوف على الغريب من الألفاظ ؟ وفي إحكام السبك والعناية بالانسجام ؟ أرأيت كيف ينهجون سبيله في استعمال المحسّنات البيانية ، كلما أتت عفو البديهة وفيض الخاطر فيأتون بالاستعارات الجميلة والتشابيه البليغة والعبارات المجازية المستطرفة(٦) في غير تعمل ولا تصنع ؟

وما أرتاب في أنك قد لاحظت أن خطب الامام علي (ع) أميل إلى السجع وأحفل بالأزدواج وأشدّ التماساً للجمال الفني ، وسبب ذلك بيّن : فطبيعة علي بن

---

(١) في العقد الفريد (حياد) فقط ، ولكنها في البيان والتبيين (حيدي حياد) وهو الصحيح . وهي كلمة يقولها الهارب كأنه يسأل الحرب أن تتنحى عنه .

(٢) لا وجود لهذه الفقرة في نهج البلاغة وهو الأصح .

(٣) آثرت اقتباس هذه الجملة من البيان والتبيين ، ومكانها في العقد الفريد (ألا يدفع الضيم الذليل) .

(٤) في البيان والتبيين (لوددت) .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٥٤

(٦) انظر خاصة الخطبة الثانية من خطب الامام علي (ع)

أبي طالب الشعرية كثيراً ما تحلّق به في جوّ الخيال والشعر ، وتسبغ على نصائحه ومواعظه وآرائه في الدين والسياسة والاجتماع ألوانا مختلفة من الجمال تخلق منها صوراً بيانية رائعة .

والآن وقد عرفت أسلوبه الخطابي عن غير طريق نهج البلاغة وتبينت خصائصه ومميزاته بصورة قوية واضحة أبيح لنفسي أن أروي لك طرفاً من خطبة ألقاها بعد تلاوة (ألها كم التكاثر) تفرّد بروايتها نهج البلاغة وقال عنها الشريف الرضي إنها من أجلّ خطبه ، قال :

« يا له مراماً ما أبعده ، وزوراً ما أغفله ، وخطراً ما أفظعه ، لقد استخلوا منهم أي مدّكر وتناوشوهم من مكان بعيد، أبمصارع آبائهم يفخرون ، أم بعديد الهلكى يتكاثرون ، يرتجعون منهم أجساداً خوت ، وحركات سكنت ، ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخرا ، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزّة ، لقد نظروا اليهم بأبصار العشوة وضربوا منهم في غمرة جهالة ، ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية ، والربوع الخالية، لقالت ذهبوا فى الأرض ضلاّلاً وذهبتم في أعقابهم جهّالاً ، تطأون في هامهم، وتستنبتون في أجسامهم ، وترتعون فيما لفظوا ، وتسكنون فيما خرّبوا ، وإنما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوائح عليكم ، أولئكم سلف غايتكم[١] وفرّاط[٢] مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم[٣] العز وحلبات الفخر ، ملوكاً وسوقاً سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلّطت الأرض عليهم فيه ، فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم . فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون وضماراً[٤] لا يوجدون،

---

(١) السلف هنا المتقدمون والغاية : الموت

(٢) فراط : جمع فارط وهو متقدم القوم الى الماء

(٣) المقاوم : جمع مقام

(٤) الضمار خلاف العيان

لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكّر الأحوال، ولا يحفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف ، غيباً لا ينتظرون . وشهوداً لا يحضرون ، وإنما كانوا جميعاً فتشتتوا ، وألافاً فافترقوا ، وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم عميت أخبارهم وصمّت ديارهم ، ولكنهم سقوا كأساً بدّلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات ، جيران لا يتآنسون، وأحباء لا يتزاورون ، بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الأخاء فكلهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلّاء ، لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء ، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا ... الخ[1] »

وأنت إذا تدبرت ما سلف إيراده من هذه الخطبة شعرت في الحال بأنها منقطعة النظير في تحليل عالم الفناء وتصوير ما وراء هذه الحياة .

في الواقع أن الموضوع بعيد كل البعد عن أن يكون جديداً، ولكن الشكل الممتاز الذي أفرغه به الخطيب خلع عليه من الجلال والرونق ما يثير دهشة الناقد وإعجابه .

إننا نستطيع أن نقول في وصف هذه الخطبة إنها فصيحة الألفاظ قصيرة الجمل كثيرة المجاز والطباق عامرة بالاستعارات والتشابيه ، على أنها بريئة كل البراءة من التعمل والتكلف، ولكن قد تجتمع هذه العناصر كلها في كلام دون أن تكسبه هذه الروعة التي نجدها في هذه الخطبة ، ذلك هو فيض العبقرية الذي يقصر عنه النقد ، ولا يحيط به التحليل ، ولقد أصاب (مارتي لافو) Marty - Lavaux بقوله عند دراسته اسلوب (كورني) ما ملخصه : « إننا لا نستطيع أن ندرك لدرجة كافية سر جمال المرأة التي تفيض نظراتها وابتساماتها

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٤٢ـ٥٤٥ طبعة مطبعة دار الكتب العربية بمصر .

سحراً، كذلك نحن لا نستطيع أن ندرك لدرجة كافية سر الجمال في أسلوب خطيب عبقري أو كاتب بارع أو شاعر نابغ » .

(د) ومهما يكن من شأن هذه الخطبة فانها و كل خطب نهج البلاغة تحمل طابع القرآن الذي امتاز به أسلوب الخطابة على عهد الراشدين ، ذلك الطابع الذي تمتاز به خطب الأمويين والمروانيين وخطب خصومهم من علويين وزبيريين وخوارج ، وبعبارة أخرى خطب صدر الاسلام ودولة بني أمية ، وإليك مثلا على ذلك هذه الخطبة التي ألقاها الحسن بن علي رضي الله عنهما عند عقده الصلح مع معاوية . قال :

« أما بعد أيها الناس : فان الله قد هدى أوّلكم بأوّلنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت ، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين[1] » .

وهذه الخطبة التي ألقاها معاوية بن أبي سفيان على منبر المدينة عندما قدمها حاجاً في عام الجماعة :

« أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون (فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) ولست واسعاً كل الناس فان كانت محمدة فلا بد من مذمة ، فلوماً هوناً إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكرت أوثقت[2] » .

وهذه الخطبة لعمر بن عبد العزيز ، وهي تعبّر أصدق تعبير عن زهد هذا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٩٣ .

(٢) العقد الفريد الطبعة الأولى بالمطبعة الجمالية بمصر ج ٢ ص ٣٦١

الخليفة وتقشفه واهتمامه بمصالح رعيته وميله الشديد للمساواة بين الناس :

« ايها الناس . إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم ، وباع قليلا بكثير وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون حتى يردّوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم فى كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً الى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع من لارض ثم تدعونه غير موسّد ولا ممهّد ، قد خلع الأسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب، مرتهناً بعمله غنياً عما ترك فقيراً إلى ما قدّم ، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحداً منكم إلا وددت أن يده مع يدي ، ولحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله اني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دلّ فيها على طاعته ونهى عن معصيته (١) » .

وهذه الخطبة التي ألقاها عبد الله بن الزبير عندما قدم عليه وفد من العراق أثنى على إدارة أخيه مصعب وأطرى سياسته وكياسته ، قال :

« قد جرّبوني ثم جرّبوني ... من غلوتين ومن المئين
حتى إذا شابوا وشيبوني ... خلّوا عناني ثم سيبوني (٢) »

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٦٨ طبعة المطبعة الجمالية بمصر ، البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٠ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

(٢) الغلوة : الغاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ويقال هي قدر ثلاثمائة ذراع الى أربعمائة . وسيبوني : تركوني

أيها الناس . إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب ، ألا إن مصعبا اطبى[1] القلوب ، حتى ما تعدل به والأهواء حتى ما تحول عنه ، واستمال الالسن بثنائها ، والقلوب بنصحها ، والنفوس بمحبتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسط يده من البذل[2] » .

وأخيراً إليك طرفاً من خطبة لأبي حمزة الأباضي أحد كبار خطباء الخوارج استعرض فيها تأريخ المسلمين من بدء الدعوة الاسلامية إلى عهده ، وأبدى رأيه في كل خليفة من الخلفاء الراشدين والأمويين ، وتكلم عن بعض العقائد الرائجة في عصره فندد بها تنديداً شديداً ، وختمها بالثناء على أصحابه واصفاً إياهم بالعبادة والزهادة ، وبالشجاعة والاستماتة في سبيل ثواب الله ورضوانه ، وما أرويه لك منها متعلق بالموضوع الأخير ، قال :

« ... يا أهل الحجاز ، أتعيّرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله (ص) إلا شباباً ؟ ! أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء[3] عبادة وأطلاح[4] سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض أيديهم وركبهم

---

(١) اطبي : استمال

(٢) شرح ابن ابي الحديد المجلد ٤ : ص٩٢ ٤طبعة مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر

(٣) أنضاء : جمع نضو وهو الخفيف اللحم من التعب

(٤) أطلاح : جمع طلح وهو المهزول .

وأنوفهم وجباههم ، واستقلّوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى إختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله[1] » .

(هـ) إذا لم يخطىء ظني فالمثل التي اقتطفناها من خطب الأمويين والعلويين والزبيريين والخوارج تدل دلالة قاطعة على أن الخطابة في عهد بني أمية لم تفقد شيئاً مما كانت تمتاز به في عهد الراشدين ؛ فخطب الصدر الاول ، وخطب الأمويين وخصومهم كلها جزلة الألفاظ حلوة التعابير ، قليلة الغريب ، جلية المقاصد والأغراض . تجمع بين الرصانة واللطف والمتانة والانسجام . وكلها على وجه الاجمال عامرة بالسجع في غير تكلف ، حافلة بالازدواج دون أن تتقيد به ، معتدلة في استعمال المحسنات البيانية اعتدالاً تاماً ، لا تأخذ منها إلا ما جادت به البديهة عفواً ، أو جرى على اللسان دون تعمّل ولا تصنّع ، فاذا تذكرنا أن هذه الخصائص الفنية كانت أهم ما ظفرنا به، عند دراستنا أسلوب القرآن ، تبيّن لنا بوضوح أن خطباء عصر القرآن على اختلاف طبقاتهم كانوا متأثرين بالقرآن أشد التأثر ، يقلدونه في أساليبه ويحذون حذوه في مختلف نزعاته البيانية ، فضلاً عن أنهم يكثرون من التمثل بآياته . وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب ؛ فعنايتهم به ودراستهم له وفهمهم إياه بفضل صفاء طبيعتهم وسلامة فطرتهم البدوية ورجوعهم اليه في أمور دينهم ودنياهم ، كل ذلك يجعل تأثرهم به إلى هذا الحد أمراً طبيعياً .

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١ ، طبعة مطبعة الفتوح بمصر

الكتابة الانشائية في عصر القرآن

أ – الاجماع على أن عبد الحميد بن يحيى أستاذ هذه الصناعة الأكبر، ترجمة عبد الحميد (هامش) . خصائصها الفنية المزعومة على عهده ، مناقشتها .

ب ـ فضل الراشدين ولاسيما عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رض) على صناعة الانشاء . رسالة عمر إلى معاوية في القضاء . رسالته إلى أبي موسى الأشعري في السياسة والادارة . رسالته إلى سعد بن أبي وقاص في تدبير الجيوش . أسلوب عمر الانشائي . رسالة علي إلى معاوية في طلب البيعة . رسالة أخرى من علي إلى معاوية في الجدل والمناظرة . كتابه إلى محمد بن أبي بكر بعد وفاة الأشتر . قطعة من وصية كتب بها إلى ابنه الحسن .

ج ـ قيمة هذه العهود والرسائل الفنية . العناصر التي تجمع بينها وبين القرآن .

د ـ عود إلى عبدالحميد بن يحيي الكاتب ، خصائصه الحقيقية كما تمثلها رسالته إلى ولي العهد ، مثل من هذه الرسالة ، ما ينسب إلى عبدالحميد من الآثار ، خلوها من طابعه الخاص ، التجانس في رسائل علي وعمر وخطبهما ، فقدانه في آثار عبد الحميد ، شهرته : أسبابها ، بطلانها ، مكان علي وعمر من صناعة الانشاء .

***

(أ) يكاد يجمع مؤرخو آداب اللغة العربية في هذا العصر على أن عبدالحميد بن يحيي الكاتب[1] إمام صناعة الانشاء في عصر صدر الاسلام ودولة بني أمية ،

(١) هو مولى فارسي لبني عمرو بن لؤي بن غالب ، يقال انه ولد في الشام ، الا أن تاريخ ولادته ونشأته مجهول . والمعروف من أمره أنه احترف تعليم الصبيان مدة من الزمن ، ثم تقلبت به الأحوال حتى صار كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ويظهر أنه كان أمين سره وموضع ثقته . ومن هنا كانت شهرته . وقد صحب سيده مدة خلافته =

وعلى أنه خرج بهذه الصناعة من سذاجة البداوة إلى تفنن الحضارة ، ووضع لها أصولاً وقواعد يرجع إليها حملة الأقلام في إنشاء الرسائل الاخوانية والسلطانية، ولذلك فانهم — أعني مؤرخي الأدب — يقتصرون على إثبات ترجمته وإيراد مثل من رسائله عند الكلام عن الكتابة الانشائية في هذا العصر ، ويكاد هؤلاء المؤرخون يجمعون كذلك على أن الكتابة الانشائية مدينة لعبد الحميد هذا بما يأتي :

١ ـ إطالة التحميدات في صدور الكتب .
٢ ـ الأسهاب في الرسائل السلطانية .
٣ ـ تنويع الخطاب تبعاً لحال المخاطب .
٤ ـ الايجاز والاطناب مراعاة لمقتضى الحال .
٥ ـ التفنن في البدء والختام مطابقة للغرض .
٦ ـ تخيّر الالفاظ الفصيحة المألوفة .
(١)

= وحضر المارك التي دارت بينه وبين بني العباس . ويروى ان هذا قال له فى يوم من أيام محنته ان القوم سيحتاجونك لأدبك ، فلو أظهرت الغدر بي والولاء لهم لنفعني ذلك في نفسي أو حرمي ، فأبى وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غـدرة   فمن لي بعذر يوسم الناس ظاهرهُ

وبقي مع مروان الى ان قتل . فقيل انه قتل معه ، وقيل بل اختفى وتنقل من مكان الى آخر حتى ظفر به عمال بني العباس فى الجزيرة فعذبوه وقتلوه سنة ١٣٢ هـ .
وقد سئل عما مكنه من البلاغة فأجاب : «حفظ كلام الأصلع» (رسائل البلغاء ص١٦) ومعنى هذا ان امامة الانشاء فى صدر الاسلام ودولة بني امية ليست لعبد الحميد كما يظن معظم المؤرخين والنقاد وانما هي للاصلع كما يقول عبدالحميد نفسه، اي لعلي بن ابي طالب (ع) وان عبد الحميد تلميذ من تلاميذه لا اكثر ولا اقل . على اني اؤكد ان هذا التلميذ لم يحسن تقليد استاذه في كثير من الأحيان

(١) (الوسيط) طبعة مطبعة المعارف ص (١١٥) . « تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات (ص ٦٥) الطبعة الثانية سنة ١٩١٤ (المفصل) ج ١ ص ١٦٣ طبعة مطبعة مصر سنة ١٩٣٤ .

ويخيل اليّ أن إطالة التحميدات في صدور الرسائل والافاضة في الكلام ليستا من الخصائص الفنّية التي يمكن أن يتميّز بها كاتب ما ، فقد يكون الكلام مصدّراً بحمد الله والثناء عليه، وقد يكون مسهباً كل الاسهاب ثم لا تكون له قيمة فنية البتة ، على أن عبد الحميد لم يبتكر تصدير الكلام بالتحميدات المطولة أو المختصرة ابتكاراً ، وإنما اقتبسه من خطب عليّ بن أبي طالب (ع) ؛ ونظرة واحدة الى خطب الامام علي المثبتة في الجزء الثاني من العقد الفريد فضلاً عما هو موجود منها في نهج البلاغة وفي غيره تكفي لاثبات هذه الحقيقة الواضحة .

أما إيثار الأطناب أو الايجاز تبعاً لمقتضى الحال ، فأنه من أبسط آداب الكلام فضلاً عن أنه لا يمكن أن يعتبر خاصة فنية لأسلوب من الأساليب . وكتب النبي (ص) كلها أو أكثرها موجزة إيجازاً تاماً تبعاً لمقتضى الحال ،ولم يكسبها هذا الايجاز برأي أحد من النقاد قيمة فنية . ولعمر بن الخطاب (رض) وصية مطولة كتبها إلى الخليفة من بعده لم تكسبها الأطالة شيئاً من الجمال الفني .

وما يصح في تطويل الكلام واختصاره تبعاً لمقتضى الحال ، يصح في تنويع الخطاب موافقة لحال المخاطب ، فهذا التنويع في المخاطبة لا يمكن أن يعتبر عنصراً فنيّاً ذا قيمة . وأنت ترى أننا إذا عظمنا عالماً أو أديباً أو أيّ إنسان ذي منزلة إجتماعية كبيرة فخاطبناه مخاطبة الجمع لا نضيف إلى ثروة اللغة البيانية شيئاً . على أن تنويع الخطاب موافقة لحال المخاطب ليس بالجديد في اللغة العربية ، ولك أن ترجع إلى ما ذكرنا من خطب عليّ بن أبي طالب (ع) في الفصل السابق لترى أنه يخاطب الناس بلهجة الناصح الشفوق في خطبة ، وبلهجة الناقم الساخط المتبرّم في أخرى ، وسترى هذا التنويع في الخطاب تبعاً لحال المخاطب ظاهراً كل الظهور فيما سنورد من كتبه إلى أوليائه وإلى أعدائه ، وليس هذا مما يمتاز به عليّ بن أبي طالب في خطبه وكتبه ، بل إنه شائع في خطب الراشدين ورسائلهم وفي كلام

غيرهم من أعلام البيان في القرن الأول للهجرة . ولم يأت عبد الحميد في افتتاح رسائله ولا في ختامها بشيء يستحق الذكر ، فانه يبدأها غالبًا بـ (أما بعد) وينهيها بـ (السلام) ، وإذا حدث له أن أنهى بعض رسائله بصورة أخرى فانه مقلّد في ذلك لأبي بكر (رض)[١] ولعلي (ع) الذي طالما ختم كتبه إلى معاوية بغير السلام .

أما تخيّر الألفاظ الفصيحة المألوفة وتركيبها تركيبًا متينًا منسجمًا فسنعرض لنصيب عبد الحميد منها عند الكلام عن حظه من الانشاء في نهاية هذا الفصل .

(ب) والغريب أن أكثر مؤرخي آدابنا لا يجهلون أن لنوابغ الصدر الأول وأعلامه كالراشدين وكثير من ولاتهم وقوادهم رسائل بليغة خليقة بالعناية والدرس[٢] إلا أنهم يكتفون بالاشارة إليها ولا يكلفون أنفسهم مشقة البحث عنها والعناية بها . وعندي أن ذلك عمل أقل ما يقال فيه إنه أفضى الى جهل كثير

---

(١) انظر عهد ابي بكر الذي كتبه الى أمراء جيوشه الذين ندبهم لقتال اهل الردة في تاريخ الطبري طبعة ليدن السلسلة الاولى المجلد الرابع ص (١٨٨٤) وبعض رسائل الامام علي القادم ذكرها في هذا الفصل .

(٢) أقول اكثر مؤرخي آدابنا ولا أقول كلهم ، لأن ثلة منهم في مقدمتهم الدكتور طه حسين يرون أن هذه الرسائل مكتوبة بلغة التخاطب ، وانها غير خليقة بالدرس ! واليك ما يقوله الدكتور طه حسين بهذا الشأن :

« .... ولكن هذه الرسائل التي كانت تكتب ، مختصرة لا يقصد منها الا مجرد الأداء ، في غير تفنن او اثارة لجمال فني خاص . ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة ، جملها صغيرة توشك ان تكون رموزاً ، ليس فيها هذا التفصيل او المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ » ! (من حديث الشعر والنثر ص ٣٣ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ م)

والواقع ان كتب النبي (ص) قصيرة مقتضبة ، الا ان هذا لا ينطبق على الكثرة الكبرى من كتب الراشدين .

من الحقائق الأدبية والتاريخية وإلى افتراض أمور غير صحيحة وتقريرها على أنها حقائق ثابتة .

إن صناعة الأنشاء التي تمتاز بجودة المعنى وفصاحة اللفظ وجمال التأليف وبراعة الأسلوب وهي الصفات الحقيقية التي تمتاز بها صناعة الأنشاء في كل زمان وفي كل مكان وفي كل لسان أيضاً ، أقول إن هذه الصناعة موجودة منذ بداية القرن الأول للهجرة ، وأعلامها من رجال الصدر الأول كثيرون . إلا أننا قد لا نخطىء اذا لاحظنا أن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أطولهم باعاً وأكثرهم إنتاجاً وأجودهم آثاراً .

ومع أننا لا نطمع أن ندرس هنا رسائل هذين الخليفتين دراسة كافية أو قريبة من الكفاية لأن ذلك يتطلب وضع سفر ضخم ، فاننا سنلمّ بها إلمامة تفي بدحض المزاعم القائلة إن عبد الحميد بن يحيي الكاتب شيخ صناعة الانشاء في عصر صدر الاسلام ودولة بني أمية .

فأما رسائل عمر بن الخطاب فهي كثيرة ومتنوعة بعضها في القضاء وبعضها في إدارة الشؤون السياسية والأدارية وبعضها في تدبير الجيوش . منها ما هو موجز إيجازاً تاماً ، ومنها ما هو مطول مستفيض ، إلا أن الجمال الفني شائع فيها على السواء ، إليك منها هذه الرسالة التي كتبها إلى معاوية في القضاء :

« أما بعد فاني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك ونفسي فيه خيراً . إلزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه[1] بأفضل حظك : إذا تقدم اليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة واليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتعهّد الغريب فانك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيّع

---

(١) هكذا في البيان والتبيين طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر وربما كان الصواب «منه».

حقه من لم يرفق به . وآس بينهم في لحظك وطرفك وعليك بالصلح بين الناس مالم يستبن لك فصل القضاء[١] » .

وهذه الرسالة التي كتبها إلى أبي موسى الأشعري في تدبير الشؤون السياسية والأدارية :

« أما بعد فان للناس نفرة عن سلطانهم فاحذر أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ولو ساعة من النهار وأخف الفسّاق واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلا[٢] وإذا كانت بين القبائل نائرة[٣] فنادوا يا آل فلان ، فانما تلك نخوة من الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وتكون دعواتهم إلى الله والأسلام . واستدم النعمة بالشكر والطاعة بالتألف والمقدرة ، والنصرة بالتواضع والمحبة للناس . وبلغني أن ضبّة تنادي يا آل ضبة والله ما علمت ساق الله بها خيراً قط ، ولا صرف بها شراً . فاذا جاءك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة حتى يتفرقوا إن لم يفقهوا ، والصق بغيلان بن خراشة من بينهم ، وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم وافتح بابك لهم ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فايّاك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها في السمن والسمن حتفها ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته « وأشقى الناس من يشقى به الناس والسلام[٤] »

(١) البيان والتبيين (ج ٢ ص ٧٥) طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .
(٢) اي افرن بعضهم الى بعض
(٣) النائرة : الهياج
(٤) العقد الفريد (ج ١ ص ٤٦) طبعة المطبعة الجمالية بمصر . البيان والتبيين (ج ٢ ص ١٥٥) طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

ولعل أطول رسائله الحربية وأجمعها لمختلف الوصايا وشتى النصائح هذه الرسالة التي كتب بها إلى سعد بن أبي وقاص (بطل القادسية) عندما ندبه لغزو مملكة فارس ، وهذه هي :

« أما بعد فاني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدّتنا كعدّتهم ،فاناستوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شرّ منا، فلن يسلّط علينا ، فرب قوم سلّط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل (لما عملوا بمساخط الله) كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا. واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، وأسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم ، وترفّق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوّهم (والسفر لم ينقص قوتهم) فانهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الأنفس والكراع[1] ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ، ويرمّون[2] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها

(١) الكراع : من كل شيء طرفه ، واسم يجمع الخيل .

(٢) رمه ، يرمه : أصلحه

من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ[١] أحد من أهلها شيئاً ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولّوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ[٢] العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيّر لهم سوابق الخيل، فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوّف فيه غلبة أوضيعة ونكاية، فاذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوّتك ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذكِ أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتَ بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان . »[٣]

---

(١) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً

(٢) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٦٧ طبعة المطبعة الجمالية بمصر .

وبعد ، ألا ترى أن عمر (رض) كتب رسائله هذه بطريقة فنية فآثر لفظاً على آخر وجملة على سواها وتجنّب ما يمجه السمع ويأباه الذوق السليم تجنباً دقيقاً؟ ألا ترى أنه يعمد إلى الايجاز مرة والأطناب تارة تبعاً لمقتضى الحال؟ ألا ترى أنه يجنح إلى الخيال أحياناً فيشبّه العامل المنهمك بجمع المال بـ « البهيمة همها فى السمن والسمن حتفها » ؟ وما يأتيه أفراد الجيش من آثام ومنكرات بالجنود المحاربة لهم ؟! غير أنه يرى ن الأولى أشد ضرراً وأعظم خطراً عليه من الثانية. وأخيراً ألا ترى أنه يصطنع في رسائله هذه أسلوباً قوياً سمحاً قوامه فصاحة اللفظ وشدة الأسر وسلامة الاداء وقلة المبالاة بالزخرف البياني إلا ما جاء منه عفواً؟!

إذا كنت ترى هذا كله في رسائل عمر وهو ما لا يخامرني فيه شك فلنحاول أن نتبينه في رسائل علي بن أبي طالب التي آن لي أن أقتطف لك مثلاً منها . قال في رسالة كتب بها إلى معاوية بعد وقعة الجمل :

«سلام عليك ، أما بعد، فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت في الشام، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما و كان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الامور إليّ قبولك العافية، وقد أكثرت في قتلة عثمان فان أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكمت القوم إليّ حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك

لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان . . . الخ »[١]

وكتب إليه :

« أما بعد فقد أتانا كتابك ، كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه ، زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خفري لعثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ولا ليضربهم بالعمى ، وما أمرت فلزمتني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل . وأما قولك إن أهل الشام حكام أهل الحجاز فهات رجلا من قريش الشام يُقبل في الشورى أو تحلّ له الخلافة ، فان سميت كذّبك المهاجرون والأنصار ، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز وأما قولك إدفع إليّ قتلة عثمان فما أنت وذاك وههنا بنو عثمان وهم أولى بذلك منك ، فان زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم فارجع إلى البيعة التي لزمتك وحاكم القوم إليّ . وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة وبينك وبين طلحة والزبير فلعمري فما الأمر[٢] هناك إلا واحد لأنها بيعة عامة ، لا يتأتّى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار ، وأما قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمي في الاسلام ، فلو استطعت دفعه لدفعته »[٣].

وكتب إلى محمد بن أبي بكر بعد وفاة الأشتر يقرّه على عمله بمصر ويسرّي عنه ما علق بخاطره بسبب إرسال الأشتر إلى مصر لتسلم زمام الحكم بها بدلاً منه .

---

(١) العقد الفريد (ج ٣ ص ١٠٦) طبعة المطبعة الجمالية بمصر

(٢) هكذا في العقد الفريد ، وربما كانت (ما الأمر) .

(٣) العقد الفريد (ج ٣ ص ١٠٧ طبعة المطبعة الجمالية بمصر)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر . سلام عليك. أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ، ولا ازدياداً مني لك في الجد ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لولّيتك ما هو أيسر عليك في المؤونة وأعجب إليك ولاية منه . إن الرجل الذي وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدوّنا شديداً ، وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب، إصبر لعدوّك وشمّر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه ، يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولّاك ، أعاننا الله وإياك على ما لاينال إلا برحمته ، والسلام عليك[1] » .

فواضح أن هذه الكتب الثلاثة تشاطر رسائل عمر السالف ذكرها فصاحة اللفظ ودماثته وجمال التعبير وبساطته ودقته وانسجامه وإن كانت أميل منها إلى السجع والازدواج وأشد استعمالاً للمحسنات البيانية . وقد لاحظنا مثل هذا عند الكلام عن خطب علي، والمصدر واحد وهو طبيعة عليّ بن أبي طالب الشعرية. وكما أبحت لنفسي أن أروي لك مثلاً من خطب عليّ الممتازة التي تفرّد بروايتها نهج البلاغة بعد أن أطلعتك على أسلوبه الخطابي عن غير طريق هذا الكتاب أبيح لنفسي الآن كذلك أن أروي لك مثلاً من رسائله الممتازة التي تفرّد بروايتها نهج البلاغة أيضاً ، بعد أن أطلعتك على أسلوبه الكتابي عن غير طريق نهج البلاغة . قال في وصيّة كتب بها إلى ابنه الحسن :

« إحمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدّته على

---

(١) تاريخ الأمم والملوك طبعة ليدن السلسلة الأولى المجلد السادس (ص ٣٣٩٥)

اللين ، وعند جرمه(١) على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك، إياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله . لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة، وتجرّع الغيظ فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذ مغبّة ، ولن لمن غالظك فانه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوّك بالفضل فانه أحلى الظفرين . وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما، ومن ظن بك خيراً فصدّق ظنه . ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه فانه ليس لك بأخ من أضعت له حقه . ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبنّ فيمن زهد فيك ، ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا تكونن على الأساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرّته ونفعك ، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه. واعلم يا بنيّ أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فان أنت لم تأته أتاك. ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى ، إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، وإن جزعت على ما تفلّت من يديك فاجزع على كل مالم يصل إليك، إستدلّ على مالم يكن بما قد كان، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة، إلا إذا بالغتْ في إيلامه، فأن العاقل يتّعظ بالآداب ، والبهائم لا تتّعظ إلا بالضرب ..الخ(٢)»

(ج) أظن أنه لا نزاع في أن العهود والوصايا والكتب التي أثبتناها هنا ، والتي اقتطفنا مثلاً منها من أفضل ما كتب في اللغة العربية ، ليس فقط في عصر القرآن بل وفي كل عصر من العصور الاسلامية ؛ فليس من شك في أنها من أسمى مُثُل البلاغة الصحيحة العالية التي تستمد روعتها من سموّ الفكر وصفاء الشعور

(١) الجرم هنا : الذنب صغيراً كان ام كبيراً .

(٢) شرح ابن أبي الحديد المجلد الرابع طبعة مطبعة دار الكتب الكبرى ص ٣٩ـ٤٣

وفصاحة الألفاظ وجمال الأداء ، ومن الاقتصار على القدر المعقول من المحسنات البيانية . وهـذه العناصر الأخيرة ـ أعني فصاحة المفردات وجمال تركيبها والاكتفاء من الزخارف البيانية بالقدر الذي يسمح به الطبع ولا يتكلفه الذهن ـ هي التي تجمع بين رسائل الراشدين وعهودهم وبين القرآن ، كما جمعت بينه وبين خطبهم .

(د) والآن لنعرّج على عبد الحميد لنلمّ به إلمامة قصيرة نتبيّن فيها خصائص فنه ومزايا إنشائه . وعندي أنه مطيل إلى درجـة الاملال ، يطرق الموضوع ويبدي رأيه فيه ، ثم يعود إليه في الرسالة نفسها فيكرّر ما قاله تـكراراً يدعو إلى السأم ولا يفضي الى فائدة مطلقاً . وهو شديد التـكلّف ، كثير التعمّل ، يخونه الطبع ولا تؤاتيه الصنعة في كثير من الأحيان . وهاك البرهان على ذلك من (رسالته الـكبرى) التي كتبها بالنيابة عن مروان بن محمد إلى وليّ عهده عندما ندبه لحرب الضحّاك بن قيس الذي خرج بالجزيرة سنة تسع وعشرين ومائة للهجرة ، قال : « أما بعد ، فان أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدوّ الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمه استخفافاً وبدلوا نعم الله كفراً واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً أحب أن يعهد إليك في لطائف امورك وعوامّ شؤونك ودخائل أحوالك ومضطر تنقّلك[1] عهداً يحمّلك فيـه أدبه ويشرّع لك عظته . وإن كنت والحمد لله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مخصصاً[2] لك بذلك دون لحمتك وبني أبيك .

---

(١) رغبة في لفت الأنظار بسهولة الى مواطن الشذوذ والعجمة في هذه الرسالة سأضع تحت كل جملة مثل هذه خطاً يجلب لها الانتباه .

(٢) الصحيح : خاصاً اياك

ولولا ما أمر الله به دالاً عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا أولي سابقة في الدين وخصّيصى في العلم لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك بما يراك أهله في محلك من أمير المؤمنين وسبقك إلى رغائب أخلاقه وانتزاعك محمود شيمه واستيلائك على تشابه تدبيره .

ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ولقّنوه إلهاماً من تلقائهم ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ووضعناهم في منزلة خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته وفردانيته في إلهيته واحتجاجاً منهم لتعقب في حكمه وتثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته على سابق مشيئته . ولكن العالم المؤمن للخير المخصوص بالفضل المحبو بمزية العلم أدركه معاداً عليه بلطيف بحثه وإذلال كنفه وصحة فهمه وهجر سآمته . وقد تقدم أمير المؤمنين إليك أخذاً بالحجة عليك مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حقك وما ينظر المعنيّ الوالد الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن ينزّهك الله عن كل شيء قبيح يهشّ له طمع وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد وأن يحصّنك من كل آفة استولت على امرىء في دين أو خلق وأن يبلّغه فيك أحسن ما لم يزل يعوّده ويريه من آثار نعمة سامية بك إلى ذروة الشرف ومنجحة لك ببسطة الكرم لائحة بك في أزهر معالي الأدب . والله أستخلف عليك وأسأله حياطتك وأن يعصمك من زيغ الهوى ويحضرك دواعي التوفيق معاناً على الأرشاد فيه فانه لا يعين على الأرشاد ولا يوفّق إلا هو .

إعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمّها سالكاً وركب خبارها قاصداً الى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها وأنها لا تعاف بسخف الخفّة ولا تنسى بتفريط الغفلة ولا يتعدّى فيها بأمن حدّ ..الخ[1] »!!

(١) رسائل البلغاء (ص١٣٩) طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٩١٣

يخيّل إليّ أن هذا (الانتزاع لمحمود الشيم) وذلك (الاستيلاء على تشابه التدبير) مع الاستئثار (بالوحدانية والفردانية في الألهية) إلى غير ذلك مما أشرت إليه إشارة صامتة، مظاهر عجمة صريحة وإن شئت فقل فظيعة لا تقبل الجدل . أما التكرار بلا فائدة فأنه ظاهر فيما اقتبست من هذه الرسالة كل الظهور ، ومع ذلك أحب أن آتي بمثل أخرى من هـذا العهد للبرهنة على ولع عبد الحميد الغريب بالتكرار : قال ينصح وليّ العهد بعدم الأصغاء إلى أقوال السعاة والوشاة :

« واعلم أن أقواماً سيسعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبل النصيحة ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك باظهار الاغراء والشبهة ويوطئونك عشوة الحيرة ليجعلوك لهم ذريعة لأستئكال العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة، فلا يصلنّ إلى مشافهتك ساعٍ بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب إلى بدعة فيعرّضك لابتداع في دينك . ويحمّلك على رعيتك مالا حقيقة فيه ويحمّلك على أعراض قوم لا علم لك بدخلهم إلا بما أقدم به عليهم ساعياً وأظهر لك منهم متنصحاً .»(١)

وبعد سرد نصائح كثيرة مختلفة وعظات عديدة متنوعة يعود عبد الحميد إلى هذا الموضوع فيوصي وليّ العهد بما يأتي : « وامنع أهل بطانتك وخاص خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب إليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض والنميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عندك أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة . فانه أبلغ سمواً إلى مثال الشرف وأعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي ،

(١) رسائل البلغاء (ص ١٤٤) طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٩١٣

وشرف الهمة وقوة التدبير »(١)

ومن أمثلة هــذر عبد الحميد ـ استغفر الله ـ بل ميله الشديد إلى الابانة والايضاح نصيحته المتكررة لتلميذه بالتماس الظفر عن طريق المكيدة ؛ فهو يقول له في ذلك :

« اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعمّ منفعة وأبلغهما في حسن الذكــر قالة وأحوط سلامة وأتمه عافية وأعوده عاقبة وأحسن في الامور مورداً وأصحه في الرواية حزماً وأسهله عند العامة مصدراً ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيــلة ولطف المـكيدة ويمن النقيبة بغير أخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومنازلة الفرسان في معترك الموت .. الخ »(٢)

وبعد أن يعطر وليّ العهد المسكين وابلاً من النصائح الجافّة يعود إلى هــذا الموضوع فيقول :

« إعلم أن أحسن مكيدتك في العامة أثراً وأبعدها صوتاً في حسن القالة ما نلت الظفر فيه بحسن الروية وحزم التدبير ولطف الحيلة ، فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على إصابته لا بالقتال وأخطار التلف(٣) » .

إن هذه النبذ التي اقتبسناها من أطول رسائل عبد الحميد وأجمعها لأحاسن كلامه تدل دلالة قاطعة على أننا لم نظلمه عندما نعتناه بجفاف الطبع وثقل الأسلوب ورداءة اللغة . وفي صبح الأعشى وغيره من المصادر التي عنيت بعبد الحميد رسالة يزعم الرواة أنه كتبها إلى زملائه في الـكتابة يوصيهم فيها بما يصلح من أحوالهم ويرفع من شأنهم لا أشك في أنها منحولة صنعها أحد كتاب الفرس في صــدر

(١) رسائل البلغاء (ص ١٤٦) طبع مطبعة دار الـكتب العربية الـكبرى بمصر سنة ١٩١٣
(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٠) .
(٣) المصدر نفسه (ص ١٩٣) .

الدولة العباسية ونحلها عبد الحميد ، وذلك لأنها تحمل طابعاً غير طابعه . وتمثل أسلوباً غير أسلوبه .

إن أسلوب عبد الحميد كما تمثله لنا رسالة وليّ العهد أسلوب رجل أجنبي لم تثبت قدمه بعد في اللغة التي يكتب بها ، يحفظ الألفاظ ولكنه لا يحسن استعمالها كما أنه لا يحسن تأليفها ويقلد فحول الخطباء والكتاب ولكنه لا يحسن تقليدهم . وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب فان الرجل من أوائل المستعربين ، ولم يتعلم اللغة لأنه يدرك سر جمالها ويتذوق طرائف آدابها وإنما تعلمها طلباً للرزق ، ومن الثابت أنه احترف تعليم الصبيان مدة من الزمن .

أما رسالة الكتّاب فانها تمثل أسلوب رجل حسن الالمام باللغة مطبوع على التكلم بها قد ورثها ونشأ في بيئة تتكلمها . وأنا أقتطف لك مثلاً من هذه الرسالة لتتبين مبلغ الفرق بينها وبين رسالة وليّ العهد من حيث اللغة والأسلوب . قال كاتب الرسالة :

« أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فان الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرّفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معايشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب ، والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم ، لا يستغني الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون . فأمتعكم الله بما

خصّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم »(١)

وقال :

« ثم أجيدوا الخط فانه حليــة كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، وسفساف الامور ومحاقرها(٢)، فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتّاب . »(٣)

أفترى أن لغة هذه الرسالة نفس اللغة التي استخدمت في رسالة وليّ العهد ؟ وأسلوبها ، نفس الأسلوب الذي اصطنع في تلك الرسـالة ؟ ! أليس من المعقول أن نفترض أن كاتباً فارسياً وضع هذه الرسالة وحملها على عبدالحميد إرضاء لعصبيته وتنويهاً بأثر بني قومه في لغة الضاد ؟ ! وليست (رسالة الـكتّاب) وحدها مضافة لعبد الحميد بل إن هناك رسالة أخرى زعموا أنه كتبها إلى والٍ متمرد لا أشك في أنها منحولة أيضاً ، لأنها لا تتفق وما نعرف من آثار عبد الحميد في شيء ، إليك مثلاً منها :

« أما بعد ! بلغني كتابك تذكر أنك تحمل الورد على الجرد ، فسيرد عليك جنود الله المقرّبون وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٨٥ طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ ١٩٠٣ م ورسائل البلغاء ص ٧٢ طبعة مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م .

(٢) الواقع ان الكاتب لم يكن بحاجة لهذه الجملة بعد أن أوصى الكتّاب أن يرغبوا بأنفسهم عن المطامع (سنيها ودنيها) على أن (محاقر) كلمة نابية .

(٣) صبح الأعشى ج١ ص ٨٦ ورسائل البلغاء ص ١٧٤

الكهول ، على الفحول ، كأنها الوعول ، تخوض الوحول، طوال السبال تختضب بالجريال ، رجال هم الرجال ، بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كاب محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب . قد ضروا بضرب الهام واعتادوا الكرّ والاقدام ، ليسوا بذوي هينة ولا إحجام .. الخ .. الخ »(١)

المعروف أن عبد الحميد صاحب ترسّل لا يحفل بالسجع ولا يتقيد بالازدواج فأين مكان الترسّل من هذه الرسالة ؟ ! إنك إذا تأملت رسائل عمر بن الخطاب التي أوردتها في هذا الفصل رأيت أنها متجانسة كل التجانس ، متشابهة كل التشابه ، ومثل هذا يقال عن رسائل عليّ بن أبي طالب التي تقدم ذكرها أو التي رويت لك شيئاً منها بل إنك تستطيع أن تذهب إلى أبعد من ذلك فتقرّر أن كتب كل من هذين الخليفتين وخطبه تتشابه تشابهاً كلياً وتتجانس تجانساً كبيراً ، فنوع التفكير في الجميع واحد ، واللغة واحدة ، والأسلوب واحد . وقد سألت نفسي وأنا أدرس رسائل هذين الخليفتين وخطبهما ، ترى ، ماذا يكون الجواب لو أن باحثاً افترض أن هذه الخطب وتلك الرسائل منحولة محمولة على الرجلين ؟! فأجبت: إنها إن كانت كذلك فقد وُضعت وضعاً محكماً فتشابهت وتجانست وانسجم بعضها مع بعض ، ومثّلت إلى حد لا بأس به أسلوب القرآن الذي كان مسيطراً على ذلك العصر . وبذلك أصبح قبولها على أنها من آثار هذين الخليفتين أمراً معقولا إلى الغاية.

هذا هو مبلغ الانسجام في رسائل عليّ وعمر وخطبهما ، فهل تحسّ انسجاماً كهذا أو قريباً منه في آثار عبد الحميد أو في الآثار المروية لعبد الحميد ؟ ! الا تتناقض هذه الآثار تناقض الأبيض والأسود وتتباين تباين المستقيم والمعوج ؟ ! وإذا كانت كذلك ، وهي كذلك من غير شك ، فهل من الصواب أن نتخذ

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٢٦٨

من عبد الحميد إماماً لصناعة الأنشاء في عصر من أرقى عصور الأدب العربي وأجلّها شأناً ؟ ألسنا نظلم الأدب في هذا ظلماً فاحشاً ونسيء إلى العلم إساءة لا تغتفر ؟ !

وهنا لا بدّ لك من السؤال عن السبب الذي قامت عليه شهرة عبد الحميد ، أهو علوّ مركزه السياسي؟ أم الدعاية؟ أم تعصّب الفرس بعضهم لبعض؟ وعندي أن هذه الأسباب كلها تهيأت لعبد الحميد . فقد كان عظيم دولة مروان بن محمد وأمين سرّه وموضع ثقته ، وهذا وحده كافٍ لحمل الناس على تملّقه والتزلف إليه إلى أبعد حدّ مستطاع . وقد رأينا كيف سبق شوقي أقرانه بفضل مركزه في بلاط مصر مع أن بينهم من هو خير منه بكثير . وكان فارسيّاً ولم يغفل متعصبوا الفرس في صدر الدولة العباسية وسائر عصورها عن التطبيل والتزمير له ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

ويتبيّن من كل ذلك أن شهرة الرجل لم تقم على أساس صحيح و (أن الكتابة لم تبدأ به) (كما أنها لم تختم بابن العميد) وأن زعامة الأنشاء في عصر القرآن إن كانت لأحد فانما هي لعلي بن أبي طالب ثم لعمر بن الخطاب من بعده .

الباب الثانى

الشعر على عهد النبى والراشدين

الفصل الأول

حال الشعر من فجر الدعوة الاسلامية
الى مقتل علي بن أبي طالب

—— o ——

أ : مناوأته ـ أسبابها .

ب : مؤازرته ـ دواعيها .

ج : خصائصه ـ التحدث عن الدين ـ الخوض في السياسة ـ قلّة المديح وغلبة الاعتدال عليه ـ قلّة الهجاء وخلوّه من الفحش والهجر ـ ضرب الأمثال .

د : مكان المخضرمين من الأدب العربي .

هـ : عبث الرواة بشعر المخضرمين .

***

(أ) قلت لك عند الاشارة إلى النثر الجاهلي إنه قد ضاع بسبب عجز الذاكرة عن حفظه ، وأقول لك الآن إن أكثر الشعر الجاهلي قد ضاع أيضاً ولنفس السبب ، إلا أن بقيّة لا بأس بها بقيت لنا منه كان لها الأثر الأول في توجيه عقول شعرائنا وقرائحهم إلى عهد غير بعيد . وما أريد أن أحدثك عمّا لهذه البقيّة من خصائص ومميزات وعمّا لها من قيمة أدبية واجتماعية فذلك شيء فعلته في (بعث الشعر الجاهلي) . ولكني محدثك عمّا لقي الشعر من كساد ورواج ، وتثبيط وتشجيع في أيام النبي والراشدين : فقد مرّت به في تلك الفترة من الزمن أدوار مختلفة وأطوار متباينة ، رأى فيها الادبار والاقبال وعرف المناوءة القويّة والمؤازرة القوية كذلك .

فقد حمل الأسلام في أوائل عهده على الشعراء حملة عنيفة ، وصفهم فيها بالكذب والغواية ومخالفة الحقيقة فيما يصفون ويصوّرون : « بسم : والشعراء يتّبعهم الغاوون،ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون[1] » ولهذه الحملة العنيفةعلى الشعر وأهله أسباب عدّة : أحدها أنه ـ أي الشعر ـ لسان العصبية القبلية التي مزّقت شمل العرب وخلقت منهم مجموعة قبائل يغزو بعضها بعضاً ويقتل بعضها بعضاً . وليس من شك في أن القضاء على هذه العصبية وتوحيد كلمة العرب وتكوين أمة كبيرة منهم تدافع عن الحق والعدل في مقدمة الأغراض التي رمى إليها الأسلام . ثانيها : أن المغامرات الغرامية ومعاقرة الخمر والفخر بالأنساب وما إلى ذلك هي المنابع التي تمد الشعر بمعين الخيال والاحساس والعاطفة الذي لا ينضب ، وقد حرّم الاسلام هذا كله وعاقب على بعضه كشرب الخمر عقوبة صارمة . ثالثها : أن قريشاً وصفت النبي بأنه شاعر ، والقرآن بأنه شعر . وقد ردّ القرآن على هذا بقوله : « بسم : وما علّمناه الشعر وما ينبغي له[2] » . وعلى هذا ضرب الاسلام على أيدي الشعراء وغضّ من شأن الشعر وحطّ من قدره .

(ب) ولكن الأحوال مالبثت أن دعت إلى تغيير موقف الاسلام من الشعر في شيء غير قليل من التحفّظ . فقد شنّ شعراء قريش وفي مقدمتهم عبدالله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان بن الحرث ، على النبي وأصحابه حرباً شعواء عن طريق الهجاء آذت النبي وبلغت منه . ولم يكن بُدّ من الأجابة على هذه الحملة بمثلها ، وحرّض النبي أصحابه على الدفاع عنه : « ما يمنع القوم الذين

(١) القرآن الكريم (الشعراء)
(٢) القرآن الكريم (يس)

نصروا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم[1] » ؟ .
فتطوع للقيام بهذا العمل الخطير ثلاثة نفر من الأنصار ، هم كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت . وكان الأخير أكبرهم شأناً وأشيعهم ذكراً وأسيرهم شعراً . وبلغ من تشجيع النبي لهذه الحركة أن قال لحسان ، وهو يشير إلى قريش : « اهجهم وجبريل معك[2] » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن النبي أمر حسان أن يلقى أبا بكر ، وهو نسّابة قريش ، ليدلّه على عوراتها . ومضت هذه الحملة في طريقها فآذت قريشاً وبلغت منها . ثم مرّت الأيام وانتهى ذلك النضال الأدبي والمادي الذي كان دائراً بين النبي وقريش بظفره عليه السلام واستيلائه على مكة ودخول قريش في دينه . ولم تبق من حاجة لتشجيع الشعر والتحريض على نظمه دفاعاً عن النبي وأصحابه . ولكنه ـ أي الشعر ـ بقي في المكان الذي وضعه به النبي عندما قال لحسان : « أهجهم وجبريل معك » ومات النبي (ص) وشغل خلفاؤه عن الشعر وما يجري مجراه لأمور خطيرة ، أهمها : قمع حركة الردّة ، وفتح فارس وبلاد الروم . ولكن الشعر ظل محافظاً على ما له من المنزلة في نفوس القوم ، وفي حادثة الحطيئة مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع دلالة قاطعة على صحة ما نقول . فقد عرض الزبرقان على الحطيئة أن يعوله ويضمن له كامل رزقه تحبباً له والتماساً لمديحه . وعرض عليه بغيض ضيافة أوفى وأتم للغرض نفسه[3] . ورفع الحطيئة بني أنف الناقة من منزلتهم الخاملة إلى مكانة مرموقة بين العرب ببيت واحد من الشعر هو قوله :

---

(١) الأغاني ج ٤ ص ٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٢) (المصدر نفسه) ص ٤
(٣) الأغاني ج٢ ص ٥٠ — ٥٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر

قوم هم الرأس والأذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا[١]

وصحيح أن الخلفاء الراشدين لم يتخذوا الشعراء ليسجلوا مآثرهم ويخلّدوا مواقفهم ولكنهم كانوا يروون الشعر ويتذوقونه وينقدونه . ومع أن عمر أشدهم على الشعر وأهله فقد روي عنه أنه قال : « روّوا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر »[٢] .

وصفوة القول أن الاسلام أعرض عن الشعر وناوأه في أول عهده ، ولكنه ما لبث أن أقبل عليه فأخذ بضبعه ورفع من شأنه . ولئن كان النبي (ص) قد قال : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً »[٣] . لقد قال أيضاً : « إن من الشعر لحكمة »[٤]

(ج) وأبرز خصائص الشعر في هذا العهد التحدث عن الدين والخوض في السياسة وقلة المديح وغلبة الاعتدال عليه وقلة الهجاء كذلك وخلوّه من الفحش والهجر وضرب الأمثال وايراد الحكم والمواعظ ، فقد فتح حسان بن ثابت شاعر النبي (ص) باب الكلام عن الوحي وروح القدس والايمان بالله ورسله وكتبه والجهاد في سبيله وبذل النفس والنفيس ابتغاء مرضاته وتبعه في ذلك شعراء كثيرون ، ربما كان أهمهم عبد الله بن رواحة الذي كان يعيب على مشركي قريش في هجائه لهم كفرهم بالله ورسوله فكان هجاؤه لذلك أهون هجاء عليهم في أيام شركهم فلما أسلموا كان هجاؤه أثقل هجاء عليهم وأشده وقعاً في نفوسهم .

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ٥٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(٢) الأدب العربي وتأريخه ج ١ ص٩٧ : الطبعة الثانية . طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(٣) عمدة ابن رشيق . ج ١ ص ١٢ طبعة مطبعة السعادة بمصر

(٤) تاج العروس ماده (حكم) . وعمدة ابن رشيق ج ١ ص ٩ طبعة مطبعة السعادة .

ولم تكن السياسة أقل شأناً من الدين في الشعر . فقد كان الناس جميعاً يفكرون في السياسة ويتحدثون عنها ، و كان لكل حزب من الأحزاب شاعره بل شعراؤه ، كما كان لكل حزب من الأحزاب زعماؤه وقواده . وكان هؤلاء الشعراء يدافعون عن الأحزاب التي ينتمون اليها دفاعاً صادقاً ويؤيدون سياستها تأييداً حاراً شأنهم في ذلك شأن الصحف التي تنطق بألسنة الأحزاب المتنازعة في هذا العصر . وأنت إذا تصفحت (تاريخ الامم والملوك) و (الكامل) في التاريخ و « مروج الذهب » وغيرها من الكتب التي عنيت بتأريخ هذه الفترة وجدتها حافلة بهذا الشعر السياسي الذي يمثل كل رأي من الآراء وكل غرض من الأغراض ، ولا سيما في أيام الفتن والحروب الأهلية التي بدأت على عهد عثمان وانتهت بمقتل علي بن أبي طالب .

وقد قل المديح في هذا العصر لسببين ، أحدهما : رغبة الخلفاء والقواد والولاة عن المديح لأنهم لم يكونوا طلاب ثناء وإطراء وإنما كانوا طلاب أجر وثواب . وثانيهما : فرض الأرزاق في بيت المال لأكثر الشعراء ، ومن بين هؤلاء حسان ولبيد والأغلب العجلي وغيرهم كثير . فمن أجل هذا وذاك قل المتكسبون بالمديح بين الشعراء كما قل الراغبون فيه من سراة الناس . وقد غلب الاعتدال على هذا الضرب من الشعر لسببين كذلك : أحدهما : تمشي القوم على الفطرة ، ومعلوم أن هذه تكره المبالغة وتمقت الغلو والاغراق . وثانيهما : جريهم على مألوف العادة في مدائح العصر الجاهلي ؛ فقد كان الحطيئة، أكبر شعراء المديح في هذا العصر ، تلميذ زهير بن أبي سلمى . وزهير – كما تعلم – معتدل في مديحه كل الاعتدال فلا ينتظر والحالة هذه أن يكون الحطيئة صاحب غلو وإسراف في مديحه الناس . ولك أن تعتبر هذين السببين إذا شئت سبباً واحداً لأن اعتدال زهير وغيره من الشعراء المتكسبين بالمديح ناشيء عن رجوعهم الي الفطرة .

وكما قلّ المديح في هذا العصر وغلب عليه الاعتدال كذلك قلّ الهجاء وخلا من الفحش والهجر خلواً تاماً ، فقد قال عليه السلام « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه[١] » ومعنى هذا أن الشاعر المسلم لا يمكن أن يتورط في هجاء مسلم دون أن يعرّض نفسه لعقوبة صارمة، وأنت تعلم أن هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر كان عفيفاً كل العفة نزيهاً كل النزاهة ، ومع ذلك أراد عمر أن يقطع لسانه لولا أن الشاعر قطع على نفسه عهداً ألّا يعود إلى هذا مرة أخرى. أما الشعر الحكمي فقد كان موجوداً في العصر الجاهلي ولكنه قليل جداً. فلما جاء القرآن والحديث وفيهما ما فيهما من العظات والحكم والأمثال تأثر بهما الشعراء فأكثروا من ضرب الأمثال والاتيان بالحكم الرائعة . وفي شعر أبي ذؤيب الهذلي ومعن بن أوس وحسان بن ثابت وكعب بن زهير خير شاهد على ذلك .

د ـ ولكن مهما يكن من غلبة هذه الخصائص على الشعر في عصر النبي والراشدين ، فانه لم يكن من القوة والجزالة ، أو قل من صدق التصوير وبلاغة التعبير بحيث يضارع المطولات السبع وما يجري مجراها من بليغ الشعر الجاهلي كبائية النابغة الذبياني التي مطلعها « كليني لهمّ يا أميمة ناصب ... الخ » ولاميّة الأعشى التي مطلعها « ودّع هريرة إن الركب مرتحل » ، بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم أن المخضرمين[٢] دون الاسلاميين[٣] ودون المولّدين[٤]

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٢ ص ٣٧ الطبعة الثانية .

(٢) المخضرم : من الشعراء وغيرهم بفتح الراء وكسرها من نشأ في عصر وأدرك آخر ، على أن يكون قد تأثر بالعصرين .

(٣) الشعراء الاسلاميون هم الذين ولدوا بعد ظهور الاسلام وماتوا قبل قيام الدولة العباسية أي قبل اختلاط العرب بالفرس وغيرهم من الأعاجم .

(٤) يسمى مولداً كل شاعر ولد في الفترة التي تبدأ بقيام الدولة العباسية وتنتهي بالعصر الحديث .

أيضاً . فليس بينهم شاعر كعمر بن أبي ربيعة أو كثيّر عزّة ، بل ولا كأحد أفراد المثلث الأموي . أما تخلفهم عن أبي نؤاس وأبي تمام والبحتري وأضرابهم من كبار الشعراء العباسيين ، فهذا مالا يحتاج إلى بيان . ولتخلف المخضرمين عمّن سبقهم ومن جاء بعدهم من الشعراء سببان ، أحدهما : أن الاسلام حرّم أكثر الأعمال والملابسات التي يجود فيها الشعر وتنشط قرائح الشعراء كشرب الخمر ومغازلة المرأة والتودد إليها بصورة غير مشروعة وإثارة الضغائن والأحقاد والتحريض على إراقة الدماء في سبيل أخذ الثار وما إلى ذلك. وثانيهما : غلبة الشيخوخة على هذا الجيل من الشعراء ، فقد أسلم حسان وعمره ستون سنة فيما يذكر الرواة ، وأسلم الحطيئة أو استسلم وهو في نحو هذه السن ، ولم يكن كعب بن زهير شاباً عندما قال : « بانت سعاد .. » أما الخنساء ، فقد كانت في حرب القادسية أي في سنة ١٤ للهجرة أم أربعة أولاد كلهم جندي محارب. ومعنى هذا أن الرعيل الأول من الشعراء المخضرمين كان مؤلفاً من أفراد شاخوا وهرموا أو بعدوا عن عصر الشباب على أقل تقدير . وأنت تعلم أن العقل الفتي في الجسم الفتي ، وأن انحطاط قوى العقل نتيجة لازمة لانحطاط قوى الجسم .

(هـ) وكما عبث الرواة بالشعر الجاهلي فحذفوا منه وأضافوا إليه عملاً بأهوائهم وتبعاً لشهواتهم وأغراضهم ، عبثوا كذلك بشعر المخضرمين، فزادوا فيه وأنقصوا منه ونحلوا أصحابه ما لم يخطر لهم على بال . ولعل عبثهم بشعر الخنساء وحسان كان أبعد مدى وأبلغ أثراً منه في شعر أي مخضرم آخر . وما أريد أن أتعجل الكلام في هذا الموضوع ، فأنا عائد إليه مرة بعد مرة في أثناء التحدث عن شعراء هذا العهد .

الفصل الثاني

مدرسة زهير بن أبي سلمى - شعراؤها

الحطيئة

أ ـ سيرته ، اسمه ونسبه ، كنيته ولقبه ، عمره ، ضعة مولده ، موقف أولاد الأفقم وأولاد أوس منه ، إسلامه ، استعاضته بالشعر عن كل ماخسر من أدبيّ وماديّ ، خشية الناس إياه ، مثل من أخباره الدالة على هذه الخشية ، خبره مع آل المقلد ، ما جرى له مع أهل المدينة في سنة قحط ، ما حدث له مع عتبة بن النهّاس العجلي ، قصته مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع ، وفاؤه للأول منهما (هامش).

ب ـ موقف الرواة منه ، استنكارهم هجاءه أمه ، تلفيقهم كلاماً زعموا أنه وصيته .

ج ـ وفاته .

د ـ شعره ، تمثيله مذهب أستاذه زهير ، خصائص هذا المذهب .

ه ـ عبث الرواة بآثاره ، مثل من جيد الشعر المحمول عليه ورديئه ، مناقشة هذه المثل .

و ـ أهمية ما يصح له من الشعر ، مديحه ، أصالته وجزالته ، مثل منه ، هجاؤه صرامته ونزاهته ، مثل منه .

ز ـ خاتمة .

***

أشرت في مقدمة هذا الكتاب إلى أني أدرس فيه الشعر من حيث هو

ممثل لأهم النزعات والمذاهب الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وعلى هذا أدرس الآن مذهب زهير بن أبي سلمى ومذهب حسان بن ثابت شاعر النبي (ص) بدراسة كبار شعرائهما لأنهما أهم المذاهب الشعرية التي عرفها تاريخ الأدب العربي في هذا العصر . وأبدأ بأولهما لأنه أكبرهما شأناً وأعظمهما أثراً في تاريخ الأدب العربي ، وأكبر شعراء هذا المذهب من المخضرمين شاعران اثنان هما الحطيئة وكعب بن زهير ، فأحدثك حديث الحطيئة لأنه أشعر من كعب وإن كان قد التمس تقريض كعب مقدماً إياه على نفسه في خبر معروف .

***

أ ــ وهو جرول بن أوس بن مالك العبسي، وكنيته أبو مليكة، والحطيئة لقب غلب عليه ، قيل إنه لقب به لقصر قامته وقربه من الأرض وقيل لسبب غير هذا[١] . وهو من المعمّرين عمّر نحواً من ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها أو ما يقرب منها في الاسلام . وفي الروائع البيروتية (عدد ٢٩) بحث ضافٍ في تاريخ مولد الرجل ووفاته ومقدار عمره يرجع اليه من أراد . وهو ابن أمة مملوكة لزوجة أوس بن مالك المتقدم ذكره جاءت به منه ، إلا أنها خشيت غضب سيدتها إن هي نسبته إلى زوجها فنسبته إلى أخيها ، وهو رجل يقال له الأفقم (والفقم هو أن تدخل الاسنان العليا في الفم وتخرج السفلى) وساعد على قبول هذا الادعاء كون المولود ذميم الخلقة كالافقم الذي نسب إليه .

ولكن ما كاد المترجم يطالب أولاد الأفقم بحصته من ميراث أبيهم حتى رفضوه وأبوا أن يعطوه شيئاً[٢] . وكان قد فعل مثل ذلك مع ولد أوس بن مالك

---

(١) انظر الأغاني ج ٢ ص ٤١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) في رواية أنهم أعطوه نخلات سميت (نخلات أم مليكة) نسبة الى زوجته ، الا أنه طالبهم بميراثه من الأفقم كاملا فضربوه وطردوه .

العبسي فقالوا له لا نعطيك جزءاً من ميراث أبينا ، ولكنا نواسيك إذا أقمت معنا ، فرفض ذلك . والرواة مختلفون في تاريخ إسلام الحطيئة ، فمنهم من يرى أنه أسلم في أيام النبي ، وحجة هؤلاء أنه قال عندما ارتدّ بعد وفاة النبي (ص) :

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفتا مابال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ومنهم من يرى أنه أسلم بعد وفاة النبي ، ولعل ابن قتيبة وحده هو الذي يرى هذا ، ودليله عليه أن أحداً لم يرو أن المترجم وفد على النبي فيمن وفد عليه من مسلمي الأعراب. ومهما يكن من شيء فان الرواة مجمعون على أنه رقيق الدين مراء ، يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، واعتنق الاسلام أملاً بجر مغنم أو دفع مغرم ؛ وليس هذا مستبعداً ، فان إلحافه في السؤال وإمعانه في الهجاء مما يدل على أنه كان قليل التأثر بالاسلام .

ولكن لئن كان الحطيئة لم يؤتَ شرفاً في نسب ولا سعة في نشب ولا منزلة في دين ترفعه في عيون الناس وتحببه إلى نفوسهم، لقد أوتي سلاطة في اللسان وصرامة في الهجاء ملئت منهما الصدور خوفاً وإشفاقاً ، فكان لذلك مخشي الجانب مقضي الحاجة .

وأنت إذا استعرضت أخباره رأيت أن الناس كانوا يبادرون إلى قضاء حوائجه ويبالغون في كسب رضاه خشية هجائه اللاذع الذي كان يتحاشاه كل من يريد أن يأمن على عرضه .

روي أنه نزل بآل المقلّد ـ وهم رهط من بني اليربوع ـ فسألوه أن يأمرهم بما يجب أن يفعلوا في سبيل مرضاته ليأتمروا به وأن ينهاهم عما لا ينبغي أن يفعلوه لينتهوا عنه . فقال لهم : « لا تكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني

ولا تجعلوا فِناءَ بيتي مجلساً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم . . » فنفذوا رغباته هذه تنفيذاً حمله على شكرهم بقوله من أبيات :

جاورت آل مُقلّدٍ فحمِدتُهم إذ ليس كلُّ أخي جوارٍ يُحْمَدُ(١)

ورُوِيَ أنه قدم المدينة في سنة جدبٍ فجمع له أشرافها أربعمأة دينار وقدموها له مع قائمة بأسماء الأسر التي اشتركت فيها اتقاءً لشره وخوفاً من لاذع هجائه(٢) . وروي أنه دخل على عتيبة بن النهاس العجلي فسأله مَعُونته فقال له:

« ما أنا على عمل فأعطيك مدده ولا في مالي فضل عن قومي . » فخرج من عنده . وقال لعتيبة بعض من حضره من قومه: ــ « لقد عرضتنا ونفسك للشر. » قال : « وكيف ؟ » قالوا : هذا الحطيئة ! فأرسل إليه من يستدعيه .فلما حضر قال له : ــ لِمَ كتمتَنا نفسَك ؟ إجلس ، فلك عندنا ما يسرك ، فجلس . فقال له : « من أشعر الناس؟ » قال : « الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرْهُ ومَن لا يتّق الشتم يشتم

فقال له عُتيبة :ــ «هذا أول أفاعيك .» وأكرم وِفادَته وأحسن صلته(٣) . على أن قصة الحطيئة مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع وهي أشهر ما يروى عنه لا تعني في مجموعها سوى ظفر الشاعر بما كانت تتوق نفسه إليه من ذيوع الصيت وبعد الأثر في نفوس الناس ، وإلا فما الذي يحمل الزبرقان بن بدر على أن يشتري بتمره ولبنه مديح الحطيئة ؟ وما الذي يحمل خصمه وابن عمه بغيض بن قُريع على منافسته في ذلك ؟ أهناك سبب آخر سوى الرغبة في الحصول على المديح الذائع

( ) الأغاني ج ٢ ص ٤٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٤)

(٣) المصدر نفسه (ص ٤٥)

والثناء المخلّد ؟(١)

ب ـ وقد أدان الرواة وفي مقدمتهم الأصمعي الحطيئة فوصفوه بالطمع والجشع والبخل ودناءة النفس وكثرة الشر وقلة الخير وبعيوب أخرى كثيرة. وما أريد أن أبرئه من أية رذيلة من هذه الرذائل ، ولكني أريد أن أقول إن هؤلاء الناس نسوا أنه ليس في مقدور أي رجل يولد مولد الحطيئة وينشأ نشأته أن يكون أي إنسان آخر سواه . وكما شدد الرواة النكير على الحطيئة في أمر أخلاقه ، شددوا النكير عليه كذلك في هجائه أمه . وفاتهم أنه هجا أماً كانت مصدر شقائه وسبب بلائه ومحنته . وقد لفق الرواة وصيةً زعموا أن الحطيئة أدلى بها ساعة وفاته . ولكنك لا تكاد تقف على نصوص هذه الوصية المختلفة في كتابي الشعر والشعراء والأغاني حتى تجزم بأنها مختلقة منحولة لكنها ربما احتوت على كلمات فاه بها الشاعر في بعض مطارحاته الأدبية منها هذه الكلمة : « ويل للشعر من رواية السوء » ومنها هذان البيتان :

الشعر صعب وطويل سُلَّمُهْ   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه   يريد أن يعربه فيعجمه

ج ـ وتوفي المترجم في أيام معاوية بن أبي سفيان بدليل أنه مدح سعيد بن العاص في أيام ولايته على المدينة ، ولكن الرواة لم يحددوا تاريخ وفاته ولو على وجه التقريب .

---

(١) مما يلفت النظر في قصة الزبرقان والحطيئة أن الأخير لم يلب دعوة بغيض الى جواره على رواية الأغاني ، الا بعد أن أساءت امرأة الزبرقان معاملته اساءة ظاهرة وأنه لم يلب كذلك دعوة بغيض الى هجاء الزبرقان الا بعد أن أوعز هذا الى دثار بن شيبان أحد شعراء النمر بن قاسط بأن يهجو بغيضاً فهجاه بأبيات قال فيها :

ألم أك جار شماس بن لأي   فأسلمني وقد نزل البلاء

وهذا دليل على وفاء الحطيئة وعرفانه الجميل اذا لم أخطىء .

د ـ شعره :ــ قلت لك في صدر هذا الحديث إن الحطيئة خير من يمثل مذهب زهير في صناعة الشعر. وأقول لك الآن : إن هذا المذهب يقوم على توخي الحقيقة والابتعاد عن الغلو والاسراف من ناحية الموضوع وعلى فصاحة اللفظ ومتانة السبك وتحاشي فضول الكلام واجتناب وحشيه وحوشيه إلى اعتدال في اصطناع المحسنات البيانية من ناحية اللغة والأسلوب ، وعلى شيء آخر لعله أهم عنصر في هذا المذهب ، وهو : نظم الشعر بأناة وروية . فزهير لا يقول الشعر فيض البديهة وعفو الخاطر، ولكنه يحككه ويهذبه ويقلب النظر في أعطافه ولا يذيعه في الناس حتى يطمئن إلى أنه قد بلغ فيه الغاية وظفر بالقصد ، ولأمرٍ ما سمّي « صاحب الحوليات » وعُدّ في طليعة « عبيد الشعر » . والحطيئة راوية زهير وتلميذه ، وقد عرف مذهبه هذا كل المعرفة وتأثر به كل التأثر واصطنعه في كل ما عالج من ضروب الشعر فكان صورة صادقة من أستاذه ومثلا حيّاً من مثقفه ومخرجه ، وإنك لتقرأه أحيانا فيخيل لك أنك تقرأ زهيراً لما بينهما من وثاقة الصلة وتقارب خصائص الفن .

ه ـ ولكني ، وأنا أحدثك عن الحطيئة ، مضطر إلى أن أحذرك مما حُمل عليه من الشعر . فقد حمل عليه الشيء الكثير من جيده ، وحُمل عليه الشيء الكثير من رديئه أيضاً . فمما حُمل عليه من جيده هذه القصيدة القصصية النفيسة وهي :

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مرملٍ
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما[1]
أخي جفوة فيه من الانس وحشة
يرى البؤس فيها ، من شراسته ، نُعمى

---

(١) عاصب البطن : شاد عصابة على بطنه من الجوع .

تفرّد في شِعبٍ عجوزاً ، إزاءها
ثلاثة أشباح تخالهمُ بهما(١)
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملّة
ولا عرفوا للبُرّ مذ خلقوا طعما
رأى شبحاً وسط الظلام فراعه
فلما بدا ضيفاً تصوّر واهتما
فقال ابنه لما رآه بحيرةٍ :
« أيا أبت اذبحني ويسّر له طُعما ،
ولا تعتذر بالعُدم ، علّ الذي طرا
يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما ! »
فروّى قليلاً ، ثم أحجم برهةً ،
وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا(٢)
وقال : «هيا رباه، ضيف ولا قرىً !
بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما ! »
فبينا همُ ، عنّتْ على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مِسحلِها نظما(٣)
ظماءً تريد الماء ، فانساب نحوها
ألا إنه منها إلى دمها أظما !

---

(١) الشعب : الطريق في الجبل . « وتعجوز » منصوب بنزع الخافض تقديره بعجوز .
والبهم : جمع بهمة وهي فرخ الضأن والمعز شبههم بها لصغر أجسامهم .

(٢) روى : تروى وتفكر .

(٣) العانة : هنا القطيع من حمر الوحش . والمسحل الحمار الوحشي .

فأمهلها حتى تروّت عطاشها ،
فأرسل فيها من كنانته سهماً
فخرت نحوص ذات جحش فتية
قد اكتنزت لحماً وقد طبّقت شحماً(١)
فيا بشره إذ جرها نحو أهله !
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى !
فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
فلم يغرموا غرماً وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أباً
لضيفهم والأم من بشرها أما

فأكبر الظن أن هذه القصيدة من صنع راوية عربي الأصل نظمها رداً على قصيدة منحولة من شأنها أن تسيء إلى سمعة العرب ، وقد تكون هذه القصيدة الشعوبية لامية خلف الأحمر التي نحلها الشنفرى وسماها لامية العرب ، لأنها تصف العرب باللصوصية وقتل النساء والأطفال وأكل التراب وما إلى ذلك من الصفات التي يحلو لخلف الأحمر أن يخلعها على العرب . ثم إن القصيدة ـ أعني الميمية المحمولة على الحطيئة ـ من سعة الخيال ودقة التصور وتسلسل المعاني والاغراض ودماثة اللغة بحيث يصعب صدورها عن مثله .

ومما حمل عليه من رديئه ـ أي الشعر ـ هذه الأبيات التي زعموا أنه هجا بها زوج أمه وهي :

لحاك الله ، ثم لحاك حقاً … أباً ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت لدى المخازي … وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

---

(١) النحوص : الأتان الوحشية .

جمعت اللؤم لا حياك ربي وأبواب السفاهة والضلال

فما أشك في أن الحطيئة أشعر بكثير من أن يقول هذا الشطر السخيف الركيك « جمعت اللؤم لا حياك ربي » وما أشك كذلك في أنه بعيد كل البعد عن أن يعرف « للسفاهة والضلال أبوابا » . وأنت تعلم أن (التبويب) لم يعرف إلا عند وضع الكتب في أيام الدولة العباسية، لأنهم احتاجوا إذ ذاك إلى تصنيف المعلومات وتمييز بعضها من بعض وتيسير فهمها على القارئين والدارسين . وهناك قصيدتان ، إحداهما لامية والأخرى عينية زعموا أنه أرسلهما إلى عمر ، الاولى في أيام حبسه والثانية بعد الافراج عنه ، لا يخامرني أدنى شك في أنهما محمولتان عليه حملاً ، ومدسوستان في شعره دساً ، وفي أنهما من صنع راوية ماجن لا دين له ولا ذمة .

و — ولكن وجود هذا الشعر المنحول جيداً كان أم رديئاً في ديوان الحطيئة لا يغض من شأنه ولا يحط من قدره . ففيه من نفائس الشعر وغرره ما يجعله أهلا للتمحيص والدرس . وهذا الديوان مشتمل على أكثر ضروب الشعر من مديح وهجاء ورثاء وفخر ووصف وحكم . ولكني قد لا أظلم الحطيئة إذا اقتصرت على ضربين من شعره هما المديح والهجاء لأني أظن أنهما خير ما ترك من منظوم الكلام إذا استثنينا حكماً قليلة جداً لا يمكن أن تؤلف باباً في هذا الديوان لقلتها . فأما مديحه فانه من الأهمية بمكان لأنه لا ينحل ممدوحه فضائل غيره ولا يبالغ في تصوير فضائله ، وإنما يستعرض ما عنده من حميد الخصال وشريف الفعال ويتمثله ثم يصوره في حذق وبراعة وصدق وأمانة . وما أظن أنك تنكر عليه الغلو أو الاسراف في المدح إذا قال لك عن سعيد بن العاص وهو من كبار الأمويين وعامل معاوية على المدينة إنه قليل الأكل فكه الطبع لا تمتد يده إلى زاد خبيث . وما أظن أنك تنكر عليه شيئاً إذا قال لك عن بغيض بن

قريع وهو من أعيان تميم إنه كثير الكسب للمال كثير الانفاق له ، وإنه حسن الاستقبال للضيفان، يلقاهم بوجه يلمع فيه البشر لمعان الفرند في السيف. وما أظن أنك تنكر عليه شيئاً كذلك إذا قال لك عن آل شماس وهم من سراة تميم : إنهم ذوو همم عالية وشمائل طيبة وأخلاق نبيلة وأنساب عريقة في المجد والشرف . ومعنى هذا أن مديحه على جانب كبير من الصدق والأصالة ، هذا فضلا عما يمتاز به من جزالة في اللفظ ومتانة في السبك وصفاء في الديباجة .

ولم يبق لي الآن سوى أن أنشدك مثلا من هذا المديح :

إسمع قوله في آل شماس :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا
وإن قال مولاهم على جلّ حادث ... من الدهر ردّوا فضل أحلامكم ردّوا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

وقوله يمدح بغيضاً :

تزور امرءاً يؤتي على الحمد ماله ... ومن يؤت أثمان المحامد يحمدِ
يرى البخل لا يبقي على المرء ماله ... ويعلمُ أن البخل غيرُ مخلّدِ
كسوب ومتلاف إذا ما سألته ... تهلل فاهتز اهتزاز المهندِ
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجدْ خير نارٍ عندها خيرُ موقد

وقوله في آل عدي :

وفتيان صدق من عديّ عليهم ... صفائح بصرى عُلِّقت بالعواتق
إذا ما دُعوا لم يسألوا من دعاهم ... ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق
وطاروا إلى الجرد العتاق فألجموا ... وشدوا على أوساطهم بالمناطق

أولئك آباء الغريب وغاثة الصريخ ومأوى المرملين الدرادق (١)
أحلوا حياض المجد فوق جباههم مكان النواصي من وجوه السوابق

وأما هجاؤه ، فانه قاس كل القسوة شديد كل الشدة ، إلا أنه على جانب كبير من النزاهة والعفة لا يسيء إلى سمعة امرأة ولا يفحش في سب رجل ، وإنما يقتصر على ذكر الخلال الذميمة التي قد توجد حتى عند أفاضل الناس كالبخل والجبن وما إليهما . وبعد فما ظنك بهجاء تردد عمر في اعتباره ذماً ورأى أن يحيله إلى حسان بن ثابت بصفته شاعراً ليقول كلمته فيه ؟ وما أريد أن أطيل الكلام عن هجاء الرجل فحسبي أن أورد لك مثلاً من سينيته الشهيرة التي تقدمت لها الأشارة ، وهاك ما أريد إيراده :

والله يا معشر لاموا امرأً جُنُباً في آل لأي وشماسٍ بأ كياس (٢)
ما كان ذنبُ بغيضٍ لا أبا لكم في بائس جاء يحدو آخر الناس
لقد مريتكم لو أن درتكم يوماً يجيء بها مسحي وإبساسي (٣)
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم كيما يكون لكم متحي وإمراسي (٤)
لما بدا ليَ منكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمعت يأساً مريحاً من نوالكم ولن ترى طارداً للحر كاليأس
جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيماً بين أرماس
ملّوا قراه وهرّته كلابهم وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

---

(١) الدرادق : الصغار .

(٢) الجنب : الغريب .

(٣) مريتكم : مرى الناقة مسح ضرعها . والابساس : دعاء الناقة ببس بس لتسكن ويدر لبنها .

(٤) المتح : الاستقاء ، والامراس اعادة المرسة وهي الحبل الى مجراها .

سيجزي أُمامَ فان الأكثرين حصىً ... والأكرمين أباً من آل شماس
من يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

* * *

ولك أن تقيس بقية القصيدة على هذا ، وواضح أن قصيدة الحطيئة لا تشتمل على معنى قبيح ولا لفظ بذيء ، ولكنها غضت من شأن الزبرقان وحطت من كرامته إلى حد حمله على أن يشكو الشاعر إلى الخليفة .

يقول الاستاذ الزيات في كلامه على شعر الحطيئة « ولولا خساسة طبعه ، ودناءة طمعه ، وقبح تبذّله ، لما فضله في المخضرمين أحد.[1] » ويرى الاسكندري رحمه الله رأيه في هذا الشأن فيقول : « لولا ما وصم به الحطيئة من خسة النفس ودناءة الخلق وجهالة النسب ورقة الدين والغدر والبخل الشديد والاساءة إلى من أحسن إليه وسؤاله الرعاع والسوقة طمعاً في جمع المال من أي سبيل ، لكان باجادته في كل ضرب من ضروب الشعر شاعر المخضرمين على الاطلاق[2] » .

ويخيل إليّ أن الرجل شاعر المخضرمين على الاطلاق وأن أخلاقه لا تؤثر كثيراً ولا قليلاً في مكانه من الشعر ، لأن الشعر شيء والأخلاق شيء آخر . هذا إلى أني أرى فيما ينسب إلى المترجم من صفات ذميمة وأخلاق منحطة شيئاً قد لا يكون قليلاً من الغلوّ والاسراف .

* * *

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ١٠١–١٠٢ الطبعة الثانية بمطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩١٤
(٢) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، ص ١٢٩ الطبعة الأولى بمطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١٩ .

كعب بن زهير

—— o ——

أ ـ تاريخه في الجاهلية . مولده ونسبه . نشأته وتعليمه . مزاعم الرواة في هذا الشأن . تفنيدها . أكذوبة أخرى للرواة بصدد نبوغ كعب . دحضها . خبره مع زيد الخيل . رفضه .

ب ـ تاريخه في الاسلام . قدوم أخيه بجير على النبي بموافقته . إسلام بجير . نقمة كعب عليه . هجاؤه النبي وأصحابه . إهدار النبي دمه . عدم مبالاته بذلك بادىء بدء. خشيته النبي بعد استيلائه على مكة . التماسه حماية القبائل وفشله في ذلك . التجاؤه إلى النبي .حصوله على عفوه . موقف المهاجرين والأنصار منه . ضيعة تاريخ وفاته . نظرة في حادثة البردة (هامش) .

ج ـ شعره . ديوانه . ما أضيف إليه من الشعر . مثل منه . مناقشة بعض هذه المثل .

د ـ ما يصح من شعره . تمثيله مذهب أبيه . مثل منه .

هـ ـ خاتمة .

***

أما كعب بن زهير،فانه ثاني شعراء المذهب الزهيري أو الأوسي في الاسلام، وهو ثاني شعراء هذا المذهب ، ليس فقط من حيث الاجادة ، بل ومن حيث الكمية أيضاً ، فان ما يعزو إليه الرواة من الشعر قليل جداً وأكثر هذا القليل منحول . وولع الرواة بهذا الشاعر عجيب، فانهم نسجوا حوله طائفة من الأساطير

تكادت تحيله شخصية خرافية لولا « بانت سعاد .. » التي لا يتطرق إليها الشك.
ومع ذلك سنحاول أن نقول كلمتنا فيه .

***

(أ) ولد كعب بديار غطفان في نجد حيث كان يقيم أبوه وتاريخ ولادته مجهول ، وهو أكبر أولاد زهير وهم بجير وسالم وهو . وقد نشأ في حجر أبيه وتعهده هذا بالتدريب والتثقيف حتى صار شاعراً مقدماً . بيد أن الرواة يزعمون أن أباه كان يمنعه من قرض الشعر في أيام حداثته خشية أن يقول مالا خير فيه فيروى عنه ، وأنه كان يشدد في هذا المنع إلى درجة الضرب والحبس وأنه لم يسمح له بمعالجة الشعر إلا بعد أن امتحنه امتحاناً شاقاً عسيراً ثبت فيه نبوغه وظهرت شاعريته . وعندي أن هذا الخبر مكذوب ، فمما لا شك فيه أن زهيراً يعرف أن الشعر ملكة مستحكمة في بيته ، فهو كبير شعراء مضر وأبوه ربيعة شاعر ، وخاله بشامة بن الغدير شاعر وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان . ومن الطبيعي أن يكون ابنه كعب شاعراً . وإذا كان هذا يقول الرديء من الشعر في بدء نشأته فلا بد أنه سيقول الجيد منه . وعليه فلا محل لهذا المنع الذي ينتهي إلى الضرب والحبس. ومثل هذا الخبر فى مكانه من الكذب والافتعال ما يتناقله الرواة من أن زهيراً قال ذات يوم :

تزيد الأرض إمامتّ خفّاً ... وتحيي ما حييت بها ثقيلا
نزلت بمستقر العرض منها ... .

ثم أكدى – أي عجز عن إتمام البيت – فمر به النابغة الذبياني ، فقال له : أجز يا أبا أمامة ! فقال : أجيز ماذا ؟ فأنشده زهير ما تقدم ، فأكدى النابغة في دوره . ومرّ كعب ، وهو صغير فقال له أبوه : أجز يا بني . قال : أجيز ماذا ؟ فأنشده أبوه البيت والشطر ، فقال على الفور : « وتمنع جانبيها أن يزولا » .

هـذا الخبر مختلق أيضاً ، لأن مثل هذه المبالغة لم يكن معروفاً فى الشعر الجاهلي. ولأن قافية البيت الأول يجب أن تكون مؤنثة لأنها صفة للأرض التي يقول صدر البيت إنها تزيد خفة إذا مات الممدوح . و « صاحب الحوليات » أحذق وأدقّ صناعة من أن تتطرق إلى شعره قافية كهذه . وقد أعطى الرواة هـذه المساجلة الشعرية صوراً وأشكالاً عديدة ذكرها صاحب الروائع كلّها. وكلها دون أدنى ريب هذر لا نصيب له من الصحة .

وقل مثل هذا عن خبر كعب مع زيد الخيل لأن ما فيه من الشعر منحول ظاهر التكلّف . ومن الأمثلة على ذلك هذا البيت السخيف :

ألا بكرت عرسي بليل تلومني وأقربْ بأحلام النساء إلى الردى

أو : « وأكثر أحلام النساء إلى الردى .. »

وهذا البيت الذي لا معنى له مطلقاً :

وإن تغضبوا أو تدركوا لي بذمّة لعمركم أو مثل سعيكم كفى

وفي القطعة أمثلة أخرى لهذا الكلام الملفّق الذي إن دلّ على شيء فانما يدل على الافتعال والأسفاف معاً . أما أبيات زيد الخيل فحسبك دليلاً على افتعالها هذا البيت :

فلولا زهير أن أكدّر نعمة لقاذعت كعباً ما بقيت وما بقى

إذ الصحيح « بقي » كرضي ولقي . وليس من المعقول أن شاعراً فصيحاً كزيد الخيل يقع في مثل هذا الغلط الفظيع .

(ب) ومع أن تاريخ كعب في الاسلام لم يخلُ من افتعال كثير ، فانه أقرب إلى الصحة مما سبقت الاشارة إليه من أخباره . فالرواة مجمعون تقريباً على أنه تذاكر ذات يوم هو وأخوه بجير في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بينما كانا يرعيان

غنماً لهما . فقال كعب لأخيه : إلحق بالرجل لتعرف خبره وحقيقة مايدعو إليه لتعلمني إياه . ولحق بجير بالنبي ، فلما شهد مجلسه وسمع كلامه تأثر به فاعتنق الاسلام . وبلغ خبر إسلام بجير أخاه كعباً فغضب أشد الغضب وأخذيهجو النبي والمسلمين هجاء مراً . وساء النبي هجاؤه فأهدر دمه . وكان إسلام بجير في السنة السابعة للهجرة . ولم يكن الاسلام قد بلغ أوج قوته إذ ذاك ، فلم يلتفت كعب إلى إباحة النبي دمه ، وظل يهجوه وأصحابه أفظع هجاء . فلما فُتِحت مكة ودخل معظم سكان شبه الجزيرة في الاسلام شعر كعب بالخطر الذي يتهدده فلجأ إلى مزينة ، وهي عشيرة أمه ، يسألها أن تجيره على النبي فرفضته . والتمس هذا عند غيرها ، فلم يكن نصيبه إلا الرفض . عندئذ عوّل على التماس صفح النبي عن طريق الدخول في الاسلام . وينبغي أن نلاحظ أن أخاه بجيراً هو الذي أشار عليه بذلك. وكان هذا قد عرف بالاختبار صفح النبي عن خصومه القدماء عند اعتناقهم الاسلام وتنصّلهم مما سلف منهم . وقدم كعب المدينة متخفياً فنزل عند صديق له من جهينة وقيل عند أبي بكر وقيل عند عليّ بن أبي طالب[1] ، ومثل بين يدي النبي فأعلن إسلامه والتمس مغفرته . وكان النبي عند حسن ظنه ، فآمنه وصفح عنه ، وكان المسلمون يتميزون عليه غيظاً بسبب إيلامه إياهم بقوارص هجائه ، وأراد بعضهم قتله فمنعه النبي . وهنا أنشد المترجم بين يدي النبي لاميته المشهورة التي سأروي لك شيئاً منها عما قريب . وكانت هذه القصيدة في مدح النبي والمهاجرين ، فعاتب الرسول كعباً على خلو قصيدته من مدح الأنصار ، وقال المهاجرون : ما مدحنا من هجا الأنصار ، فكفّر كعب عن هذا بنظم قصيدة في مدح الأنصار سأروي لك بعضها .

---

(١) أنظر العدد (٣٢) من الروائع ص ٨٢ ـ ٨٣ طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٣٣

وبهذا ينتهي تاريخ كعب في الاسلام على وجه التقريب ، لأننا لا نعرف عن حياته في الاسلام شيئاً سوى ما تقدم .

ومما يؤسف له أننا نجهل تاريخ وفاته كما نجهل تاريخ مولده . وليس للفرض القائل إنه توفي سنة اثنتين وأربعين للهجرة ما يبرره أو يرجحه ، لأنه ليس في قضية شراء البردة[1] - إذا صحت هذه بدورها - ما يسمح بترجيح ذلك الفرض، إذ السائد عند مؤرخي البردة أن معاوية اشتراها من أولاد كعب لا من كعب نفسه .

***

(ج) شعره : للمترجم ديوان شعر صغير يحتوي على نحو من ثلاثين قصيدة ومقطوعة ذكره الحاج « خليفة » في (كشف الظنون)[2] . وظفر المستشرق (كرنكو) Krenkow بنسخة منه فدرسه وعزم على نشره في سنة ١٩١٠ ، ولكن موانع حالت بينه وبين تحقيق هذه الفكرة . ومهما يكن من شيء فان ما وصلنا من شعر كعب قليل جداً لسوء الحظ ، فهو عبارة عن « بانت سعاد .. » وبضع قصائد ومقطوعات نظمت في أغراض متفرقة . غير أنه إلى جانب هذه القصائد وتلك المقطوعات قصائد ومقطوعات أخرى كلها أو أكثرها مكذوب مفتعل . فمن ذلك هذه النونية التي زعموا أن كعباً رثى بها ربيعة بن مكدّم والتي أروي لك منها قولهم :

---

(١) البردة كساء من صوف مخطط ، زعموا أن النبي خلعها على كعب فور سماعه « بانت سعاد » وأن معاوية اشتراها من ولد كعب فتداولها خلفاء بني أمية من بعده ، ثم انتقلت الى خلفاء بني العباس الذين كانوا يلبسونها في الأعياد . وقد لفت الأستاذ فؤاد البستاني في العدد (٣٢) من الروائع الأنظار الى أن المؤرخين لم يلهجوا بهذه القصة الا في القرن الثالث للهجرة .

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون طبعة (Flügel) ليبسك سنة ١٨٣٥ المجلد الثالث ص ٣٠٣ - ٣٠٤

بان الشباب ، وكل إلفٍ بائن ظعن الشباب مع الخليل الظاعن
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبًا ؟ وأراك ذا بثٍ ولست بدائن ؟!
غضّي ملامك ، إن بي من لومكم داءً أظنّ مماطلي أو فاتني

وهذه الميمية التي زعموا أنه ردّ بها على المزرّد بن ضرار والتي أقتطف لك منها هذين البيتين :

تعيرني عزاً قديماً وسادةً كرامًا بنوا لي المجد في باذخ الشمم
هم الأصل مني حيث كنت وإنني من المزنيّين المضيفين للكرم

فما أظن أن الاسفاف يبلغ بكعب أن يقول مثل هذا الكلام الركيك المفكك الذي يصعب تأويل أكثره وحمله على وجه صحيح ، وما هكذا يتحدث فحول الشعراء ولا سيما إذا كانوا ممن يحكك الشعر ولا يذيعه في الناس إلا بعد تهذيبه وتنقيحه من أمثال كعب وأبيه .

ومن قبيل الأمثلة السالف ذكرها أبيات تتناقلها كتب الأدب على أنها من الشعر الجيد ، وأنا أزعم أنها ليست من الجودة في شيء وليست من الصحة في شيء كذلك ، وهي :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركها والنفس واجدة والهمّ منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

فليس من شك في أن البيت الأول غير صحيح لاستعماله كلمة « أَعْجَبَ » بدلاً من « لَعَجِبتُ » وهي الكلمة التي يقتضي المقام استعمالها . وليس من شك في أن البيت الثالث لا يمكن أن يصدر عن شاعرٍ له وزن لأن معناه غير مستقيم . فقد أراد الشاعر أن يجعل الأمل لازماً للانسان مدة حياته لزوم الأثر

للعين فقال في عجز البيت « لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر » وكان الصواب أن يقول « لا ينتهي الأثر حتى تنتهي العين» لانه ناشيء عنها لازم لها ، وانتهاء الأثر بانتهاء العين زعم غير صحيح ، فان الأرض ملأى بالآثار الباقية بعد زوال الأعيان التي أنشأت هذه الآثار .

(د): أما ما يصح من شعر كعب فانه صورة صادقة من شعر أبيه يتمثله في توخي الحقيقة وتجنب الغلو والاسراف . ويمثله في عرض وقائع التاريخ عرضاً صحيحاً وتصويرها تصويراً صادقاً ، ويمثله كذلك في تخير ألفاظه وتنخل قوافيه ورصانة أسلوبه وحكمة أمثاله . استمع إليه يصف الأنصار في قصيدة :

من سرّه كرم الحياة فلا يزل　　في مِقْنَبٍ[1] من صالحي الأنصار
الناظرين بأعين محمرّة　　كالجمر غير كليلة الأبصار
والذائدين الناس عن أديانهم　　بالمشرفي وبالقنا الخطار
يتطهّرون كأنه نسك لهم　　بدماء من علقوا من الكفار
صدموا الكتيبة يوم بدر صدمة　　ذلّت لوقعتها رقاب نِزار

واستمع إليه يصف المهاجرين في «بانت سعاد ...» بعد وصفه النبي(ص) :

في فتيةٍ من قريش قال قائلهم[2]　　ببطن مكة، لما أسلموا : «زولوا»
زالوا، فما زال أنكاس ولا كشف　　عند اللقاء ، ولا ميل معازيل[3]

---

(١) المقنب : من ثلاثين الى أربعين فارساً

(٢) يجمع شراح « بانت سعاد » على أن هذا القائل هو عمر بن الخطاب (رض)

(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الجبان أو الضعيف ، وكشف : جمع أكشف وهو من لا يحمل ترساً . ميل : جمع أميل ، وهو من لا يثبت على السرج ، أي من لا يحسن الفروسية . معازيل : جمع معزال ، وهو من لا سلاح له .

شُم العرانين أبطال ، لبوسهم من نسج داود، في الهيجا، سرابيل (١)
لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

واستمع إليه يعظ جاهلاً ويرشده سواء السبيل :

إن كنتَ لا ترهبُ ذمي لِما تعرفُ من صفحي عن الجاهلِ
فاخشَ سكوتي ، إذ أنا منصت فيك لمسموع خنى القائلِ
فالسامعُ الذم شريك بهِ ومُطعِمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السوء إلى أهلها أسرع من منحدرٍ سائلِ
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحقِ وبالباطلِ
فلا تَهِجْ إن كنت ذا إربةٍ (٢) حرب أخي التجربة العاقلِ

فما أشك أنك تجد في المثال الأول صورة حيةً من شجاعة الأنصار وبسالتهم ومن دفاعهم عن النبي ونضالهم في سبيل الاسلام الذي آمنوا به أصدق الايمان وأخلصوا له أشد الاخلاص وتحمسوا لمثله ومبادئه حماسة منقطعة النظير ، وما أشك أنك تجد في المثال الثاني صورة حيةً كذلك من تفاني المهاجرين في سبيل الدعوة المحمدية وتركهم ديارهم وأبناءهم وأموالهم إلى ديار لم يعرفوها وأرض لم يطأوها ليمارسوا شعائر دينهم بحرية وطمأنينة وليعملوا على نشره بكل ما أوتوا من قوة . وما أشك أنك تجد في المثال الثالث حكمة الرجل العاقل الخبير بالحياة والناس الذي يترفع عن الطعن في الخصوم ، ولكنه يحذر خصمه

---

(١) العرنين : طرف الأنف ، وشممه : ارتفاعه ، ووصف الرجل بشمم العرنين كناية عن وصفه بعلو الهمة واباء الضيم. المراد بنسج داود : الدروع ، لأن العرب تنسب صنعها الى داود (ع س)

(٢) الاربة : الدهاء .

إصغاءه إلى ما يقال فيه مما لا يسره ، ويُعلمه أن الناس سراع إلى أكل لحوم بعضهم بالغيبة ، وأنه من رضي منهم لنفسه أن يُذمّ ذمّوه بما كان منه وما لم يكن .
وما أشك أنك تجد في هذه المثل جميعًا من متانة اللغة وجمال الاسلوب وصفاء الديباجة ما يمثل مذهب زهير في صناعة القريض ويميز طريقته وأسلوبه .

(هـ) : في الواقع أن ما يصحّ لنا من شعر كعب قليل جداً ، ولكنه يمثل بلا ريب خيالاً قويًا وقريحة خصبة وفنًا متقنًا رفيعًا ما؟

الفصل الرابع

حسان بن ثابت الأنصاري

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مكانته من قومه . صلاته بالمناذرة . صلاته بالغساسنة . دفاعه عن النبي وحظوته عنده . وفاته .

ب ـ أخلاقه : جبنه وميله إلى الادعاء .

ج ـ شعره : خاصته . طائفة من مختاراته .

د ـ قدرته على الارتجال . مثل من شعره المرتجل . نقده .

ه ـ الخلاصة .

***

كان الحطيئة وكعب شاعرين بدويين، يمثلان مدرسة شعرية بدوية هي مدرسة زهير أو مدرسة أوس أستاذه . أما حسان بن ثابت الذي أريد أن أحدثك عنه الآن فانه شاعر حضري يمثل مدرسة شعرية حضرية ، شعراؤها فيما يقول المبرّد ستة ، وهم : حسان وابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبدالرحمن ، ووالده ثابت ، وجده المنذر ، وحرام والد المنذر . وليس ثمة شك في أن حسان أشعر الستة . ومن المفيد أن نلاحظ أن مدرسة زهير تمتاز بالرصانة والقوة بينما تمتاز مدرسة حسان باللين والسهولة ، وأن مدرسة زهير تصنع الشعر صنعاً وتحككه وتنقحه وتطيل النظر فيه ، أما مدرسة حسان فانها تقوله عفواً ، وترتجله ارتجالاً وتعرضه على الناس غير منقح ولا مهذب . وأفرغ الآن للكلام عن حياة حسان وأخلاقه وشعره فأقول لك :

(أ) : هو حسان بن ثابت بن المنذر الانصاري الخزرجي . كان يكنّى في الجاهلية بـ (أبي الوليد) ثم كنّي في الاسلام بـ (أبي عبدالرحمن) . ولد في الجاهلية وعُمّر

فيها نحواً من ستين سنة . فلما هاجر النبي (ص) إلى المدينة ، أسلم فيمن أسلم من الأنصار. وكان لسانَ عشيرته الخزرج وشاعِرَها المقدّم في مفاخراتها ومساجلاتها مع الأوس . وكان يَفِدُ في أيام جاهليته على ملوك المناذرة في الحيرة والغساسنة في بادية الشام، فيمدحهم ويأخذ جوائزهم . ولكن يظهر أنه لم يكن كبير الصلة بالمناذرة لغلبة النابغة الذبياني على هؤلاء . ويحدثنا الرواة أن حسان وَفَدَ على النعمان بن المنذر فلقي حاجبه عصاماً الذي يقول فيه النابغة :

[نفس عصام سوّدتْ عصاما وعَلَّمَتْهُ الكرَّ والاقداما..الخ]

فزوده هذا بعدة نصائح انتفع بها في مقابلة النعمان . فلما خرج من عنده قال له الحاجب « بقيت عليَّ واحدة لم أُوصك بها : قد بلغني أن النابغة الذبياني قَدِمَ عليه، وإذا قدم فليس لأحدٍ منه حظ سواه، فاستأذِنْ حينئذٍ وانصرِفْ مكرمًا خيراً من أن تنصرف مجفواً[1] .» ومع أن الغساسنة كانوا ينزلون نابغة بني ذبيان المنزلة التي تليق به ويقدرون شعره حق قدره وهو القائل فيهم بائيته الخالدة التي مطلعها [كليني لِهَمّ يا أُميمة ناصب] استطاع حسان أن ينفذَ إلى قلوبهم ويستأثر بقسط غير قليل من عطفهم ولعل صلةَ النسب التي تَربطُه بهم كانت أكبر سببٍ في حُظوته عندهم . فغيرُ خافٍ أنه وهمُ ينتمون جميعًا إلى أصول يمنية قحطانية . ويحدثنا الرواة أن عمرو بن الحرث الغساني قال لحسان عندما دخل عليه للمرة الأولى وعنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة « يا ابن الفُرَيعَة قد عرفت عيصك[2] ونسبك في غسان فارجعْ ، فاني باعث إليك بصلةٍ سنيةٍ ولا أحتاج إلى الشعر ، فاني أخاف عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة ، أن

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٦٥ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) العيص : العرق .

يفضحاك وفضيحتك فضيحتي [١] . » ومن هنا يتبين أن الغساسنة كانوا يحسبون لصلة النسب التي تربط حسان بهم حسابها ويعتدون بها اعتداداً غير قليل . وقد استمر عطفهم عليه بعد إسلامه . وما هدية جبلة بن الأيهم إليه بعد فراره إلى القسطنطينية إلا دليل صادق على استمرار هذا العطف .

ولئن كان حسان شاعر الغساسنة ولسان الخزرج في الجاهلية فانه شاعر النبي الأول في الاسلام [٢] . وقد بلغ من حُظوته عند النبي (ص) أن قال له وهو يشير إلى مشركي قريش : « أهْجُهم وجبريل معك [٣] » وقال له وهو يسمع هجاءه إياهم : « إن هذا لأشد عليهم من وقع النبل . » [٤] ولم يشهد حسان موقفاً مع النبي ، لأن جبنه كان يحول بينه وبين ذلك . إلا أن نَصْرَهُ إياه بلسانه قام مقام نَصْرِهِ إياه بسيفه . وكان النبي (ص) يجري عليه العطاء من بيت مال المسلمين ويفرض له في الغنائم كما لو كان مقاتلا . وفعل الخلفاء بعده فعله معه فعاش مكفيّ المؤونة مطمئن البال إلى أن مات سنة (٥٤) للهجرة وقد بلغ العشرين بعد المئة فيما يزعم الرواة .

(ب) أخلاقه : أبرز ما في أخلاق حسان جبنه ، فمن المعلوم أنه لم يشهد مع النبي موقفاً ما . وقصة إحجامه عن قتل الجاسوس اليهودي وعن سلبه أيضاً بعد أن قتلته صفية بنت عبد المطلب من الشهرة بمكان . ومع ذلك كان يحب أن يوهم نفسه أنه شجاع شديد البأس عظيم البطش !!. [روي أنه كان يخضب شاربه

(١) الاغاني ج ١٤ ص ٣ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) وصفت حسان بأنه شاعر النبي الأول لأن عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك الأنصاريين كانا يشاركانه في هجو مشركي قريش والدفاع عن النبي والمسلمين . ولكنه كان أقدر الثلاثة على أداء هذه المهمة كما قدمت .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٦

وعَنْفقَته[1] بالحنّاء ، ولا يخضب سائر لحيته . فقال له ابنه عبدالرحمن : « يا أبت ، لمَ تفعل هذا ؟» فأجاب : « لأكون كأني أسد والغ في دم»!.][2]
أما فخره بشجاعته الموهومة في شعره فانه كثير جداً سأذكر مثلا منه في مكان آخر من هذا الفصل . وهو إلى هذا معجب بشعره كل الأعجاب . روي أنه أنشد النابغة في سوق عكاظ وكانت الخنساء والأعشى في جملة من أنشده . فقال النابغة للخنساء : لولا أن أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني ، لفضلتكِ على جميع من حضر الموسم من الشعراء . فغضب حسان لذلك غضباً شديداً وقال للنابغة : « والله إني لأشعرُ منها ومنك »[3] . وعندما حرض النبي (ص) الأنصار على الدفاع عنه بألسنتهم قال حسان : « أنا لها » ، ثم أخذ بطرف لسانه وقال : « والله ما يسرني به مِقول بين بصرى وصنعاء[4] » . وكان يخرج لسانه ويقول: « والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه ! »[5] . مع أنه لا مجال للريب في أنه بعيد كل البعد عن أن يضارع نابغة بني ذبيان وزهير بن أبي سلمى، وعن أن يضارع الأعشى أيضاً سعة خيال ودقة إحساس وقوة عارضة .

ج - شعره : لحسان ديوان شعر متوسط الحجم طبع مراراً بمصر وأوروبا وأنت إذا تصفحت هذا الديوان رأيت أن الرواة لم يكونوا شديدي الخطأ في اعتقادهم أن اللين غالب على شعر صاحبه . وقد علل النقاد القدماء والمحدثون المحبون لحسان هذه الظاهرة بأسباب كثيرة - فقالوا ما مؤداه : إن حسان شاعر

---

(١) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن.
(٢) الاغاني ج ٤ ص ٣ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٨٧ - ١٨٨ .
(٤) « « ج ٤ ص ٤ .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

حضري تذوق النعيم وعرف الترف . وقد لان شعره بسبب لين عيشه الهادىء الهانىء . وقالوا : «إن الشعر نكد يقوى في الشر ويضعف في الخير.» والاسلام كله خير وبركة ومن أجل ذلك لان فيه شعر حسان وضعف . وقالوا : إنه نظم شعره في مدح الرسول وهجاء المشركين وفيما يجري مجراهما من الأغراض الاسلامية المختلفة وهو شيخ هرم ؛ وانحطاط قوى الجسم يستدعي بالضرورة انحطاط قوى العقل . وأخيراً قالوا : إنه رجل مكذوب عليه وإن هناك قصائد ومقطوعات تُروى له مع أنها لا تصح عنه .! ودافع هو عن نفسه وقد قيل له : « لقد لان شعرك يا أبا الحسام » ـ وكان يكنّى بذلك أحياناً ـ فقال : « إن الاسلام يحجز عن الكذب ، والشعر يزينه الكذب . »[١] ونضيف نحن إلى هذه الملاحظات العديدة ملاحظة متواضعة . وهي أن طبيعة حسان في حد ذاتها لم تكن من الخصب والقوة بالدرجة التي يتمناها له أنصاره ومحبوه . ولسنا نقول إنه غير مجيد ، ولكننا نقول إنه يجيد في القليل ويسف في الكثير . وقد يسف مع الاقلال أيضاً . ولك أن ترجع إلى ديوانه لتتحقق ما في هذا الزعم من الوجاهة والقوة . إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن له غرراً مختارةً سما فيها خياله ولطف أسلوبه وجادت لغته إلى حد بعيد . منها قوله في مذهّبته: ـ

لعمرُ أبيكِ الخير يا شعثَ[٢] ما نبا ... عليّ لساني في الخطوبِ ولا يدي
لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلُغُ مالا يبلُغُ السيفُ مِذودي
وإن أكُ ذا مالٍ قليلٍ أجُدْ به ... وإن يهتصرْ عودي على الجَهدِ يحمد

....

(١) المفصل ج ١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ طبعة مطبعة مصر سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م

(٢) شعث : مرخم شعثاء وهي احدى زوجتي حسان اللتين طالما تغنى باسميهما وهما عمرة وشعثاء

أُكثّرُ أهلي من عيالٍ سواهمُ وأطوي على الماءِ القَراح المبرّدِ
وإني لمعطٍ ما وجدتُ وقائل لموقِدِ ناري ليلةَ الريح أوْقِدِ

وقوله في أخرى :

لنا حاضِر فَعم(1) وبادٍ كأنه شماريخُ رَضْوى عِزةً وتكرّما
متى ما تَزِنّا من مَعدٍ بعصبةٍ وغسّانَ نمنعْ حوضَنا أن يهدّما
بكل فتىً عارى الأشاجم(2) لاحَهُ قِراع الكماةِ يرشحُ المسك والدما

....

نُسوّدُ ذا المال القليل اذا بَدتْ مروءته فينا وإن كان معدما
وإنا لنَقْري الضيف إن جاء طارقًا من الشحم ما أمسى صحيحًا مُسَلّما

....

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضحا وأسيافنا يقطُرنَ من نجدة دَما
أبى فعلنا المعروفَ أن ننطِقَ الخنا وقائلنا بالعُرف إلا تكلّما

وقوله في قصيدة يهجو بها الحارث بن هشام أحد مشركي قريش ويعيره فراره يوم بدر :

إن كنتِ كاذبةَ الذي حدّثتني فنجوتِ منجى الحارثِ بن هِشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّةٍ ولجام

وقوله من أبيات :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال

---

(١) فعم : ممتلىء
(٢) الأشاجع : أصول الأصابع مفردها أشجع

ولامية حسان في آل جفنة وهمزيته التي يردّ بها على أبي سفيان بن الحرث دفاعاً عن النبي ويهجو مشركي قريش مشهورتان جداً ، ومع ذلك أحب أن أروي لك أنفس ما فيهما على سبيل الأنصاف لحسان ، قال في الأولى :

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول

وقال في الثانية يخاطب قريشاً :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء(١)
يبارين الأسنة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء(٢)
تظلّ جيادنا متمطرات(٣) تلطّمهن بالخمر النساء(٤)
فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يعين الله فيه من يشاء

(د) ومما ينبغي التنويه به في هذا المقام قدرة حسان على الارتجال. روي أن وفد تميم قدم على النبي (ص) فقال له متكلموه : إننا جئنا لنفاخرك . وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم وتكلم فقام ثابت بن قيس بن شماس وأجابه، وقام الزبرقان بن بدر وقال :

---

(١) كداء : اسم ثنية في جبل بقرب مكة دخل منها الزبير يوم الفتح
(٢) مصغيات : مائلات برؤوسهن الى فرسانهن كمن يستمع الى شيء . الأسل : الرماح
(٣) متمطرات : يسبق بعضها بعضاً
(٤) ضرب النساء وجوه الخيل بخمورهن عادة بدوية تشير الى طلب المغلوب صفح الغالب.

نحن الملوك فلا حيّ يقاربنا ... منا الملوك وفينا يؤخذ الربع(١)

تلك المكارم حزناها مقارعة ... إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

كم قد نشدنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتّبع

وننحر الكوم عبطاً في منازلنا ... للنازلين إذا ما استطعموا اشبعوا(٢)

وننصر الناس تأتينا سراتهم ... من كل أوب فتمضي ثم تتبع

فنهض حسان ورد عليه بابيات هذا أهمها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بيّنوا سنّة للناس تتّبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوّهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الرقاع ولا يوهون مارقعوا

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

أعفة ذكرت في الوحي عفّتهم ... لا يطمعون ولا يزري بهم طمع

يسمون للحرب تبدو وهي كالحة ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

....

خذ منهم ما أتوا عفواً وإن منعوا ... فلا يكن همك الأمر الذي منعوا

....

أكرم بقوم رسول الله قائدهم ... إذا تفرقت الاهواء والشيع

أهدى لهم مدحي قلب يؤازره ... فيما أراد لسان حائك صنع(٣)

---

(١) ربع الغنيمة : ما يأخذه الرئيس منها في الجاهلية

(٢) الكوم : جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام . عبط : جمع عبيط وهو الطري السمين

(٣) الأغاني ج ٤ ص ٧ـ٩ طبعة مطبعة التقدم بمصر . وللقصة بقية أهملتها لأني لم أستحسن فيها شعر حسان .

في بعض هذه الأبيات لين ظاهر ، لا أشك في أنك تحسه في طائفة منها ، وفي بعضها فضول لا مبرر له سوى النزول على حكم الوزن والقافية . من ذلك قول حسان في البيت الثاني : « وبالأمر الذي شرعوا » ، إذ المعنى تام بدون هذه الجملة ، ولك أن ترجع إلى البيتين الأول والثاني لتتأكد أن الجملة زائدة . ومنها قوله في البيت الخامس : « عند الرقاع » فمن الواضح أن مراعاة الوزن وحدها هي التي دعت إلى استعمال هاتين الكلمتين . وقوله في البيت السابع « ولا يزري بهم طمع » ففي قوله « لا يطمعون » غنى عن قوله : « ولا يزري بهم طمع » ولكن في القطعة أبيات حسنة منها : «قوم إذا حاربوا البيت» ومنها : «لا يفرحون .. البيت» ومنها : « خذ منهم .. البيت . » فاذا أضفت إلى ذلك أن الابيات قيلت ارتجالا في موقف مساجلة ومباهلة تبين لك أنها ثمرة بديهة حاضرة ونتاج قريحة سمحة . ومن الاطالة التي لا طائل تحتها أن نكرر هنا ما أشار إليه الاسكندري بايجاز في « المفصل » وشرحه البستاني باسهاب في كتابه : « أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام » من إدخال حسان ألفاظاً جديدة في الشعر ، هي الالفاظ الاسلامية ، ومن ابتداعه عنصراً جديداً هو المديح السياسي الذي نما وتطور حتى كان له شأنه في أيام بني أمية .

هـ ـ والخلاصة : أن الدور الذي لعبه حسان في الدفاع عن النبي (ص) والذود عن أعراض المسلمين ، والغرر العديدة المتناثرة في قصائده ومقطوعاته وقدرته الحسنة على الارتجال كل ذلك خليق أن يحمل مؤرخي الادب العربي ونقاده على العناية به والاهتمام باشعاره وأخباره .

الخنساء

أ — سيرتها : اسمها ولقبها ونسبها . مولدها ونشأتها . خطبة دريد بن الصمة إياها . رفضها له . أزواجها وأولادها . علاقتها بأخويها صخر ومعاوية . مقتلهما . حزنها عليهما . ما دار بينها وبين عائشة بصدد حزنها على أخيها صخر . ما قيل عن اجتماعها بالنابغة الذبياني في سوق عكاظ . إسلامها . مقتل أولادها في حرب القادسية . عطف عمر بن الخطاب عليها . وفاتها .

ب — شعرها : ديوانها . شيوع الانتحال فيه . مثل من الشعر المحمول عليها . نقد هذه المثل .

ج — ما يصح لها من الشعر . سماته . مثل منه .

د — خاتمة .

***

(أ) وهذه شاعرة لا تنتمي إلى مدرسة ذات طريقة معروفة في قرض الشعر كمدرسة زهير بن أبي سلمى أو حسان بن ثابت ، ولكنها تؤلف بمفردها مدرسة مهمة هي مدرسة الشعر العاطفي ، ذلك لأنها اختصت بالرثاء والرثاء الصادق. وأنت تعلم أن هذا الضرب من الشعر ترجمان العواطف وديوان المشاعر والانفعالات ، وشاعرتنا هذه هي الخنساء بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سليم إحدى قبائل مضر . ولدت في الجاهلية ، ومن العبث أن نحاول معرفة تاريخ ميلادها لأن أحداً لم يُعن بهذا في حينه ولا في العصور الاسلامية الأولى .

واسمها تماضر ، والخنساء لقب غلب عليها ، وهو مشتق من الخنس الذي هو

« تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، وهي صفة مستحبة أكثر ما تكون في الظباء وبقر الوحش . » وكانت شاعرتنا رائعة الأدب بارعة الجمال : رآها دريد بن الصمة الشاعر الفارس المشهور « تهنأ بعيراً » أي تطليه بالقطران وهي متبذلة ، فأحبها ، وقال فيها :

حيوا تماضر واربعوا صحبي ... وقفوا فان وقوفكم حسبي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... وأصابه تبل(١) من الحب
ما إن رأيتُ ولا سمعت به ... كاليوم طالي(٢) أينقٍ جرب
متبذلاً تبدو محاسنه ... يضع الهناء مواضع النقب(*)

ثم خطبها و كان شيخاً ، فردته لشيخوخته وآثرت الحياة مع أحد فتيان قومها على الحياة معه . وشقّ ذلك على العاشق الشيخ فهجا الفتاة بأبياتٍ أجابته بمثلها وأنت تجد الجميع في الجزء الثالث عشر من الأغاني إذا شئت . ويزعم بعض شراح ديوان الشاعرة أنها تزوجت أربع مراتٍ ، ولكن الظاهر أنها لم تتزوج سوى مرتين . وزوجها الأول هو عبد العزى أو عبدالله بن عبد العزى من بني خفاف، أما زوجها الثاني فهو مرداس بن أبي عامر السلمي ، وقد رزقت من زوجها الأول ولداً واحداً على ما يظهر ، هو عبدالله المعروف بأبي شجرة وهو فارس شاعر ، أما أولادها الأربعة الآخرون وهم يزيد ، ومعاوية ، وعمرو ، وسراقة ، وابنتها عمرة التي شهدت زواجها وهي عجوز مسنة في أيام معاوية ، فكلهم من زوجها الثاني .

و كان لها أخوان يقال إنهما كانا من أجمل فتيان زمانهما هما صخر ومعاوية

---

(١) في الشعر والشعراء طبعة مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٢ للهجرة ص ٧٣ «خبل»

(٢) في الشعر والشعراء « هانىء »

(*) الأغاني ج ١٣ ص ١٣٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

وكانت تحبهما حباً جمّاً وقد قتلا في حروب قبليّة ذكرها صاحب الأغاني بتفصيل في الجزء الثالث عشر من كتابه ، فحزنت عليهما حزناً شديداً . وكانت أشد ما تكون حزناً على صخر لأنه كان يحبها ويكبر أخلاقها ويواسيها في ماله كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

روي أن الخنساء دخلت على عائشة أم المؤمنين (رض) وعليها صدار من شعر ، فقالت لها عائشة : « أخناس ؟ » فقالت : « لبيك يا أماه » قالت : « أتلبسين الصدار وقد نهي عنه في الاسلام ؟! » فقالت : «لم أعلم بنهيه» قالت: « ما الذي بلغ بك ما أرى ؟! » قالت : « موت أخي صخر . » ثم وصفت لها ما كانت تلقى عنده من عطف ورعاية ، وشرحت السبب الذي حدا بها لاتخاذ هذا الصدار ، فقالت : «إن لصداري سبباً ، وذلك أن زوجي ـ ويقول صاحب الروائع : ولعلها تريد زوجها الأول عبدالعزى ـ كان رجلاً متلافاً للاموال ، يقامر بالقداح فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء . فأراد أن يسافر ، فقلت له : أقم وأنا آتي أخي صخراً فأسأله . فأتيته وشكوت إليه حالنا وقلة ذات يدنا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء . فعدت إليه في العام المقبل أشكو إليه حالنا فعاد لي بمثل ذلك ، فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة أو الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته ثم قالت : إن زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء . فان كان لابد من صلتها فأعطها أخسّ مالك ، فانما هو متلف والخيار فيه والشرار سيان . فأجابها بقوله :

والله لا أمنعها خيارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت خرّقت خمارها وجعلت من شعر صدارها

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه ، فلما هلك اتخذت هذا الصدار ، والله

لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييت»[١]

والمعروف أن الخنساء لقيت النابغة الذبياني في سوق عكاظ وأنشدته بعض قصائدها ففضلها على جميع من حضر الموسم من الشعراء عدا أعشى بكر . ولكننا نرفض هذه الرواية رفضاً باتاً لأنها تقول إن النابغة فضلها على من أنشده من الشعراء لقولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ونحن ننكر أن يكون هذا البيت للخنساء لما فيه من ذكر الامامة والتنويه بالهداة من الناس . ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن الجاهلية لم تكن تعرف إماماً ولا مأموماً وإنما ذلك من صنع الاسلام . أما الهداية فليست مما تصف به شاعرة جاهلية أخاها . إن الخنساء تصف صخراً بالشجاعة والجرأة وغزارة الجود . ولكنها لا تصفه مطلقاً بأنه رجل هداية وورع وتقوى وصلاح . أضف إلى ذلك أن في القصيدة أبياتاً أخرى كثيرة سأتكلم عنها في مكان آخر من هذا الفصل تدل على أنها مفتعلة منحولة .

وقدمت الخنساء على النبي (ص) في وفد سليم فأسلمت في جملة من أسلم من قومها . وكان النبي (ص) يستحسن شعرها ويكبر مواهبها . وحضرت الشاعرة حرب القادسية سنة (١٤) للهجرة ومعها أولادها يزيد ومعاوية وعمرو وسراقة، فحرضتهم على القتال أجمل تحريض ، وكان أولادها عند حسن ظنها بهم فقاتلوا حتى قتلوا . ولم يفزعها خبر قتلهم ، بل اكتفت أن عقبت عليه بقولها :

« الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[٢] »

---

(١) أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ص ٢٠ — ٢١ طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١ ـ ٢٢ .

وفي هذا ما فيه من الدلالة على رباطة جأش الشاعرة وقوة إيمانها . وعرف لها الخليفة عمر هذا فأجرى عليها أرزاق أولادها الأربعة مدة حياته .

وتوفيت الشاعرة بالبادية في خلافة معاوية ، ولا سبيل إلى معرفة تاريخ وفاتها بالضبط ، كما أنه لا سبيل إلى معرفة تاريخ ولادتها بصورة من الصور .

(ب) شعرها : للخنساء ديوان عني به الشراح القدماء وطبع مراراً عديدة في بيروت ومصر وأوروبا ، ولكنك لا تمعن النظر في هذا الديوان حتى تدرك أنه يحتوي على قصائد ومقطوعات كثيرة لا يكاد يصح منها شيء . فليس من شك أن الرائية التي مطلعها :

قذىً بعينك أم بالعين عوّار   أم ذرّفت إذ خلت من أهلها الدار

والتي زعموا أنها حدت بالنابغة الذبياني إلى تفضيل الخنساء على كل من حضر الموسم من الشعراء ، مكذوبة منحولة ، ليس فقط لاشتمالها على البيت الذي تقدم نقده في أثناء الكلام عن حياة الخنساء وهو : « وإن صخراً لتأتم الهداة به ... الخ » بل لاشتمالها على كلام بالغ منتهى السخف مثل هذا البيت :

كأن دمعي لذكراه إذا خطرت   فيض يسيل على الخدين مدرار

فمن الواضح أن كل مافي هذا البيت هو تشبيه دمعة تفيض بدمعة تفيض . ولاشتمالها على كلام متكلف كل التكلف مثل هذه الأبيات :

وما عجول على بوّ تطيف به   لها حنينان إصغار وإكبار (١)

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت   فإنما هي إقبال وإدبار

لاتسمن الدهر في أرض وإن ربعت   فإنما هي تحنان وتسجار (٢)

---

(١) العجول : التي يموت ولدها وهو صغير : البو : ولد الناقة يؤخذ جلده اذا هلك فيحشى ويدنى من أمه فترأمه وتدر عليه .

(٢) ربعت : أصابها مطر الربيع . التسجار : الحنين الممتد الطويل .

يوماً بأوجد مني يوم فارقني   صخر وللدهر إحلاء وإمرار

فما أظنك توافق على أن شاعرة بدوية ثاكلة تعمل رويتها في إعداد هذه المطابقات المتعاقبة . ثم ما معنى الاصغار والاكبار في الحنين ؟! . أهناك حنين صغير وحنين كبير ؟!.. ألهذا التعبير المفتعل نظير في الأدب العربي ؟!.. وليس من شك في أن اللامية التي مطلعها :

ألا ما لعيني ! ألا ما لها !   وقد أخضل الدمع سربالها

مفتعلة مكذوبة كذلك ، لأنها تشتمل على إيطاء لا نظير له في القريض العربي ، وهو تكرر قافية واحدة في ستة أبيات تبدأ بالبيت الخامس وتنتهي بالبيت الحادي عشر ، هذا فضلاً عن تكرر هذه القافية وهي كلمة « لها » خمس مرات أخرى في القصيدة ، ولأنها تشتمل على كلام إسلامي لا غبار عليه مثل هذين البيتين :

فخرّ الشوامخ من قتله   وزلزلت الأرض زلزالها

وزال الكواكب من فقده   وجللت الشمس أجلالها(١)

ولأنها تشتمل على كلام لا معنى له مطلقاً مثل هذا البيت :

فنفسي الفداء له من فقيد   (أبت أن تزايل إعوالها)

وهذا البيت :

ويوماً تراه على لذةٍ   وعيش رخيّ (فقد نالها)

فمما لا شك فيه أن معنى البيت الأول ينتهي بانتهاء الصدر ولا محلّ لتأويل العجز بوجهٍ من الوجوه وأن معنى البيت الثاني ينتهي بجملة « عيش رخي » و « فقد نالها » جملة زائدة غير مفهومة . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى

---

(١) ينبغي أن يلاحظ أن هذين البيتين ، علاوة على أنهما اسلاميان من حيث لغتهما وخيالهما ، سخيفان الى درجة لا يمكن معها صدورهما عن شاعرة كالخنساء .

كثيرة من الشعر المفتعل المحمول على الخنساء . ولكننا نكتفي بما تقدم رغبة في الايجاز .

(ج) ولكن أليس لصاحبة الترجمة شعر يمكن قبوله وإقراره على أنه من صنع شاعرة شهدت العصر الجاهلي وبرّزت فيه وشهدت صدر الاسلام وبرّزت فيه كذلك !؟

بلى ، إن لها لطائفة من القصائد والمقطوعات لا يكاد يتطرق إليها الشك . وتمتاز هذه القصائد وتلك المقطوعات بسمات عديدة،هي قوة العاطفة ودقة الوصف وجلاء التعبير وصفاء الديباجة . مثال ذلك هذه الأبيات التي أقتطفها لك من سينيتها الشهيرة التي ترثي بها أخاها صخراً .

يذكرني طلوع الشمس صخراً — وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي — على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولاً — وباكية تنوح ليوم نحس
أراها والهاً تبكي أخاها — عشية رزئه أو غبّ أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن — أعزّي النفس عنه بالتأسي
فلا والله لا أنساك حتى — أفارق مهجتي ويشق رمسي
فقد ودعت يوم فراق صخر — ، أبي حسان ، لذّاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهف أمي — أيصبح في الضريح وفيه يمسي !؟

وهذه الأبيات التي تصف بها مسابقة بين أبيها وأخيها صخر :

جارى أباه فأقبلا وهما — يتعاوران ملاءة الفخر (١)
حتى إذا نزت القلوب وقد — لزّت هناك العذر بالعذر (٢)

---

(١) الملاءة : الريطة ، يتعاورانها : يتجاذبانها . والمراد بملاءة الفخر غبار الحلبة .

(٢) العذر : جمع عذار،وهو هنا ما سال على خد الفرس من اللجام . ولزت العذر : احتك بعضها ببعض .

وعلا هتاف الناس: «أيهما؟» قال المجيب هناك: «لا أدري!»
برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجري
أولى، فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر
وهما كأنهما، وقد برزا، صقران قد حطا على وكر

فما أشك في أنك تحس في المثال الأول حرارة الألم ومرارة الثكل وجيشان الزفير وهملان الدموع السخينة، وما أشك كذلك في أن المثال الثاني يرسم لك صورة صادقة لحلبة يتبارى فيها فارسان سبّاقان لا يكاد أحدهما يسبق الآخر ويزدحم حولها جمهور كبير من المتفرجين تشخص أبصارهم وتشرئب أعناقهم نحو المتسابقين وتعلو أصواتهم بالهتاف كلما تقدم أحدهما نحو الغاية. وللشاعرة صفحات أخرى عديدة من هذا القبيل ولكن فيما سبق كفاية.

(د) على أن ما يصح من شعر الخنساء لا ينبغي أن يهمنا من حيث هو شعر فقط، بل ومن حيث هو شعر امرأة، لأنه يعطينا فكرة صحيحة ناصعة عن تقدم المرأة العربية في نهاية العصر الجاهلي وبداية القرن الأول للهجرة، وعن الدور الذي كانت تلعبه إذ ذاك على مسرح الحياة العقلية.

الباب الثالث

الشعر السياسي في العصر الأموي

تمهيد

أنتقل بك الآن إلى العصر الأموي، وهو عبارة عن الفترة التي تبدأ بتنازل الحسن بن علي سنة إحدى وأربعين للهجرة عن الخلافة لمعاوية وتنتهي بانتزاع العباسيين مقاليد الملك والخلافة من أيدي بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومئة للهجرة.

وقد قلت لك إني أقسم شعر هذا العصر أقساماً ثلاثة، هي: الشعر السياسي، والشعر العاطفي، والشعر التقليدي. فأحدثك الآن عن كل قسم من هذه الأقسام على حدة، وأبدأ بالشعر السياسي لأنه أكبر هذه الأقسام شأناً وأبعدها أثراً في الحياة العقلية وأشدها صلة بتاريخ المجموع.

كان العصر الأموي عصر نزاع وصراع تعددت فيه الأحزاب وتشعبت الفرق، فكان الأمويون، وهم أصحاب السلطان يدافعون عنه ويجاهدون في سبيل استبقائه فيهم واستخلاصه لهم. وكان العلويون وهم أبناء النبي وآله الأقربون، وكانوا يرون أنهم ورثة خلافته وحكام أمته الشرعيون لأنهم أمس الناس به رحماً وأصلحهم للقيام على تنفيذ سننه وتأييد مبادئه وتعاليمه. وكان الزبيريون، وهم آل الزبير بن العوام حواري رسول الله (ص) وابن عمته وأحد رجال الشورى الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفة للمسلمين من بينهم، وكانوا يذهبون إلى أن الخلافة يجب أن تبقى في قريش عامة وفي أيدي الأكفاء منها خاصة، وكانوا يرون بالطبع أنهم أهل هذه الكفاءة. وكان الخوارج وهم فئة من جيش الامام علي (ع) كانت تعتقد أنه إمام حق ولكنها انشقت عليه بعد التحكيم لأنها اتهمته بالتقصير في أداء واجباته من حيث هو إمام للمسلمين وذلك بقبوله التحكيم في أدق مسألة دينية ألا وهي مسألة الخلافة. وكان لكل

حزب من هذه الأحزاب خطباء وشعراء يعبرون عن آرائه ويدعون إلى اعتناق مبادئه وتعاليمه .

وقد حدثتك فيما سبق عن خطباء هذه الأحزاب ، وسأحدثك الآن عن شعرائها . ولكني سأكتفي بدراسة كبير شعراء كل حزب لا رغبة في الايجاز ولكن هذا هو كل ما يقتضيه المقام فيما أحسب . ثم إني لا أريد أن أدرس في هذا المكان شاعراً من شعراء بني أمية ، ذلك لأن الشعراء الذين مدحوهم وانقطعوا لهم كأعشى ربيعة ونصيب وأبي العباس الأعمى لم يكونوا شعراء مبادىء وإنما كانوا مداحين متكسبين ، ومديحهم لبني أمية أو ما وصلنا منه لا يقاس بمديح جرير والفرزدق والأخطل لهم نوعاً ولا كمّاً . وأنا ملمّ بمديح هؤلاء الشعراء الثلاثة ومديح كثيّر عزة أيضاً للبيت الأموي في باب آخر من هذا الكتاب ومتحدث عنه ، ولذلك أرى أن أكتفي بدرس هذا القسم من مديح بني أمية .

أما الآن،فموضوعنا حياة شاعر الخوارج الأكبر:عمران بن حطان وشعره .

✡

✡ ✡

شعراء الخوارج

عمران بن حطان

(أ) نشأته وحياته . وفاته .

(ب) شعره : مميزاته . مثل منه .

* * *

(أ) أطول شعراء الخوارج باعًا وأجودهم شعراً على قلة ما روي له من الشعر عمران بن حطان ، وهو من سدوس . نشأ في البصرة ورحل إلى الحجاز ، وأخذ الفقه والحديث عن عائشة وابن عباس وابن عمر وأبي موسى الاشعري . وكان فقيهًا ثبتًا ومحدثًا ثقة . وقضى معظم أيام حياته على مذهب الجماعة ، إلا أنه تزوج امرأة خارجية تمتّ إليه بصلة القربى رغبةً منه في أن يردها إلى مذهب الجماعة ، فانعكست الآية وحملته هي على الخروج من مذهبه والدخول في مذهب الشراة[1] . وكان عند اعتناقه هذا المذهب شيخًا ، فاكتفى بالدعوة إلى التشري ، ولم يخرج بالسيف طلبًا لاصلاح ما فسد من أمور الناس كما هو شأن الخوارج في الغالب . فولاه القعدة من الصفرية زعامتهم لمكانه من الفقه والحديث والخطابة والشعر وغير ذلك من مؤهلات الزعامة عندهم . « والقعدة الصفرية فرقة من الخوارج تجيز القعود عن الجهاد في سبيل الله إذا لم يكن هذا ميسوراً ، زعيمها ومؤسس

(١) الشراة : م الخوارج سموا أنفسهم بهذا الاسم لزعمهم أنهم « شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله . »

مذهبها زياد بن الأصفر » . وضاق الحجاج ذرعاً بخارجية عمران فطارده وجدّ في مطاردته ، ورأى عمران أن لا أمل له بالبقاء هادئاً مطمئناً في بلد يسيطر عليه الحجاج . فترك العراق إلى سورية ، وصار يتنقل في مدنها وقراها مستتراً وراء الأسماء والانساب المستعارة،ولكن الحجاج تتبعه وهو في سورية فكتب إلى عبد الملك بن مروان يعلمه خبره ويصف له صورته فاهتم عبد الملك بالأمر وأهدر دم عمران . وحدث أن نزل هذا على روح بن زنباع الجذامي وكان هذا رجلاً كريم الطبع رضي الخلق ، فاطمأن عمران لجواره وأقام في كنفه سنة كاملة مدعياً أنه أزدي ، وكان روح من مقرّبي عبد الملك وسماره ، فوصف له فقه جاره الأزدي وزهده وورعه وعلمه وأدبه . وعرفه عبدالملك ، فقال لروح : هذا هو عمران بن حطان ، فأتني به . وأبلغ روح جاره رغبة سيده فتظاهر بالسرور وقال له : لقد كنت أريد أن أطلب منك هذا،ولكن الحياء منعني منه ، فاذهب ، وأنا آتٍ بالأثر . وذهب روح إلى عبد الملك ، وذكر له سرور جاره بمقابلته واستعداده للحاق به في الحال ، فقال له عبد الملك : سوف لا تجده في مكانه إذا رجعت فقد فاتك . وصدقت فراسة عبد الملك ، فقد أسرع عمران إلى الهرب وترك لروح أبياتاً يعتذر فيها عن مفارقته إياه ، سأرويها في مكان آخر من هذا الفصل . واتجه إلى الجزيرة ، فنزل على زفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا وانتسب له أوزاعياً ، فأكرمه زفر وأحسن جواره . وحدث أن رجلاً من أهل الشام ، كان قد رأى عمران عند روح ، قدم على زفر . فلما رأى عمران سلّم عليه وهشّ له . فقال له زفر : أتعرفه ؟ قال : « نعم ، هذا شيخ من الأزد » . فقال زفر لعمران : « يوماً أوزاعياً ، ويوماً أزدياً ؟ ! إن كنت عائلاً أغنيناك وإن كنت خائفاً آويناك . » فأجابه عمران : « إن الله هو المغني . » ورحل عنه. وله في هذا أبيات أولها :

إن التي أصبحت يعيي بها زفر ... عيّت عياء على روح بن زنباع

وفي الأبيات ثناء طيب على عشرة روح وجواره . وقصد الشاعر عمان ، وهناك وجد قوماً يرون رأيه ويذهبون مذهبه . فكشف النقاب عن حقيقته وحسنت حاله بعض الشيء . ولكن ما لبث الحجاج أن علم بمكانه ، فجد في مطاردته ، وعاد إلى الاختفاء ، فأتى قرية من قرى الكوفة اسمها روذميسان ، قضى فيها آخر أيام حياته بين جماعة من الأزد حمد عشرتهم وأثنى عليهم في أبيات سأروي بعضها لك في المختار من شعره . وكانت وفاته عام ٨٤ للهجرة وقيل ٨٩ والأول أصح .

(ب) شعره : ما بلغنا من شعر عمران قليل جداً ، وليس من المستبعد أن يكون من المقلين لأنه صاحب فقه وحديث وورع ، وهذا كله مما يدعو للانصراف عن الشعر ويحد من الاقبال عليه . ولكن الذي يغلب على ظننا هو أن أكثر شعره قد ضاع أو أتلف عمداً لمخالفته مذهب الجماعة وطعنه على أئمة المسلمين وفي مقدمتهم عثمان وعلي . إلا أن ما بقي من شعره يمثل مذهبه في قرض الشعر تمثيلاً تاماً ، كما أنه يصور شاعريته تصويراً صادقاً ، إذ تمتاز هذه البقية الباقية من شعره بالصدق وأصالة التفكير من جهة ، وبالمتانة وجزالة التعبير من جهة أخرى فقد كان عمران يتوخى الصدق ويؤثر تقرير الحقيقة في شعره ويمقت الكذب أشد المقت ، وكان هذا معروفاً عنه ، حتى لقد انتقدت زوجته قوله :

« وكذاك مجزأة بن ثو — ر كان أشجع من أسامه »

وقالت له : كيف تفضل رجلاً على أسد من حيث الشجاعة وشدة البأس وأنت تؤثر الصدق ولا تقول غير الحق ؟ ! فقال لها : إن مجزأة فتح بلدة ، والأسد لا يفتح بلدة . ويروى أنه وقف على الفرزدق وهو ينشد في جمع من الناس ، فقال له :

أيها المادح العباد ليعطى — إن لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسّم العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمّ البخيل باسم الجواد

ويروى أن هذه الأبيات للسيد الحميري قالها لبشار ، ولكنها منسجمة ورأي عمران في الشعر ومتفقة ونزعته فيه كل الاتفاق . وفيما يلي طائفة يسيرة من شعره تحس فيها صدقه وتلمس إخلاصه . قال في زوجته حمزة :

ياحمز إني على ما كان من خلقي ... مثن بخلّات صدق ٍ كلها فيك
الله يعلم أني لم أقل كذباً ... فيما علمت وأني لا أزكّيك

وقال في وداع روح :

يا روح كم من أخي مثوىً نزلت به ... قد ظن ظنك من لخم وغسّان
حتى إذا خفته فارقت منزله ... من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت ضيفك حولاً لا تروّعني ... فيه الطوارق من إنس ٍ ومن جان
حتى أردت بي العظمى فأدركني ... ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع ٍ فان له ... في الحادثات هنات ٍ ذات ألوان
يوماً يمان ٍ إذا لاقيت ذا يمن ٍ ... وإن لقيت معدّياً فعدناني
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدم في سرّي وإعلاني
لكن أبت ذاك آيات مطهرة ... عند التلاوة في طه وعمران

وقال يثني على مضيفيه الذين لفظ أنفاسه الأخيرة عندهم من الأزد :

نزلنا بحمد الله في خير منزل ... نسربنا فيه من الانس والخفر
نزلنا بقوم يجمع الله شملهم ... وليس لهم عود سوى المجد يعتصر
من الازد، إن الازد أكرم أسرة ... يمانية طابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر ... أتوني فقالوا: من ربيعة أو مضر،
أم الحي قحطان ؟ فتلكم سفاهة، ... كما قال لي روح وصاحبه زفر

وما منهم إلا يسر بنسبة ٍ تقربني منـــه وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

***

فليس من شك في أن المثـال الأول يدل على تحرج عمران وتحفظه حتى في إطراء زوجته ، وليس من شك كذلك في أن المثالين الثاني والثالث يصوّران أصدق تصوير حياته القلقة المضطربة التي قضاها خلال تسعة أعوام متنقلا من حي إلى حي ومن مصر إلى آخر . هذا إلى أن المثال الثالث يشير بوضوح إلى قول عمران بالغـاء الفروق بين الناس وبأن المسـاواة هي المبدأ الذي يجب أن يسود في الأرض :

« فنحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر »

(١) بين الأغاني وكامل المبرد خلاف في رواية المثالين الثاني والثالث وقد اخترت من رواية الـكتابين ما بدالي أنه الصواب . ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن بيت عمران « فنحن بنو الاسلام ... البيت » مأخوذ من قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم . »

الفصل الثاني

شعراء آل الزبير

عبيد الله بن قيس الرقيات

— o —

(أ) تناقض أخباره . ما يستنتج منها على العموم .

(ب) شعره . مثل منه .

***

(أ) أما آل الزبير فأكبر من دعا لهم ودافع عنهم ونوّه بدولتهم من الشعراء عبيدالله بن قيس الرقيّات، وهو شاعر قرشي مقدم، عرف بالرقيات لأنه تغزل بثلاث نسوة تدعى كل منهن رقية . ومن الغريب أن كتب الأدب لا تشير إلى مولده ولا وفاته بشيء . وقد عبث الرواة بأخباره عبثاً شديداً وعبثوا بشعره عبثاً شديداً كذلك ، ولك أن تقرأ هـذه الأخبار المتناقضة التي رواها أبو الفرج الاصبهاني في الجزء الرابع من الأغاني والتي تتعلق باختفائه بعـد قتل مصعب والتجائه لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وشفاعة هذا له عند عبدالملك بن مروان وعفو الأخير عنه لتتبين مبلغ ما حمل الرواة عليه من أكاذيب وأساطير . أما عبثهم بشعره فيكفي للدلالة عليه هذه الهمزية التي مطلعها : « أقفرت بعد عبد شمس كداء ... الخ » فان هذه القصيدة أموية شديدة الميل إلى بني أمية في أولها ، زبيرية شديدة الميل إلى آل الزبير في مكان آخر منها ، علوية شديدة الميل إلى آل علي في مكان آخر . وهاك مثلاً من القصيدة يمثل كل منها نزعة من هذه النزعات المتناقضة المتضاربة . فما يمثل عطف القصيدة على الأمويين هذان البيتان :

أقفرت بعد عبد شمس كداء ... فكديّ فالركن فالبطحاء
فمنى فالجمار من عبد شمس ... مقفرات فبلدح فحراء

ومما يمثل ميلها إلى آل الزبير ومناصبتها العداء لبنى أمية هذه الأبيات :

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت كلا ولا كبرياء[١]
كيف نومي على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن براها العقيلة العذراء[٢]

ومما يمثل عطفها على العلويين ونقمتها على بني أمية أيضاً هذان البيتان :

أنا عنكم بني أمية مزور ... وأنتم في نفسي الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني ... كان منكم لئن قتلتم شفاء

فواضح أن المثال الأول يشف عن عطف ظاهر على بني أمية ، وأن المثال الثاني يعرب عن نزعة زبيرية لا تقبل الجدل ، وأن المثال الثالث دمعة حارة على قتلى الطف من آل علي . ولست أدري كيف رويت هذه القصيدة الأموية الزبيرية العلوية على أنها من نظم هذا الشاعر الزبيري دون أن يفطن أحد إلى ما فيها من تناقض وتباين ودون أن يفطن أحد كذلك إلى استحالة اتحاد هذه النزعات والأغراض المختلفة في نفس شاعر واحد . وأغرب من هذا أن الأستاذ أحمد الشايب روى كل ما تقدم منها في كتابه « تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني » المطبوع بمطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٤٥ دون أن ينتبه الى ما في هذه الأبيات من تباين وتناقض .

---

(١) يختلف الرواة في بعض ألفاظ هذا البيت وقد آثرت أفضل الروايات.
(٢) البراة : جمع برة وهي الخلخال .

ومع ذلك يخيل إليّ أنه من الممكن أن نخرج من أخبار ابن قيس الرقيات هذا بخلاصة يمكن الاطمئنان إليها بعض الشيء ، فنحن نستطيع أن نقرر أنه كان زبيري الهوى وأنه خرج مع مصعب بن الزبير إلى العراق وبقي معه إلى أن قتل، وأنه اختفى بعد قتل مصعب مدة من الزمن جد في أثنائها رجال عبد الملك في طلبه والبحث عنه ، وأنه لجأ بعد هذا الاختفاء إلى عبدالله بن جعفر ورجاه أن يشفع له عند عبد الملك فشفع له وقبلت شفاعته . ونستطيع كذلك أن نقرر أنه اتصل بعد عفو عبد الملك عنه ببني أمية اتصالاً وثيقاً حتى أنه تدخل في مسألة ولاية العهد ، وعندما أراد عبدالملك بن مروان أن ينحي أخاه عبدالعزيز عن ولاية العهد ويحل ابنه الوليد محله كان ابن قيس الرقيات في جانب عبد العزيز وبلغ خبره عبدالملك فغضب وتوعده .

(ب) أما شعره فانه مطبوع لطيف الديباجة رقيق الحاشية أروي لك منه هذه الأبيات في مديح مصعب بن الزَبير :

على بيعة الاسلام بايعن مصعباً　　　كراديس من خيل وجمعاً مباركا
تدارك أخرانا ويمضي أمامنا　　　وتتبع ميمون النقيبة ناسكا
إذا فرغت أظفاره من كتيبة　　　أمال على أخرى السيوف البواتكا

وهذين البيتين في مديح أخيه عبدالله :

وابن أسماء خير من مسح الركن فعالاً　　　وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريش　　　كنت أنت الفتى وكنت الهجانا

ولكنني قد لا أخطيء إذا قلت لك إن مديحه لبني أمية أنقى ديباجة وأمتن أسلوباً من مدحه لآل الزبير ، اسمع قوله في قصيدته التي يعتذر بها إلى عبد الملك ويلتمس صفحه :

ما نقموا من بني أمية إلا　　　أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك فما تصلح إلى عليهم العرب
إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب
خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقل مثل ذلك عن مديحه لعبد الله بن جعفر ، اسمع منه هذين البيتين :

إذا زرت عبدالله نفسي فداؤه رجعت بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظاً ولم يك عني في المغيب بغافل

أما غزله فانه رقيق ، إلا أنه غير أصيل ، أقتطف لك منه هذه الابيات:

حب ذاك الدل والغنج والتي في عينها دعج
والتي إن حدثت كذبت والتي في وعدها خلج
وترى في البيت صورتها مثل مافي البيعة السرج
خبروني هل على رجل عاشق في قبلة حرج ؟!

الفصل الثالث

شعراء آل علي

الكميت بن زيد

(أ) حياته : نسبه وكنيته . مولده . نشأته وثقافته . تشيعه . رضا أهل البيت عنه . بعض أخباره معهم . صلته بخالد بن عبدالله القسري . تنكر هذا له بسبب هجائه اليمن . وشايته به إلى هشام بن عبد الملك . أمر هشام بقتله . سجنه . هربه . التجاؤه إلى بني أمية . صفح هشام عنه . عودته ظافراً إلى الكوفة . موقف أهل البيت الأخير منه . وفاته .

(ب) صفاته : ما يقوله القدماء عنها . صراحته . رحابة صدره . حسن حيلته .

(ج) شعره : ما وصلنا منه . الهاشميات : أغراضها . لغتها وأسلوبها. خلاصة رأي الكميت في الدين والسياسة . موقفه من أبي بكر وعمر . موقفه من بني أمية . مثل من شعره .

(د) خاتمة .

***

بين شعراء القرن الأول للهجرة عدد كبير تشيع لآل عليّ ونوه بفضلهم وتمنى قيام دولتهم، منهم أبو الأسود الدؤلي وأيمن بن خريم وكثيّر عزة والكميت بن زيد ، ولكن النزعة السياسية لم تغلب على شعر أحد منهم سوى الكميت . فأبو الأسود الدؤلي على صحبته للامام عليّ عليه السلام وعظم منزلته عنده لم يترك لنا في مدح العلويين سوى أبيات قليلة . ولم يكن ما وصلنا من مدح أيمن بن خريم

لهم أكثر مما وصلنا من مدح أبي الأسود . أما كثيّر عزّة فقد غلب عليه الغزل بصاحبته عزة والمديح لآل مروان الذين كان يعاديهم في السر ويواليهم ويمدحهم في العلانية طمعاً بالمال . ولست أنفي أن يكون قد قال الشعر في آل علي ولكني أنفي أن يكون شعره فيهم خليقاً بالدرس نظراً لتفاهته وقلته . ومن أجل هذا رأيت أن لا أدرسه على أنه شاعر من شعراء هذا الحزب[1] وعلى هذا لا يبقى في قائمة الشعراء المتشيّعين لآل عليّ شاعر ينبغي التحدث عنه في هذا المقام سوى الكميت بن زيد فالى الحديث عنه :

(أ) وهو الكميت[2] بن زيد، من أسد إحدى قبائل مضر، وكنيته أبو المستهل . ولد سنة ستين للهجرة في الكوفة ، وبها نشأ وقرض الشعر ودرس أنساب العرب وأخبارهم وأيامهم وأشعارهم ، فكان ثقة في هذا كله . والمعروف أنه أخذ علمه عن جدتين له كانتا تعرفان الجاهلية وأهلها وأيامها وأخبارها معرفة واسعة. وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب ، لأن المرأة العربية في ذلك العهد من اليقظة والدراية بحيث تستطيع أن تلعب مثل هذا الدور . ومهما يكن من شيء فان مؤرخي الأدب العربي القديم مجمعون على أنه حجة في النسب واللغة ورواية الشعر. ومما يستدلون به على هذا أنه تساجل مع حماد الراوية ذات يوم في مسجد الكوفة فأفحمه وظهر عليه .

وكان علويّ الرأي كعامة قبيلته وكعامة سكان مدينته الكوفة ، وقد نافح عن عقيدته الدينية السياسية بشعره فنظم فيها طائفة من القصائد والمقطوعات تسمى

(١) في زعمي أن كثير عزة شاعر تقليدي وسأدرسه عند الكلام عن الشعر التقليدي على أنه من فحوله وأعلامه .

(٢) الكميت بن زيد ثالث شعراء ثلاثة كلهم يدعى الكميت ، وكلهم من بني أسد ، وهم الكميت بن ثعلبة المعروف بالأكبر ، والكميت بن معروف بن الكميت الأكبر ، وصاحب الترجمة .

(الهاشميات) هي كل ما نعنى به من آثاره . وكان أهل البيت يقدرون موقفه منهم حق قدره ويعرفون له فضله في الدفاع عنهم والتنويه بهم .

روي أنه دخل على الامام محمد الباقر عليه السلام فأمر له بألف دينار وكسوة،فقال له الكميت : « والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ، ولكني أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله » فرده وقبل الثياب .(١)

وروي أنه دخل على الامام جعفر الصادق رضوان الله عليه وأنشده إحدى هاشمياته ، فلما فرغ قال الامام : « اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخّر وما أسرّ وما أعلن وأعطه حتى يرضى . »(٢)

ودخل على فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام ، فقالت : « هذا شاعرنا أهل البيت ! » وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها وسقت الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب فهملت عيناه وقال : « لا والله ، لا أقبلها . إني لم أحبكم للدنيا .(٣) » . وهناك أخبار أخرى تنطق برضى أهل البيت عن الكميت وارتياحهم لما قال فيهم من الشعر ضربنا عنها صفحاً رغبة في الايجاز .

وكان بنو أمية يجهلون أمره ولا يعرفون شيئاً عن هجائه أو من هجائه لهم حتى اضطره حكيم بن عياش الكلبي ، وهو شاعر يمني متعصب ، بهجائه المقذع لمضر إلى نظم مذهبته التي مطلعها « ألا حييت عنا يا مدينا .. الخ » والتي يهجو فيها اليمن كلها وفي جملتها قبيلة خالد بن عبدالله القسري والي العراق الذي كان يميل قبل هذا التأريخ إلى اصطناعه واسترضائه . فعندها غضب خالد لنفسه

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه

ولقومه وعوّل على الانتقام من الكميت فروّى هاشمياته جارية حسناء أهداها إلى هشام بن عبدالملك ، وما كادت هذه تغني الخليفة الأموي هاشميات الكميت حتى غضب أشد الغضب وكتب إلى خالد يأمره بقطع يد الكميت ولسانه . ولم يكن خالد ليتردد في تنفيذ هذا الأمر ، فسجن الشاعر تمهيداً لتنفيذه فيه ، ولكنه تماهل لسبب لا نعرفه في التنفيذ ، فأتاح للشاعر فرصة الخروج من سجنه متنكراً بزي زوجته التي اتفق معها على أن تسهّل له الفرار بهذه الطريقة . ولبث صاحبنا مختفياً في الكوفة مدة من الزمن حتى إذا يئس منه خالد وأعوانه قصد إلى الشام وأعانه من فيها من بني أسد على الوصول إلى عنبسة بن سعيد بن العاص كبير الأمويين إذ ذاك وطلب معونته في التماس صفح هشام بن عبد الملك ، فشفع له عنبسة عند مسلمة بن هشام ورجاه أن يلتمس له صفح أبيه فكان ما أراد . ومثل الكميت بين يدي هشام ، فقرّعه على هجائه بني أمية ومدحه الهاشميين تقريعاً شديداً ، فاستغفر الشاعر مما سلف نظماً ونثراً ، ومن مشهور شعره في هذا المقام قوله :

فالآن صرت إلى أميـة والأمور إلى مصائر
كم قال قائلكم لعاً لك عند عثرته لعاثر
وغفرتم لذوي الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبني أميـة إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل ملمـة وعشيرتي دون العشائر

وانتهى هذا الموقف إلى صفح الخليفة عن الشاعر ، بل إلى الكتابة إلى خالد بن عبد الله القسري بناء على رغبة الكميت طبعاً أن لا سلطان له على الكميت منذ الآن . وفرح من في الشام من مضر بالعفو عن الكميت وجمعوا له مالاً كثيراً وأجازه هشام جائزة سنية ، فعاد إلى أهله بالكوفة آمناً موفور

الكرامة كثير المال، ولكن ينبغي أن يلاحظ أن معظم الحوادث التي تتصل بمحنة الكميت هذه وما انتهت إليه من عفو هشام عنه مروي بصور مختلفة وطرق متعددة . وأبو الفرج يروي هذه الأخبار المتناقضة المتضاربة كلها في الجزء الخامس عشر من كتابه «الأغاني». ولكن يخيل إليّ أن لباب هذه الأخبار وهو غضب هشام على الكميت بسبب الهاشميات وعفوه عنه بفضل شفاعة أموي كبير ورجوعه إلى أهله آمناً موفور الكرامة والمال أمر لا شك فيه .

وتسألني عن موقف أهل البيت من الكميت بعد هذه الحادثة فأقول لك إنهم أجازوا عمله ورضوا عن تصرفه ولم يروا في مدحه بني أمية خروجاً عليهم أو إساءة لهم .

وذهب الكميت ضحية مغامراته السياسية الأدبية ، ذلك أنه مدح يوسف بن عمر خليفة خالد بن عبدالله القسري على العراق ، وعرّض بهذا الأخير ، فغضب الجنود القائمون بين يدي الوالي الجديد وكانوا من اليمانية وتخبطوه بسيوفهم فمات ، وكان هذا سنة ١٢٦ للهجرة . ولفظ الكميت أنفاسه وهو يقول : «اللهم آل محمد» يكررها ثلاثاً .

(ب) صفاته : يقول صاحب الأغاني في روايته عن ابن كناسة إن الكميت كان طويلاً أصمّ سيء الصوت رديء الانشاد ، ولذلك كان يأمر ولده المستهل أن ينشد شعره نيابة عنه[1] . وأنا أضيف إلى هذا أنه كان صريحاً رحب الصدر واسع الحيلة . وليس أدل على صراحته من أنه يعلن ولاءه لأهل البيت بمنتهى الحماسة والشدة ولكنه يقرر في نفس الوقت أنه لم يكن مع هذا على استعداد لاراقة دمه في سبيلهم .

تجود لهم نفسي بما دون وثبة   تظل بها الغربان حولي تحجل

---

(١) الاغاني ج ١٥ ص ١٢٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر

ويمضي في شرح هـذا الاعتراف المكشوف وتفصيله فيقول لنا : إنه يحاور نفسه في هذا الصدد ويحاول إقناعها بنصرة أهل البيت نصراً فعلياً ، ولـكنها تأبى عليه ذلك وتعلله وتضلله وتغريه بالأماني والآمال حتى تحمله على العدول عن هذه الفـكرة .

إذا سمت نفسي نصرهم وتطلّعت إلى بعض ما فيه الذعاف المثمّل[1]
وقلت لها بيعي من العيش فانياً بباقٍ أعزيها مراراً وأعذل
أتتني بتعليل ومنتني المنى وقـد يقبل الأمنيـة المتعلل

أما رحابة صدره فحسبنا برهاناً عليها هذه الصداقة المتينة العرى التي تجمع بينه وبين الطرمّاح بن حكيم رغم جميع الفوارق الدينية والسياسية والاجتماعية التي تفصل بينهما بل التي تـكفي أن تخلق من أحدهما عدواً للآخر . فهو شيعي والطرماح خارجي ، وهو كوفي والطرماح شامي ، وهو مضري والطرماح يمني . وقـد سئلا عما يجمع بينهما رغم هـذه الفوارق فأجابا : « بغض العامـة . » وأحسب أن الأدب هو الذي ألف بينهما وقرّب أحدهما من الآخر : فقد كان الـكميت معجباً بالطرماح إعجاباً حدا به للتعقيب على قوله :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

بقوله : « إي والله ، وعنان الخطابة والرواية » .

وهناك أمثلة عديدة لحسن حيلة الـكميت أهمها فيما أظن ما حدث له مع حكيم بن عياش الـكلبي أحد شعراء بني أمية . وكان هذا يهاجيه ففخر عليه الـكميت في بعض قصائده ببني أمية ـ ورأيه فيهم معلوم ـ فسأله ولده المستهل عن هذا فقال له ما مضمونه : إن فخري عليه ببني أمية صفقة رابحة على كل حال ، لأنه إن اعترض على هذا الفخر قتلوه ، وإن سلّم به قتلته أنا غماً وكمداً . ولو أني فخرت

(١) المثمل : الناقع .

عليه بعليّ بن أبي طالب لبادر إلى سبه ولنفعه هذا عند بني أمية وزاده قرباً منهم.

(ج) شعره: كان شعر الكميت عند موته نحواً من خمسة آلاف بيت فيما يعتقد صاحب الأغاني لم يصلنا منه سوى خمسه. ويكاد مؤرخو الأدب القدماء والمحدثون يجمعون على أن الهاشميات صفوة شعر الرجل ولبابه. ولكننا إذا درسنا هذه المجموعة من شعره رأينا أنها لسوء الحظ غير جيّدة على الأكثر. ذلك لأن مقاصدها وأغراضها تتكرر تكراراً مملاً ولأن لغتها وأسلوبها ليسا في الغالب على جانب كبير من المتانة والقوة. فجل ما في الهاشميات أن الكميت لا يكلف بالبيض الحسان وإنما يكلف ببيض المآثر من «بني هاشم رهط النبي محمد»، وأنه ملوم فيهم مطارد من أجلهم ولكنه لا يحفل بهذا اللوم ولا يأبه لتلك المطاردة، وأنه يتمنى من صميم قلبه أن تحمله إليهم ناقة شديدة الأسر سريعة الجري.

أما ركاكة اللغة والأسلوب فحدث عنها ولا حرج، ومن أمثلتها هذه الابيات:

أسرة الصادق الحديث أبي القاسم فرع القدامس القدام

كان ميتاً جنازة خير ميت غيبته مقابر الأقوام

وجنيناً ومرضعاً سا كن المهـ ـد وبعد الرضاع عند الفطام

خير مسترضع وخير فطيم وجنين أقرّ في الأرحام(١)

ولك أن تتصفح الهاشميات لتتبين أن فيها أمثالاً كثيرة جداً لهذه الأبيات. ولكن إلى جانب هذه الكثرة التي تغلب عليها الركاكة ويشيع فيها التكرار قلة مختارة من الشعر السياسي الجيد وحجر الزاوية في هذه القلة المختارة هو اعتقاد الشاعر أن الخلافة وراثية يتوارثها آل النبي كابراً عن كابر لأنهم أولى الخلق

---

(١) شرح الهاشميات: طبعة مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ص ٢٧-٢٨

برسول الله وأمسهم به رحماً وأقدرهم على نشر دعوته وتنفيذ مبادئه وتعاليمه ،وأن كل من يتولاها من غيرهم غاصب يأخذ غير حقه ويستمتع بغير سلطانه . وهنا لا بد لي من الاشارة إلى رأيه في أبي بكر وعمر فأقول : إنه يخطئهما في تنحية عليّ عن الخلافة وتولّيها بدلاً منه ، ولكنه يقف عند هذا ولا يتجاوزه .

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا ألوم يوماً أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً بنت النبي ولا ميراثه ، كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان بـه يوم القيامة من عذرٍ إذا اعتذرا[1]

أما بنو أمية فهم في رأيه ظلمة أئمة نبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً ، وعطّلوا سنن نبيه فأكلوا المال الحرام وسفكوا الدم الحرام مستجيبين في كل ذلك لنداء شهواتهم وأهوائهم ومطامعهم وأغراضهم . فهم مسلمون بالاسم كفرة بالفعل لا تصلح أحوال المسلمين إلا بزوال ملكهم وانقراض دولتهم وقيام دولة هاشمية مكانها :

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا[2]
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضيّ السياسة هاشميّ يكون حياً لأمته ربيعا

وهو لا يحكم على بني أمية بأنهم أهل ظلم واستبداد وأرباب عسف وطغيان فحسب ولكنه يضيف إلى ذلك أنهم جهلة ضعفاء تنقصهم الكفاءة لادارة شؤون الملك كما ينقصهم حسن النية ، وتعوزهم العزائم القوية الصادقة كما يعوزهم الايمان بالمثل العليا والمبادىء السامية والعمل بها :

كأن كتاب الله يعنى بأمره وبالنهي فيه الكودنيّ المركَّل

والكودني البرذون والمعني بالبيت هشام بن عبد الملك . ومن أجل هـذا

(١) شرح الهاشميات : طبعة مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ص ٨٣ ـ ٨٤
(٢) القطيع : السوط .

كله لا يرى صاحبنا بداً من أن يحث جمهور الشعب على الثورة ويدعوه للانتقاض على الدولة القائمة ، كما سترى ، ولكن على أن يبقى هو بالطبع آمناً مطمئناً موفور الهناء والراحة ، لأن الدعوة إلى القتال شيء والمشاركة فيه شيء آخر .

وخير شعر الكميت وأحفله بأغراضه السياسية وأدله على دخيلة نفسه وأمتنه لغةً وأصفاه أسلوباً هذه اللامية التي أروي لك أحسنها فيما يلي ، مستعيضاً به عن إيراد مثلٍ أخرى من سائر هاشمياته ، قال :

ألا هل عمٍ في رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الاساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمّل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطّلت الأحكام حتى كأننا ... على ملةٍ غير التي نتنحّل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جُنة مما نخاف ومعقل
أرانا على حب الحياة وطولها ... يجد بنا في كل يوم ونهزل
فتلك أمور الناس أضحت كأنها ... أمور مضيع آثر النوم بهّل (١)
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحق نقضي بالكتاب ونعدل ؟
فكيف ، ومن أنّى ، وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل
أنصلح دنيانا جميعاً ، وديننا ... على ما به ؟ ضاع السوام المؤبل (٢)

---

(١) بهل : جمع باهل ، وهي الناقة التي لا راعي لها ، شبه بها امور الناس اضيعتها .
(٢) السوام والسائمة : الابل في مرعاها . ومؤبل : مهمل .

برينا كبري القدح أوهن متنه من القوم لاشار ولا متنبل[1]

ولاية سلغد ألفّ كأنه من الرهق المخلوط بالنوك أثول[2]

كأن كتاب الله يعنى بأمره وبالنهي فيه الكودني المركّل[3]

ألم يتدبّر آيةً فتدله على ترك ما يأتي أم القلب مقفل ؟

فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتى مَ حتى مَ العناء المطوّل ؟

....

تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل

....

فيا رب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعوّل

(د) في الواقع أن كثرة شعر الكميت سواء كان ذلك في الهاشميات أم في غيرها أقرب إلى الاسفاف منها إلى أي شيء آخر. ولكن يخيل إلي أن ما رويته لك من مختار شعره يكفي لأن يرفعه إلى مصاف كبار الشعراء . ولم يخطىء القدماء في اعتبارهم إياه أحد ألسنة مضر وشعرائها المقدمين .

✡ ✡ ✡

(١) القدح : خشبة السهم. وأوهن : اضعف، والشاري : المصلح . والمتنبل: صاحب النبل. يقول : نحن كالقدح براه من لا معرفة له ببريه ، مريداً بذلك جهل الحكام وعدم كفايتهم .

(٢) السلغد : الذئب . والألف : الرجل العيي البطيء الكلام . والرهق هنا : السفه . والنوك : الحمق . والأثول : الطائش .

(٣) المركل : الذي يضربه راكبه برجله .

الباب الرابع

الشعر العاطفي

أو الغزل في العصر الأموي

تمهيد

لم يكن الغزل أو الشعر العاطفي باباً جديداً في القريض الأموي ولا يمكن أن يكون كذلك لأنه من أقدم ، إن لم نقل أقدم ، ما تفتقت عنه قرائح الشعراء في كل أمة . ولقد كان من خير ما احتواه الشعر الجاهلي وأخصبه خيالاً وأروعه ديباجة . ولم تخل منه أشهر مدائح الشعراء للنبي (ص) « بانت سعاد . . » إلا أنه لقي رواجاً كبيراً على عهد بني أمية سببه ما أشرت إليه في غير هذا المكان من غلبة الترف على حياة فريق كبير من سكان الحجاز وشيوع الغناء والقصف في أنحاء ذلك القطر على قرب عهده بزهد النبي والراشدين . فقد استدعى ذلك ظهور طائفة من الشعراء الغزلين ، بعضهم صادق وبعضهم كاذب اختصوا بالغزل وتفرغوا له وعرفوا به ونظموا فيه القصائد المطولة حتى صار فناً قائماً بذاته بعد أن كان تابعاً لغيره من الأغراض الشعرية فيما سبق .

وينقسم هؤلاء الشعراء الغزلون إلى فئتين : إحداهما بدوية تقول بالعفاف وتدين بالطهر ، إمامها جميل بن معمر ؛ وثانيتهما حضرية تنزع نزعة إباحية في الغرام والغزل إمامها عمر بن أبي ربيعة . ونقتصر هنا على دراسة هذين الشاعرين لأن كلاً منهما يمثل مدرسته تمثيلاً تاماً . ونبدأ بعمر بن أبي ربيعة لأنه أشعر الرجلين .

عمر بن أبي ربيعة

(أ) حياته :ـ اسمه وكنيته ونسبه، نشأته ، قرضه الشعر ، سر نبوغه فيه ، انتقاله إلى مكة ، مغامراته ، ما نسج حوله من الأساطير ، ما يتصل من هذه الأساطير بمجونه ، ما يتصل منها بشاعريته ، ما يتصل منها بوفاته .

(ب) كذبه على نفسه :ـ قصته مع زينب الجمحية ، حكايته مع البغوم وأسماء ، مثل أخرى من كذبه على نفسه .

(ج) ظرفه ودعابته .

(د) غزله :ـ قيمته الأدبية ، موضوعاته ، لغته وأسلوبه ، مكان القصة من شعره ، مقارنة بينه وبين امرىء القيس بهذا الصدد ، مثل من شعره القصصي ، كلمة فيه .

(هـ) خاتمة : ـ منزلته بين شعراء الغزل .

***

(أ) حياته :هو أبو الخطاب عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي. ولد بالمدينة سنة ثلاث وعشرين للهجرة . وكانت ولادته ليلة وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقيل في ذلك : [أيّ حق رفع وأيّ باطل وضع] . ونشأ في ظل أبيه السري ، وأسرته الغنية القوية ناعم البال مترف العيش جمّ الثراء واسع الجاه . وقد قضى شرخ شبابه في خلافة معاوية فأخذ بحظه من نعيم ذلك العهد ، واستمتع بلذاته وتأثر بنزعاته وصار شاعره الغزل الأكبر . ويقال في

صدد قرضه الشعر إنه نظمه وهو صغير دون أن يلاقي فيه نجاحاً فما زال يعالجه ويروضه حتى نبغ فيه. وكانت رائيته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجّر

مصدر شهرته فيه. ويروى أن جريراً عقّب على نبوغ عمر بقوله : « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . » ومما ينبغي التنبيه إليه هو أن عمر لم يتخرج على يد أحد ولم يرو لشاعر ما وإنما نطق بالشعر ومارسه حتى برع فيه لحاجته إليه في وصف الجمال وسرد الحوادث الغرامية . فهو إذن تلميذ الجمال عنه أخذ وبه تأثر وعليه تخرج . وقد شاء لعمر فراغه وبحثه عن مختلف أنواع الجمال أن يترك المدينة إلى مكة حيث موسم الحج وما فيه من فرص نادرة للحديث واللهو والمغازلة ، فقضى معظم أيام حياته في مقر هجرته يستقبل الحواجّ من الفتيات والعقائل اللائي يسمحن له بالدنو منهن فيجالسهن ويحادثهن ويستمتع بجمالهن وظرفهن ويشيعهن عند انتهائهن من أداء فريضة الحج . ويذكر هذا في شعره فيلذّ لهن ويشجعهن على المضي في التعرض له وإنشاء صلاتهن به ، هذا علاوة على من كان بمكة والطائف من الحسان اللواتي يجد شباب عمر وجماله وشعره وترفه عندهن سوقاً رائجة أيّما رواج . وقد نشأت له عن هذه المغامرات الكثيرة طائفة ضخمة من الأخبار تناقلها الرواة فدسوا فيها ما شاءوا ونسجوا على منوالها ما شاءوا ، ولم يزالوا بها حتى أفسدوها إفساداً لا صلاح بعده أبداً .

فمن أمثلة عبثهم بأخباره أنهم يزعمون أن ابن أبي عتيق سمع عرضاً وهو بالمدينة قول عمر :

من رسولي إلى الثريّا فإني ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

فقال « إن عمر لم يعن أحداً سواي » . وركب من فوره إلى مكة حيث يقيم عمر فأخذه معه دون أن ينزل ودون أن يستريح وذهب به إلى الثريا وهي

في مصيفها بالطائف ، فحملها على الرضى عنه والرجوع الى حياتها السالفة معه .
وأن الحرث أخا عمر أرسله في قصد ونام في فراشه فجاءت الثريا هذه ـ وكانت على موعد مع عمر ـ فألقت نفسها عليــه ظانّة أنه صاحبها ، فطردها الحرث وأوسعها تقريعاً وتوبيخاً . وأن رجلاً من قريش ولدت له طفلة فائقة الجمال فخشي أن يشبب بها عمر ، فباع ضيعته وانتقل بابنته إلى البصرة حيث عاش غريباً ومات غريباً، ولـكن ابنته عادت بعد موته إلى مكة وصارت زوجة لعمر بن أبي ربيعة نفسه. وأن « نعماً » حبيبة عمر التي قال فيها قصيدته التي مطلعها: « أمن آل نعم... البيت» اغتسلت في غدير فأقام عليه عمر يشرب من مائه حتى جف !!

أفترى أن هذه أخبار يمكن أن تمت إلى الحقيقة بصلة ؟! ولم يقصر الرواة كذبهم على مغامرات عمر الغرامية بل إنهم تناولوا به حياته الشعرية الخالصـة . فأبو الفرج الأصبهاني يحدثنا أن عمر حضر إلى ابن عباس وهو في المسجد الحرام وحوله جماعة من الخوارج يتزعمهم نافع بن الأزرق يسألونه عن الحلال والحرام ، فتركهم وأقبل على عمر ، فأنشده هذا قصيدته التي مطلعها (أمن آل نعم .. القصيدة[1]) ولـكنه ـ أعني صاحب الأغاني ـ يخبرنا بعد قليل وباسناد طويل أن عمر أتى عبد الله بن عباس وقال له: « إن نفسي تاقت إلى قول الشعر ونازعتني إليه وقد قلت منه شيئاً أحببت أن تسمعه وتستره عليّ . فقال : « أنشدني » ، فأنشده : « أمن آل نعم ... القصيدة [2] . وظاهر أن الرواية الثانية مناقضة للرواية الأولى وأن تناقضهما دليل واضح على اختلاق الأكاذيب وإلصاقها بحياة عمر الشعرية الخالصة ، هذا فضلاً عن أني أستبعد كثيراً إن لم أكن أنفي نفياً باتاً أن يقطع ابن عباس حديثه في الافتاء وبيان الاحكام الشرعية ليستمع إلى شاب

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٢ـ٣٣ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦

ماجن ينشده قصيدة غزل إباحي [١] .

وكما كانت حياة ابن أبي ربيعة ينبوعاً غزيراً لأكاذيب الرواة وأباطيلهم كانت وفاته كذلك موضوعاً خصباً لاختلاقهم وعبثهم . فهم يحدثوننا طوراً أنه نظر في الطواف إلى امرأة شريفة فاتنة الجمال فكلمها فلم تجبه فقال فيها أبياتاً هذا أولها :

الريح تسحب أذيالاً وتنشرها   ياليتني كنت ممن تسحب الريح

فبلغها شعره فجزعت منه فقيل لها اذكريه لزوجك ، فقالت : كلا والله لا أشكوه إلا إلى الله . ثم قالت : اللهم إن كان نوه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح . فضرب الدهر ضربته ، وغدا عمر ذات يوم على فرسه فهبت ريح فاستتر بسلمة فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمي وورم ومات من ذلك ! [٢] ويروون لنا حيناً أن عمر بن عبد العزيز نفى المترجم إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر وأن الأخير أراد أن يكفر عن سيئاته فغزا في البحر فحدث أن شبت النار في السفينة التي أقلته وذهب فريسة ذلك الحريق [٣] . وواضح أن تناقض أقوال الرواة في وفاة عمر والأسباب التي أدت إليها وعلى هذه الصورة الغريبة دليل ناهض آخر على أن العبث بلغ من أخباره كل مبلغ .

---

(١) مما يساعد على استبعاد صحة هذا الخبر ما ورد فيه من أن نافع بن الأزرق أعاد البيت الرابع عشر من قصيدة عمر بعد أن تصرف فيه فوضع « يخزى » موضع « يضحى » و « يخسر » موضع « يخصر » ، فصار البيت هكذا :

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت   فيخزى واما بالعشي فيخسر

اذ معنى هذا ان نافعاً حفظ قصيدة عمر كلها او اكثرها عند سماعها لأول مرة حفظاً يمكنه من التصرف بها وحذف بعض الفاظها ووضع الفاظ اخرى مكانها . ومثل هذا الحفظ نادر الوجود صعب التصديق . على ان حفظ بن عباس قصيدة عمر وهي مؤلفة من خمسة وسبعين بيتاً عند سماعها لأول مرة ليس مما يسهل تصديقه .

(٢) الأغاني ج ١ ص ٩٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(٣) الشعر والشعراء ص ١٣٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(ب) كذبه على نفسه: ذلك هو كذب الرواة على عمر بن أبي ربيعة، أما كذبه على نفسه فكثير ، ومن أمثلته أن صاحبه ابن أبي عتيق وصف له زينب بنت موسى الجمحية وبينه وبينها قرابة فما كان من عمر إلا أن أحبها على السماع وصار يقول فيها الشعر ، وأغضب ذلك ابن أبي عتيق فعاتبه في التغزل بابنة عمه فأجابه بقوله :

لا تلمني وأنت زينتها لي ... أنت مثل الشيطان للانسان

ومع أن هذا البيت ينص بصراحة على أن عمر لم يعرف زينب ولم يتعشقها - إن صح هذا التعبير - إلا في سن الرجولة وبواسطة شخص ثالث لا يرى صاحبنا بأساً في أن يدعي أنه بادلها الحب وهما صبيان بل وليدان :

« ووليدان كانا علّقها القلب إلى أن علا الرؤوس بياض »

أبلغ من هذا دلالة على إسراف عمر في الادعاء والتحدث عن نفسه بما لم يحدث له ما رواه صاحب الأغاني من أنه كان عند ابنته أمة الواحد بالجنيد وهي في عصمة محمد بن مصعب بن الزبير وكان عندها مغنيتان جميلتان تدعى إحداهما (بغوم) والأخرى (أسماء) فغنتا فقال في ذلك هذه الأبيات :

صرمت حبلك البغوم وصدّت ... عنك في غير ريبة أسماء

والغواني إذا رأينك كهلاً ... كان فيهن عن هواك التواء

ولقد قلت ليلة الجزل لما ... أخضلت ريطتي عليّ السماء

ليت شعري وهل تردنّ ليت ... هل لهذا عند الرباب جزاء

فلما أنشد الأبيات قالت له البغوم : ما رأيت أكذب منك يا عمر ، تزعم أنك بالجزل وأنت في جنيد محمد بن مصعب ، وتزعم أن السماء أخضلت ريطتك وليس في السماء قزعة[1] فقال : هكذا يستقيم هذا الشعر[2] .

---

(١) القزعة : السحابة الصغيرة

(٢) الاغاني ج ١ ص ٦٦ـ ٦٧ طبعة مطبعة التقدم بمصر

وبلغ من كذب عمر وإسرافه على نفسه أنه ادعى مغازلة بعض الحرائر اللواتي لم يجالسهنّ ولم يحادثهنّ كثيراً ولا قليلاً . ومن أمثلة ذلك أنه ادعى مغازلة عائشة بنت طلحة وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وقد كذبتاه في وجهه وعنّفتاه على هذا التمادي في الغي والاسترسال في الكذب .

(ج) ظرفه ودعابته: بقي أن نعلم أكان هذا الشاعر الذي كذب عليه الناس وكذب هو على نفسه فاسق النفس كما كان فاسق اللسان، أم كان على العكس من ذلك؟

تتضارب أقوال الرواة في هذه الناحية من حياة عمر كما تتضارب في كل ناحية أخرى من نواحي حياته ، فقد قيل إنه حلف وهو على أبي قبيس برب الكعبة أنه لم يفعل محرماً ، وقيل إنه أكد لأخيه وهو على فراش الموت أنه ما ارتكب فاحشة قط . ولكن هناك أقوال تتعارض وهذه الأقوال ، فقد روي أن شيخاً سأله وهو يطوف في البيت : « أفعل كل ما قال ؟ » فأجاب : « نعم وأستغفر الله » .

وعندي أن ابن أبي ربيعة صاحب دعابة لا صاحب دعارة ، ورجل قول لا رجل عمل ، ولو لم يكن كذلك لما تغاضى أشراف قريش ـ وفي مقدمتهم بنو أمية ـ عن ذكره كرائمهم في شعره . فقد شبب بعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبدالله بن عباس والثريا بنت علي بن عبدالله ، بل إنه شبب بفاطمة بنت عبدالملك بن مروان . ولكنه لم يُحفظ أحداً من آباء هؤلاء العقائل أو إخوتهنّ أو أزواجهنّ أو بعض ذوي قرباهنّ . كما أنه لم يسىء سمعة واحدة منهن وفي هذا ما يحمل على الظن أن القوم كانوا يعتبرون تشبيب ابن أبي ربيعة ضرباً من العبث لا يحط من كرامة امرأة ولا يسيء إلى سمعتها .

(د) غزله: ولكن ما قيمة هذا التشبيب من الناحية الأدبية ؟ أله في موضوعاته أم في لغته وأسلوبه أم في هذا كله ما يحملنا على الاهتمام به والنظر في خصائصه ؟

الواقع أنه عظيم القيمة في موضوعاته ، جليل الشأن في لغته وأسلوبه، فحوادثه في

الغالب طريفة والشؤون التي تعالج فيه مطبوعة بطابع الفكاهة والظرف ، وهي قبل كل شيء شؤون عمر بن أبي ربيعة ذاته أو الشؤون التي يمكن أن تحدث له . فهذه قصيدة تخبرنا أن صديقة لعمر تطلب إليه أن يخرج لوداعها لأنها عازمة على الرحيل وترغب إليه أن يأتي بلدها خاطباً لها وتلتمس منه أن يحدد لذلك أجلاً تستسلم بعده لليأس إذا هي لم تحظ بزيارته . وهذه أخرى تحدثنا أن جماعة من السيدات احتلن عليه فأخرجنه إلى بعض مروج مكة وهو بهيئة أعرابي فحادثهن عدة ساعات على أنهن لا يعرفنه ثم كاشفنه بعبثهن ودعابتهن . وهذه ثالثة تروي لنا أن إحدى صواحبه تعمّدت «إفساد طوافها» بمغازلته ، فأرسلت إليه إحدى أترابها تستدعيه لمقابلتها . وهذه قطعة تؤكد أن عمر هجر الحجاز مختاراً إلى اليمن ليكف عن مغامراته التي تثيرها مواسم الحج ؛ وقس على ذلك عامة شعره .

ومما ينبغي التنويه به أن عمر لم يسبق إلى شيء مما تقدم ذكره أو ما يجري مجراه في شعره . إذن فغزله أصيل وحوادثه فكهة طريفة ؛ وصحيح أنه اختلق بعض الحوادث التي رواها في غزله إلا أن هذه الحوادث المكذوبة نسجت على منوال الحوادث الحقيقية التي تجري له عادة في كل يوم . ولذلك فانها لا تحط من شأنه من حيث هو شاعر غزل يعتمد في شعره على ما يقع له من حوادث اللهو والمغازلة .

أما من ناحية الشكل فلغة ابن أبي ربيعة لا تخلو من مواطن ضعف من ذلك قوله :

ولاقرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يسلي ولا أنت تصبر

فواضح أن المعنى ينتهي بقوله : « ولا نأيها يسلي » وأن بقية البيت حشو لا فائدة فيه . ومثل هذا قوله :

عزيز عليه أن ألمّ ببيتها يسرّ لي الشحناء والبغض مظهر

فقوله « والبغض مظهر » زائد لأن المعنى ينتهي بقوله : « يسرلي الشحناء » هذا فضلاً عن أن الزيادة تتناقض وما يتقدمها لأنها تدل على الاعلان بينما يدل ما تقدمها على الكتمان . ومن هفوات عمر في هذا الباب قوله : « وأن شواك[1] لم يشبه شواها » فأنت ترى أن التنافر بالغ حده في كلمات هذا الشطر ، وفي الامكان توسيع هذه القائمة . ومع ذلك فلغة عمر على العموم متينة عذبة ، وديباجته ناصعة مشرقة ، يتخللها التشبيه الجميل كما في قوله « وانسبن انسياب مها الرمل » والكناية المستملحة كما في قوله : « بعيدة مهوى القرط » « صامتة الحجل » والطباق المستطرف كما في قوله :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأمـــا بالعشي فيخصر

وقد تسألني عن الدور الذي تلعبه القصة في شعر عمر بن أبي ربيعة فأجيب بأنه جد خطير . لأن القصة لم تبلغ في شعر شاعر قبله ما بلغته في شعره من الاتقان والاطالة والروعة . ولا جدال في أن امرأ القيس هو الذي ابتدع القصة الغرامية في القريض العربي ولكن الفرق كبير بين قصصه القصيرة المقتضبة السيئة الترتيب أحيانًا وبين قصص عمر الممتعة الرائعة والمرتبة ترتيباً محكمًا . ولك أن تقارن بين قصتي امرىء القيس اللتين تحتوى عليهما معلقته وبين قصة عمر التي تنتظمها قصيدته التي مطلعها : (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) أو قصته التي تشتمل عليها لاميته المبدوءة بقوله :

جرى ناصح بالود بيني وبينها فقربني يوم الحصاب إلى قتلي

أو قصـــته التي تحتوي عليها عينيته التي يقول في أولها : « ألم تعرف الاطلال فالمتربعا » أقول لك أن تقارن بين قصتي امرىء القيس المشار اليهما وبين هذه

---

(١) الشوى : اليدان والرجلان وقحف الرأس وكل ما ليس مقتلا

القصص لنتحقق أن عمر قد هذب القصة الشعرية تهذيباً غير قليل ووسعها توسيعاً لا مناص لمؤرخ الأدب العربي من التنويه به . وهاك إحدى هذه القصص على سبيل المثال ، قال عمر : ــ

تنوعتن حتى عاود القلب سقمه ... وحتى تذكرت الحديث المودّعا
فقلت لمطريهن : ويحك ، إنما ... ضررت ، فهل تستطيع نفعاً فتنفعا
وأشربت فاستشرى وقد كان قد صحا ... فؤاد بأمثال المها كان موزعا(١)
وهيجت قلباً كان قد ودع الصبا ... وأشياعه فاشفع عسى أن تشفعا
لئن كان ما قد قلت حقاً لما أرى ... كمثل الألى أطريت في الناس أربعا
فقال تعال انظر فقلت وكيف لي ... أخاف مقاماً أن يشيع فيشنعا
فقال اكتفل ثم التثم وأتِ باغياً ... فسلم ولا تكثر بأن تتورعا(٢)
فإني سأخفي العين عنك فلا ترى ... مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا
فأقبلت أهوي مثلما قال صاحبي ... لموعده أزجي قعوداً موقعا(٣)
فلما تفاوضنا الحديث وأسفرت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفنني ... وقلن امرؤ باغ أكلّ وأوضعا(٤)
وقربن أسباب الهوى لمتيم ... يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا
فلما تنازعن الأحاديث قلن لي ... أخفت علينا أن نغرّ ونخدعا ؟
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وبينّا له الشأن أجمعا
فما جئتنا إلا على وفق موعدٍ ... على ملأ منا خرجنا له معا

(١) اشربته فاستشرى : حملته على التمادي في الغي فتمادى . موزع : مولع
(٢) اكتفل : البس الكفل بكسر الكاف وهو كساء بدوي .
(٣) أزجي : أسوق . القعود : هو البعير الذي يستخدمه الراعي عادة في حاجاته . موقع : مدبر .
(٤) باغ : قاصد . أوضع : أسرع في السير . أكلّ : أصاب ناقته الكلال ، وقد لاحظ العناني ان الصواب هو ان يقول اوضع فأكل ، وملاحظته موفقة .

رأينا خلاء من عيون ومجلساً   دميث الربى سهل المحلة ممرعا
وقلنا كريم نال وصل كرائم   فحق له في اليوم أن يتمتعا

أظن أن هذه القصة لو رويت منثورة لما كانت أسهل رواية ولا أكمل بياناً ولا أدق ترتيباً . ولست أراني بحاجة للتنبيه إلى مكان الدعابة البريئة والفكاهة الحلوة من القصة لأنه بيّن ظاهر .

(هـ) خاتمة :

يقرن النقاد القدماء عمر بن أبي ربيعة بجميل بثينة ويعتقدون أنه كان يعارضه ، فاذا قال هذا قصيدة قال هو قصيدة مثلها . ويرون أن عمر أشعر في الرائية والعينية[١] ، وأن جميلاً أشعر في اللامية[٢] ، ويعتقدون أن لكل منهما « بيتاً نادراً ظريفاً » ، فأما بيت عمر عندهم فهو :

فقالت وأرخت جانب الستر بيننا :   معي فتحدث غير ذي رقبة أهلي

وأما بيت جميل فهو :

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما   قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي !؟[٣]

وعندي أن لكل من الرجلين أكثر من بيت نادر ظريف واحد وأن ما ينبغي أن يقال في كل منهما بالقياس إلى صاحبه على وجه الاجمال هو أن عمر أوسع خيالاً وأفصح لفظاً وألطف أسلوباً وأطول نفساً ، وأن جميلاً أصدق عاطفة وأرهف حساً وأنبل شعوراً .

---

(١) أكبر الظن أنهم يريدون بالرائية: « أمن آل نعم أنت غاد فبكر... الخ » وبالعينية : « الم تعرف الأطلال فالمتربعا .. الخ » .

(٢) يغلب على الظن انهم يريدون باللامية قصيدة جميل التي يقول في اولها : « لقد فرح الواشون ان صرمت حبلي ... الخ » .

(٣) الأغاني ج ١ ص ٤٩ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

جميل بثينة

(أ) سيرته : نسبه . مولده . نشأته . ثقافته . غرامه ببثينة . أخباره معها . عبث الرواة بها . ما يمكن قبوله منها .

(ب) أخلاقه : كرمه ووفاؤه . شجاعته . عفته .

(ج) شعره : عناصره . إشتماله على كثير مما يتصل به . إمتيازه بتصوير العفة والكآبة . مثل منه .

(د) منزلته .

(ه) خاتمة .

***

(أ) سيرته : هو جميل بن عبدالله بن معمر من عذرة وعذرة من قضاعة ، وقضاعة من معد وقيل من حمير . ولد بوادي القرى ، وهو وادٍ ذو حرث وزرع بقرب المدينة . وبه نشأ وقضى أكثر أيام حياته . وهو شاعر مقدم ، جامع بين الشعر والرواية ، كان راوية هدبة بن خشرم وهدبة راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير بن أبي سلمى ، فهو إذن خريج أكبر مدرسة شعرية في البادية . وأنت إذا تأملت شعره رأيت أنه ينسج على منوال زهير في حرصه على عرض الأشياء كما هي وإفراغها في قالب جميل جذاب جامع بين اللطف والبساطة . إلا أنه لا بد من القول بأن رقة عواطف جميل وقرضه الشعر للشعر وللاعراب عما يعتلج في نفسه من مشاعر وانفعالات لا للحصول على رضا ممدوح ولا لنيل إعجاب راوية أو ناقد جعلا لغته أكثر سهولة وأسلوبه أقل متانة . وإنه لمن الاسراف أن

نطلب إلى شاعر عاشق يهمه أن يرضي حبيبته قبل كل شيء وفي كل مناسبة أن يكون صاحب حوليات يقضي الأيام العديدة في إيثار بيت على بيت وإحلال لفظ مكان لفظ .

ومؤرخو الأدب القديم مجمعون على أنه « إمام المحبين » لصدق صبابته ونزاهة حبه ، وصاحبته بثينة بنت حباب ، وهي ابنة عمه ، وقد أحبها حباً أخذ عليه مذاهبه وملك مشاعره ، حتى اقترن اسمه باسمها فقيل : « جميل بثينة » . ومما لا شك فيه أن له مع حبيبته هذه أخباراً كثيرة كما أن له فيها أشعاراً كثيرة . إلا أن أصحاب الأخبار والأسمار استغلوا شخصيته إلى أبعد حدود الاستغلال وحملوا عليه كل ما يمكن حمله من أقاصيص وأساطير ، ولذلك فانه من الصعب جداً أن يطمئن باحث ناقد إلى أكثر ما يروى في كتب الأدب من نوادر جميل وأخباره . فمن يا ترى يستطيع أن يصدق أن الغفلة بلغت من والد بثينة وهو سريّ قومه وحازمهم مبلغاً لم يفطن معه إلى غرض كثيّر من إنشاده على مسمع من ابنته هذه الأبيات ؟ :

فقلت لها يا عزّ ، أرسل صاحبي إليك رسولا ، والموكّل مرسل[1]
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمريني بالذي[2] فيه أفعل
وآخر عهدي منك يوم لقيتني بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

ومن يا ترى لا يفطن الى أثر الاصطناع في هذه القصة التي تقول لنا إن والد بثينة وأخاها حضرا بدعوة من زوجها ليشهدا بثينة وهي في خلوة مع جميل ، فسمعا هذا يطلب إليها أن تسعف غرامه إسعافاً تاماً ، وسمعاها ترفض طلبه

(١) ما كل موكل مرسل ، ولكن كل رسول موكل في حدود رسالته ، وعلى هذا اظن ان الصحيح هو (والرسول موكل) .
(٢) في الاغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر (ما الذي) .

رفضاً تاماً ، وسمعا جميلاً في النهاية يهلل ويكبر لعفاف حبيبته ، ويؤكد لها أنها لو منحته ما طلب لقطعها إربا ؟!

على أننا لا ننفي أن تكون لجميل أخبار صحيحة أو شبه صحيحة ، ولكننا نقول إن الرواة عبثوا بسيرة هذا الشاعر عبثهم بسيرة كل إنسان وجدوا في التحدث عنه إلى الناس بضاعة رائجة وتجارة رابحة وأن أخباره على هذا يجب أن تدرس بتحفظ . ومهما يكن من شيء فانه ليس من العسير أن نؤمن بما اتفق عليه الرواة أو كادوا من أن جميلا عشق بثينة وهي جويرية لما تدرك ، وأنه خطبها بعد أن اشتهر بحبه لها فرد ، لأن عادة بدوية كانت تقضي بعدم تزويج المتحابين إذا عرفا بتبادل الحب ، وأنه أكثر من التشبيب ببثينة والاختلاف إليها ، حتى شكاه أهلها إلى مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة فأباحهم هذا دمه وأنه خافهم على نفسه فهرب إلى اليمن ولم يرجع إلى وادي القرى إلا بعد انتهاء ولاية مروان ، وأنه عندما يئس من عطف بثينة عليه رحل إلى مصر لينساها أو ليكون بعيداً عنها ، فتوفي هناك عام ٨٢ للهجرة .

(ب) أخلاقه : كان جميل سمحاً شجاعاً مقداماً عفيفاً طاهر الذيل . حكي أنه لما سجن هدبة في جريمة قتل زاره جميل في سجنه ومعه هدية نفيسة مؤلفة من ثياب ونقود[1] . وتدل أخباره مع بثينة على أنه اعتزم غير مرة أن يشتبك وأهلها في براز مسلح لولا أنها كانت تصده عن ذلك . أما عفته فتكاد تكون أمراً مسلماً به من كل أحد ، وقد كان تشبيبه ببثينة سنين طويلة باعثاً على الارتياب به ، إلا أنه قال لعباس بن سهل الساعدي وهو يجود بنفسه : « لا نالتني شفاعة محمد (ص) ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، إن

---

(١) الاغاني ج ١ ص ٩٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر

كنت وضعت يدي عليها لريبة[١] » . وسيمر بك من شعره ما يفي بتأييد هـذا القول .

(ج) شعره : كان لجميل ديوان شعر أتت الأيام عليه[٢] ، لا يزال في أيدينا منهما يدل دلالة صادقة على سعة الخيال وبراعة الخاطر وغزارة المادة . وأنت إذا تصفحت ما بقي لنا من شعر جميل رأيت أنه صورة حية لطائفة من الشؤون والأحوال يتصل بعضها بنسب جميل وبعضها بأسرته وبعضها بشخصه وأكثرها بحبه لبثينة ووصفه إياها . فهذا رجز يدل على أن جميلاً من معدّ خلافاً لما يظنه بعض النسابين من أنه من حمير . وهذه أبيات تنبئنا أنه كان يقيم في وادي القرى. وهنا بيتان نعلم منهما أن جميلاً عرف بثينة أول ما عرفها في وادي بغيض وأنهما تسابّا في هذه المقابلة ، فماح سبابها في عينه فأحبها . وهناك قطعة تخبرنا أن بثينة وعدت جميلاً أن تلقاه ولم تتمكن من إنجاز وعدها له فشق عليه ذلك كثيراً وساء ظنه بها ، وانتهز نساء من الحي هذه الفرصة فوصفن بثينة بالخلف والكذب ليحملن جميلاً على قطع علاقته بها والاستعاضة عنها بواحدة منهن ، ولكنه خيب أملهن بثباته ثباتاً لا يتزعزع على حب بثينة . وهناك قصيدة نتبين منها أن جميلاً سليل أسرة موسرة ، وأنه يقيم على مقربة من أهل بثينة وأنه رغم يساره وقرب منزله يقضي الليالي العديدة ضيفاً على أهلها مع ذوي الفاقة والمنقطعين من أبناء السبيل، وأنها قد زوجت من رجل اسمه « نبيه » وأن هذا أصبح بطبيعة الحال « حرباً » للشاعر . وليس هذا أحسن ما في شعر جميل

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٧ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) أدرك ابن خلكان هذا الديوان وقال عنه (انه مشهور) واكتفى بشهرته عن ذكر شيء منه .

ولكنه يمتاز بعنصرين مهمين قلّما وجدا في غيره هما طهارة الحب وشدة الحزن(١) فجميل محب مستهام ولكنه لا يحب لقضاء وطر أو بلوغ شهوة خسيسة، وإنما يهيم بالجمال للجمال ويدين بالحب للحب، ولذلك فاض شعره بالأحاسيس الرفيعة والعواطف النبيلة والمشاعر السامية. وطبيعي أن حباً كهذا لا يمكن أن يكون إلا مصدر لوعة ومبعث كآبة وهذا ما وقع لجميل بالفعل. فقد قضى معظم أيام حياته ذاهل اللب كاسف البال شديد الحزن دائم القلق يهيم بالوديان ويتسلق الآكام

(١) يعتقد الدكتور طه حسين أن كآبة جميل واضرابه من الشعراء العذريين ناشئة عن خيبة الآمال التي كان يعلقها العرب على الحركة الاسلامية، وأن فداحة الضرائب التي كان العرب يؤدونها على عهد بني أمية مصدر هذه الكآبة الحقيقي. ويمضي في تأكيد هذا الاعتقاد فيقرر أن الأدب العذري الحزين يشبه في نشأته ونزعته الأدب الروماني الحزين الذي يظن الدكتور أنه نشأ بفرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأن خيبة أمل الشعب الفرنسي بالثورة الفرنسية أكبر سبب في نشأته. (حديث الأربعاء ج ٢ ص ٥٣ ــ ٥٤ الطبعة الاولى)، وأحسب ان هذه الملاحظات غريبة كل الغرابة. فجميل شاعر موسر يدلنا على ذلك قوله:

أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها ... وأهلي قريب «موسرون ذوو فضل»

وليس بين الشعراء العذريين من يشكو الفقر ولكنهم جميعاً يشكون الهجر. أما نشأة الأدب الروماني الحزين في فرنسا فانها سابقة للثورة الفرنسية وأول كتاب يمثلها هو «ايلويز الجديدة LA Novvelle Héloïse» المطبوع بفرنسا عام ١٧٦٢ م ومؤلف هذا الكتاب هو جان جاك روسو المتوفي عام ١٧٧٧ م. ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن جان جاك روسو هو أبو الادب الروماني الحزين بفرنسا وان برناردن دي سان بيير Bernardin de Saint-Pierre أول من اعتنق مذهبه ونهج سبيله وان مدام دوستال Madame de Stael وشاتوبريان Chateaubriand رفعا راية هذا الادب في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وأن فكتورهيكو وموسيه Musset ولا مارتين، وهم الذين يذكرهم الدكتور طه حسين على أنهم مؤسسو الادب الروماني الحزين ليسوا الا اتباعاً لشاتوبريان وليس ثمة من يجهل كلمة هيكو التي كتبها في دفتره وهو صبي في المدرسة: «أريد أن اكون شاتوبريان او لا شيء.»

متنسماً أنفاس الريح كلما هبت على حي بثينة محملاً إياها تحيات الحب والشوق متلقياً منها أمثالها من حبيبته الوفية الصادقة . وشعره الدال على طهارة حبه وشدة وجده كثير أروي لك منه قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

وقوله :

ألا من لقلب لا يمل فيذهل ... أفق فالتعزي عن بثينة أجمل
سلا كل ذي ود علمت مكانه ... وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها ... ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها ... وإن كنت تهواها تضن وتبخل
وقد أيأست من نيلها وتجهمت ... ولليأس إن لم يقدر النيل أمثل
وإلا فسلها نائلاً قبل بينها ... وأبخل بها مسؤولة حين تسأل

وقوله :

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ... من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به ... مع الناس ، قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
جزتك الجوازي يا بثين ملامة ... إذا ما خليل بان وهو حميد

وقوله :

يقولون مهلاً يا جميل وإنني ... لأقسم ما بي عن بثينة من مهل
أحلماً ؟ فقبل اليوم كان أوانه ... أم اخشى ؟ فقبل اليوم أوعدت بالقتل

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل
فياويح نفسي حسب نفسي الذي بها ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي
أجدك لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رجل
خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي؟!
ألا أيها البيت الذي حيل دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل

هذه مثل قليلة من شعر جميل لا أشك أنك تلمس في طياتها روحه المعذبة التي تمكن منها الحب وتملكها العفاف وطغى عليها اليأس وصهرتها الأحزان فأحالتها أنة موجعة أو دمعة غزيرة حارة. وفي شعر جميل نفثات أخرى كثيرة تتقد أسىً ولوعة وتفيض كرماً وعفة وتسيل رقة وأريحية فتتبعها إن شئت.

(د) منزلته : يهمني أن نعرف منزلة جميل بنظر معاصريه. وهذا سهل، فرواة الأدب القديم يحدثوننا أن كثيراً وهو شاعر كبير يقدمه على نفسه « ويتخذه إماماً له » ويقول دائماً ما نصه تقريباً « وهل علم الله ما ترون إلا بواسطة جميل ؟[1] » وهناك قصص طريفة لها مغزاها في الدلالة على مكانة جميل الأدبية.

قد تقول: ولكن ألا يمكن أن تكون هذه القصص موضوعة ؟ وأجيب بأنه من الممكن تماماً أن تكون كذلك ؛ ولكنها إن كانت موضوعة فإنها تدلنا على رأي الرواة في جميل وهو رأي له قيمته وله خطره في هذا الباب، ولذلك أبيح لنفسي أن أقف عندها وأن أروي لك مثلاً منها.

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ٧٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر.

زعموا أن الفرزدق لقي كثيّراً في مكة ، فقال له : يا أبا صخر أنت أنسب العرب حين تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثّل لي ليلى بكل سبيل

وهو يشير بهذا إلى سرقة كثيّر هذا البيت من جميل الذي يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثّل لي ليلى على كل مرقب

فقال له كثير : وأنت يا أبا فراس أفخر العرب حين تقول :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا   فان نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وهو يشير بذلك إلى سرقة الفرزدق هذا البيت من جميل الذي يقول :

نسير أمام الناس والناس خلفنا   فان نحن أومأنا الى الناس وقّفوا[(١)]

وروي أن جميلاً حضر في المدينة حلقة ضمت نصيباً مولى عبد العزيز بن مروان والوليد بن سعيد بن أبي سنان أعلم أهل المدينة بالشعر وعبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر فاستنشدوه فأنشدهم قوله :

ونحن منعنا يوم أرلٍ نساءنا   ويوم أفيّ والأسنة ترعف

يحب الغواني البيض ظلّ لوائنا   إذا ما أتانا الصارخ المتلهف

نسير أمام الناس والناس خلفنا   فان نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

فأيّ معدٍّ كان فيء رماحه   كما قد أفأنا والمفاخر ينصف

وكنا إذا ما معشر نصبوا لنا   ومرت جوازي طيرهم وتعيّفوا

وضعنا لهم صاع القصاص رهينة   بما سوف يوفيها إذا الناس طففوا

فلما انصرف قال ابن الأزهر : (هذا أشعر أهل الاسلام) فقال ابن حسان : (نعم والله وأشعر أهل الجاهلية ، ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه !!)

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ٧٥ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

فقال عبدالرحمن بن الأزهر (صدقت) .[١]

في الواقع أن هذه الملاحظات قد لا تخلو من تطرف ولكنها تصور لنا على كل حال رأي معاصري جميل بشاعريته وإعجابهم بفضله وأدبه .

(هـ) خاتمــة :

رحم الله جميلاً فانه في طليعة الشعراء الغزلين الذين جبلوا على الطهر وطبعوا على الصدق وعشقوا الجمال للجمال وكابدوا آلام الحب للحب وعالجوا قرض الشعر للشعر .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٧٤ـ٧٥ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

الباب الخامس

الشعر التقليدي
في العصر الأموي

تمهيد :

أما الشعر التقليدي ، فانه من أقدم أنواع القريض العربي كذلك . ولقد كان النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وأعشى بكر مداحين هجائين ، أي شعراء تقليديين . وكان حسان بن ثابت المتقدم ذكره شاعراً تقليداً أيضاً . إلا أن هذا النوع من الشعر رزق حظوة كبرى عند بني أمية بسبب اضطرارهم إلى تقريب شعراء المديح والهجاء ليمجدوا دولتهم ويخلدوا مواقفهم من جهة ، ولينالوا من خصومهم السياسيين وينتقصوهم بالحق وبالباطل من جهة أخرى . وهكذا سمت منزلة الشعر التقليدي وعلا شأنه ونبغ فيه عدد كبير من الشعراء أكبرهم بلا نزاع جرير والفرزدق والأخطل . وسأدرس حياة كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة وأخلاقه وشعره درساً مفصلاً أو شبه مفصل ، إلا أني سأحدثك قبل ذلك عن كثيّر عزة الذي أنكر أن يكون شاعراً غزلاً لعدم دلالة ما بقي من شعره على شيء من هذا ، ولاجماع الرواة على أنه كاذب في صبابته مدّع في حبه كما أنكرت أن يكون شاعراً سياسياً مؤيداً لآل عليّ بسبب إكثاره من مديح آل مروان وإجادته في هذا المديح ، والذي لا أستطيع أن أعده إلا شاعراً تقليدياً ، لأن الشعر بالنسبة إليه صناعة لا رسالة يقوله أملاً بالحصول على مال أو سعياً وراء شهرة أو جاه أو أي شيء آخر من هذا القبيل . إذن فهو شاعر تقليدي ، وبه أستهل الحديث عن الشعر التقليدي وأصحابه .

✡
✡ ✡

كثير عزة

(أ) حياته : نسبه ومولده وكنيته . ثقافته . صلته بآل علي . مثل من شعره فيهم وأخباره معهم . صلته بآل مروان . منزلته عندهم . بعض أخباره معهم . صلته بصاحبته عزة . قيمة ما يتناقله الرواة عن هذه الصلة . استنباطها من غزله . وفاته .

(ب) أخلاقه : حمقه وغروره . بعض أخباره في هذا الشأن .

(ج) منزلته عند الرواة والنقاد .

(د) شعره : غزله : خلوه من العاطفة . لماذا ندرسه ؟ . مثل منه . مديحه : خاصته . مثل منه .

(ه) خاتمة : منزلته بين شعراء بني أمية

***

(أ) حياته : هو كثيّر بن عبدالرحمن بن الأسود الخزاعي . وكان يكنى أبا صخر . ولما كان جده لأمه يكنى « أبا جمعة » كان يقال له « ابن أبي جمعة » .

ليس لدينا ما يعين تاريخ ولادته ولا مسقط رأسه . إلا أنه إذا صح أنه تدرب على يد جميل بن عبدالله بن معمر في قرض الشعر وأنه كان يملك في المدينة حانوت عطار يديره غلام له فينبغي أن يكون قد ولد في المدينة أو في محل قريب منها . وقد أخذ الشعر عن جميل صاحب بثينة المتقدم ذكره فكان خاتمة شعراء المدرسة الأوسية المبرّزين . لأنه لم ينبغ بعده من أتباع هذه المدرسة شاعر عالي

الطبقة فيما نعلم . وقد لا يبعد أن يكون أقوى صلة وأشد تأثراً بمذهب زهير من جميل نفسه . فأنت تجد في شعره نقاء ديباجة زهير ومتانة سبكه وانسجام لغته . وهذا هو دون ريب ما رفعه إلى أسمى منزلة بنظر آل مروان وجعل الرواة والنقاد يعجبون بشعره أيما إعجاب ، ويثنون عليه أطيب الثناء كما سيجيء .

وثلاثة أمور لابد من معرفتها والتحدث عنها في حياة كثيّر وهي: صلته بآل علي، وصلته بآل مروان، وصلته بصاحبته عزة. فأما صلته بآل علي فانها ملتوية منحرفة، ذلك أنه يحبهم ويتشيع لهم وقد نصرهم على آل الزبير فهجا عبدالله بن الزبير عند اضطهاده محمد بن الحنفية وحبسه إياه مع جماعة من الهاشميين بغية إرغامهم على مبايعته ، ولكنه « كيسانيّ » يؤمن بامامة محمد بن الحنفية ويذهب إلى أنه حي لم يمت ، وإنما هو مغيّب عن الأبصار إلى حين ، وأنه عائد إلى هذه الدنيا في يوم من الأيام ليملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وتروى له في ذلك هذه الأبيات[1]:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
عليّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس لهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرّ ... وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يتبعها[2] اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

على أننا إن شككنا في نسبة هذه الأبيات لكثيّر فاننا لا نشك مطلقاً في أنه قائل هذا البيت في محمد بن الحنفية وهو :

هو المهدي خبّرناه كعب ... أخو الأحبار في الحقب الخوالي

(١) تروى هذه الابيات للسيد الحميري وهو كيساني ككثير .

(٢) هكذا في الاغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر وربما كان الصواب يقدمها .

ولكثير مع بعض بني هاشم أخبار تدل على أنهم لم يكونوا يحفلون بولائه لهم أو يكترثون لتشيعه ، بل إنهم يتفكهون بشذوذه ويسخرون منه كما يفعل ذلك معه سائر الناس . فقد روي أن عبد الله بن محمد بن الحنفية كان يتعرف بعض أحواله ويخبره بها إذا حضر لزيارته، وإن دلّ هذا على شيء فانما يدل على دعابة الفتى الهاشمي ورغبته في التفكه بشذوذ الشاعر . قد تقول : ولم لا نفترض أن أبا هاشم يفعل هذا رغبة في استبقاء سلطانه على كثيّر ؟! وأجيب بأننا إن افترضنا هذا فانه ينتهي بنا إلى القول بسخف الفتى الهاشمي ، لأن احتفاظه بسلطانه على كثيّر لا ينفعه كثيراً ولا قليلاً بل ربما عرّضه لشيء من السخرية والهزء . تلك صلة كثيّر بآل علي على وجه الاجمال.

أما صلته بآل مروان فانها صلة الشاعر المتكسّب بالجواد السمح أو السياسي الحازم الذي يقبل المديح ويثيب عليه ويذيعه في الناس غير ناظر إلى رأي قائله الحقيقي ومذهبه في الدين أو السياسة .

كان كثيّر شيعيّاً غاليًا كما علمت ، ولكن هذا الغلو في التشيع لم يمنعه من التودّد لآل مروان وانتجاعهم بالمديح ؛ كما أنه لم يمنعهم من قبول مدائحه وإثابته عليها بالمال الكثير ومن الاعجاب بها إعجاباً شديداً ؛ بل إنه لم يمنعهم أن يرفعوه إلى درجة يستطيع معها أن يخاطب خلفاءهم مخاطبة الصديق للصديق .

روي أنه طلب إلى عبدالملك أن يقطعه أرضاً اسمها (غرّب) فقدّم بين يدي طلبه هذه الأبيات :

جزتك الجوازي عن صديقك نصرة | وأدناك ربي في الرفيق المقرب
فانك لا يعطى عليك ظلامةً | عدو ولا تنأى عن المتقرب
وإنك ما تمنع فانك مانع | بحق ، وما أعطيت لم تتعقب

فقال له عبدالملك: «أتريد غرّبا؟» قال: «نعم » ، قال : «اكتبوها له»[١] . والذي

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٨ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

يهمنا من هذه القصة هو قول كثيّر لعبد الملك في صدر البيت الأول من الأبيات التي تضمنتها « جزتك الجوازي عن (صديقك) نصرةً ! » فان هـذا الشطر يدل دلالة واضحة على أن كثيّراً يعتبر نفسه صديقاً لعبد الملك ، وأن عبد الملك يقبل هـذا منه ويقره عليه . ولكثيّر مع عبد الملك بن مروان وخلفائه نوادر عديدة أروي لك منهـا النادرة التالية لدلالتها على مدى العطف الذي يتمتع به منهم .

كان كثيّر في عسكر عبد الملك بن مروان عندما خرج لقتال مصعب بن الزبير فحدث أن نظر إليه عبد الملك وهو يسير مطرقاً ، فدعا به وقال له: « لا أعلم ما أسكتك وألقى عليك بثّك،فان أخبرتك عنه أتصدقني ؟» قال: « نعم ». قال: «قل وحق أبي تراب لتصدقني »،قال: « والله لأصدقنك». قال «لا أو تحلف به» . فحلف به ، فقال: « تقول :رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه ،القاتل والمقتول في النار ،فما معنى سيري مع أحدهما إلى الآخر ولا آمن سهماً عائراً يصيبني فيقتلني فأكون معهما ؟ » قال: « والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت » ، قال : « فارجع من قريب.» وأمر له بجائزة(١) .

وعلى قدر ما في صلة كثيّر بآل مروان من الوضوح والانسجام والاطراد تبدو صلته بصاحبته عزّة غامضة متناقضة مضطربة،فالرواة يحدثوننا مرة أن كثيّراً كان (مدعياً يتقوّل) وأن عزة كانت تعرف هذا منه . وأنها أرادت أن تتحقق خيانته فعرضت له متنقبة وما زالت به حتى فاه بكلمات دلت على بطلان حبه وقلة اكتراثه لعهوده ومواثيقه . ويحدثوننا تارة أن عائشة بنت طلحة وهي من أبرع نساء عصرها جمالاً عرضت عليه وصالها بدلاً من عزة فأبى عليها ذلك . ويروون لنا طوراً أن زوج عزة أرسلها وهما في طريق الحج لتشتري له سمناً ،

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

فأخذت تدخل مضارب الحجاج واحداً بعد واحد حتى دخلت مضرب كثيِّر ، وكان قد خرج إلى الحج دون أن تعلم به ، فعرفها ، ولكنها بقيت منكرة له إلى أن عرّفها نفسه . ويروون لنا حيناً أن عزة خطرت على بال كثير وهو بمصر ، فخرج يريدها وهي في الحجاز . فلما صار بموضع يقال له (فيفاء خريم) لقي عيراً كانت فيها عزة فعرفته هي في هذه المرة مع أنه كان متلثماً بعمامته ولم يعرفها هو . وسألته عن نسبه واسمه وعلاقته بها وعمّا أقدمه هذا المكان ، فأجابها عن أسئلتها جميعاً . ثم أرادت أن تعبث به قليلاً فقالت له : « لو أنك لقيت عزة في هذا الموضع فأمرتك بالبكاء ، أكنت تبكي ؟ » قال : « إي والله ، دماً ! » فحدرت اللثام عن وجهها وقالت : « أنا عزة ، فافعل إن كنت صادقاً » . ثم قالت لقائد قطارها : « إمض لسبيلك » . ويقصون علينا طوراً أن عزة توسطت لدى كثيِّر في بيع كبش لنسوة من قومها على أن ينسئهن في الثمن وأنها لم تحمل إليه ثمنه وقت أدائه وإنما حملته إليه امرأة أخرى فقال في ذلك هذا البيت :

قضى كل ذي دين فوفّى غريمه وعزة ممطول معنّى غريمها

ويزعمون لنا حيناً أن عزة دخلت على أم البنين زوجة الوليد بن عبدالملك فسألتها عن هذا الدين الذي يشير إليه كثير بقوله (قضى كل ذي دين ..البيت) فأجابتها : « قبلة وعدته إياها [1] » ... وهكذا .

والذي أستخلصه من هذا كله أن ما يتناقله الرواة عن علاقة كثيِّر بعزة لا يمكن أن يعطينا فكرة صحيحة أو شبه صحيحة عنها ، وأننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن هذه العلاقة فعلينا أن ندرسها في غزل كثيِّر نفسه . ونحن إذا تدبرنا

---

(١) في رواية أن هذا الحوار جرى بين عزة وبين عاتكة بنت يزيد زوجة عبد الملك بن مروان وفي أخرى أنه جرى بينها - أي عزة - وبين عائشة بنت طلحة زوجة مصعب بن الزبير .

هذا الغزل رأينا أنه يدل على سوء ظن عزة بصاحبها وعدم ثقتها به ، لأنه يصفها مرة بالاصغاء إلى الواشين ، وتارة بالتجهم لكثيِّر ، وطوراً بالاعراض عنه . من ذلك قول صاحبنا :

فان جاءكِ الواشون عني بكذبةٍ فروها ولم يأتوا لها بحويل(١)
فلا تعجلي يا ليل أن تتفهمي بنصح أتى الواشون أم بحبول

وقوله :

وقال خليلي ما لها إذ لقيتها غداة السَّنا فيها عليك وجوم

وقوله :

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصمِّ لو تمشي بها العصم(٢) زلّتِ
غضوباً فما تلقاك إلا بخيلةً فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّتِ

هذه الشكوى التي يفيض بها غزل كثيِّر من عزة تدل دلالة واضحة على أنها لم تكن تشاطره الحب ولا تقاسمه آلامه وأشجانه وأنها في ذلك على العكس من بثينة التي يشهد شعر جميل أنها تضمر له الحب وتشعر نحوه بالعطف الشديد . إلا أنها تحتاط في موقفها منه وتتحفظ في إظهار حبها له وعطفها عليه .

وتوفي كثيِّر سنة خمس ومئة للهجرة بالمدينة ، وحدث أن توفي عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما، يوم وفاته ، فقال الناس : (مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس !) وشغلوا بتشييع جنازة الشاعر فلم يجد الفقيه منهم من يشيع جنازته .

(ب) أخلاقه : على أن الرواة إن كانوا يختلفون في تصوير علاقة كثيِّر

---

(١) الحويل هنا : الدليل .
(٢) العصم : جمع أعصم . والاعصم من الظباء وغيرها ما كان في ذراعيه أو احداهما بياض وسائرها جامع بين السواد والحمرة .

بعزة فانهم يتفقون اتفاقاً تاماً على أنه كان شديد الحمق كثير التيه محباً للفخر ، وقد بلغ من حبه للفخر الكاذب أن أنكر نسبه في خزاعة وادّعى أنه من بني النضر بن كنانة من قريش ، وأقدم على هذا بحضرة عبد الملك بن مروان الذي يعد من أعرف الناس بالناس وأنشده فيه قوله :

أليس أبي بالصّلت أم ليس إخوتي ... بكل هجان من بني النضر أزهرا

فان لم تكونوا من بني النضر فاتركوا ... أراكاً بأذناب القوابل أخضرا

أبيت التي قد سمتني ونكرتها ... ولو سمتها قبلى قبيصة أنكرا[1]

لبسنا ثياب العصب فاختلط السّدى ... بناوبهم والحضرمي المخصّرا[2]

فأقره عبد الملك على زعمه ، ولكن على أن ينشد الأبيات السالف ذكرها على منبري البصرة والكوفة ، فقبل ، وقدم العراق ، وأعلن نسبته إلى كنانة على منبر البصرة ، فلم ينشأ عن هذا سوى تهاج لم يبلغ حد الاقذاع بينه وبين الأحوص وقيل بل بينه وبين سراقة البارقي. ثم أتى الكوفة ودخل أول ما دخل مسجد بارق ، فقيل له: « أأنت من الحجاز ؟ » فقال : « نعم » ، قالوا : « أفتعرف شاعراً دعياً اسمه كثيّر ؟ » قال: « سبحان الله أتسمعون أيها الأشياخ ما يقوله الفتيان » ؟ قالوا: « هذا ما قاله هو لنفسه » . فذهب إلى والي الكوفة والتمس منه أن يطيره على البريد ففعل .

(ج) منزلته بنظر الرواة والنقاد : وكما يتفق الرواة على التنديد بكثيّر والاستخفاف به من حيث هو رجل اتفاقاً تاماً ، يتفقون كذلك على إطرائه وتقديمه من

---

(١) نكر الأمر وأنكره : جهله .

(٢) العصب: ضرب من البرود اليمانية ، وفي الأغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر « العطف » وهو خطأ بالطبع . والحضرمي المخصر : النعل المستدقة الوسط . يقول كثير : ان آباءه الجدد من اقطاب قريش يلبسون الوشي ويحتذون الأحذية الفاخرة .

حيث هو شاعر اتفاقاً تاماً . فابن سلّام يعدّه من فحول عصره ، ويونس النحوي يقول « إنه أشعر أهل الأسلام » ومصعب الموصلي يقول « إنه أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم – يعني الشعراء – » ومحمد بن عبد العزيز يقول « ما قصّد القصيد ولا نعت الملوك مثل كثيّر[١] » .وهناك أقوال أخرى كثيرة من هذا القبيل تجدها في الأغاني وطبقات الشعراء لابن سلام . ولسنا نقبل هذه الشهادات بشاعرية كثيّر على علاتها . ولكننا نستخلص منها شيئاً واحداً لا شك فيه،هذا الشيء هو عظم مكانة كثيّر بنظر الرواة والنقاد القدماء وإجماعهم الذي يكاد يكون تاماً على إطرائه وتقديمه .

(د) شعره : يتألف ما انتهى إلينا من شعر كثيّر من النسيب والمديح ، ونبدأ بالكلام عن الأول لأنه أبعد شهرة وألصق بسمعة الشاعر من الثاني.وأول شيء يتبادر إلى الذهن عند البحث عن نسيب صاحبنا هو السؤال التالي : أيعبّر هذا النسيب عن صبابة صادقة وحب حقيقي ؟ والجواب : لا ، لأننا لا نجد فيه تلك العاطفة القوية الفياضة التي نحسها كما نحس النور والحرارة في الشمس ونشعر بها كما نشعر بالطيب ينتشر في أنفاس النسيم . ستقول : وماذا يهمنا إذن من غزل كثير إذا خلا من الشعور الحقيقي والعاطفة الصادقة ؟ والجواب عن ذلك: أن هذا الغزل من لطف الخيال وسلامة اللغة ونقاء الديباجة بحيث لا يصح إهماله، أضف إلى ذلك أنه يحتوي على صور صادقة أصيلة كثيرة تمثل ألواناً مختلفة من الحياة وضروباً عديدة من المشاعر والأحاسيس ، من ذلك قول صاحبنا :

نظرت إليها نظرة وهي عاتق ... على حين أن شبت وبان نهودها
من الخفرات البيض ودّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٦ – ٢٧ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

نظرت إليها نظرة ما يسرني　　بها حمر أنعام البلاد وسودها

وقوله :

يكلفها الغيران شتمي وما بها　　هواني ولكن للمليك استذلت

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ　　لعزة من أعراضنا ما استحلت

وقوله :

وكنت إذا ما جئت أجللن مجلسي　　وأظهرن مني هيبة لا تجهما

يحاذرن مني غيرة قد عرفنها　　قديماً فما يضحكن إلا تبسما

فليس من شك في أننا نرى في المثال الأول صورة صادقة من فتاة فائقة الجمال ناعمة الشباب ساحرة الحديث ، وفي الثاني زوجة مقهورة يضطرها زوج غاشم إلى إهانة رجل إن كانت لا تحبه فانها لا تكرهه . وفي الثالث عاشقاً غيوراً تتقى غيرته وتخشى مكانته وتبذل الجهود في سبيل إرضائه ولو في الظاهر .

أما مديح كثيّر فانه يمتاز قبل كل شيء بتوخي الحقيقة وعرضها في أسلوب رائع بارع . إذ لكل ممدوح فيه صورته الحقيقية التي لو حللتها على ضوء سيرته لانتهيت إلى نفس الصفات والمواهب التي ينعته بها التاريخ . فالشجاع الحازم الشديد البطش لا يمدح فيه إلا بالشجاعة وما يجري مجراها من الخلال ، والامام الورع العادل لا يوصف إلا بالتقوى والعدل والورع ، والمدبر المحسن الذي يقوى على المنع كما يقوى على الاعطاء يمدح بخلته هذه أيضاً . وأشهد أني لا أعرف شاعراً مدح بالقدرة على المنع في محله سوى كثيّر . ولك أن تتبين صدقه في هذه المثل التي أرويها لك من مديحه لجماعة من العظماء مختلفي المذاهب والمشارب والأخلاق . إسمع قوله في مديح عبدالملك بن مروان :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان عليها عقد درٍّ يزينها

نهته ، فلما لم تر النهي عاقــه ... بكت ، فبكى مما شجاها قطينها
ولم يثنه يوم الصبـابة بثهـا ... غداة استهلت بالدموع شؤونها
ولـكن مضى ذو مرّة متثبت ... بسنّة حقٍ واضح مستبينهـا

وقوله في مديح عمر بن عبد العزيز :

وليت ، فلم تشتم عليّاً ولم تخف ... بريّاً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
وما زلت سبّاقاً إلى كل غاية ... صعدت بهـا أعلى البناء المقدم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعدها من تـكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً ... وآثرت ما يبقى برأي مصمم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... منادٍ ينادي من فصيح وأعجم
يقول : أمير المؤمنين ، ظلمتني ... بأخذٍ لدينـار وأخذ لدرهم
ولا بسط كفٍ لامرىءٍ ظالم له ... ولا السفك منه ظالماً ملء محجم

وقوله في مديح عبد العزيز بن مروان :

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه ... صنيعـة تقوى أو خليل تخالقـه
منعت ، وبعض المنع حزم وقوة ... فلم يفتن ذاك المال إلا حقائقه
فبورك ما أعطى ابن ليلى بنيـة ... وصامت ما أعطى ابن ليلى وناطقه

أظنك توافقني على أن كثيّراً سدد لـكل من هؤلاء العظماء نظرة صادقة سبر بها غوره ونفذ إلى قرارة نفسه ووصفه بما ينطبق على أقواله وأعماله انطباقاً تاماً .

(هـ) خاتمــة :

والآن لنضع كثيراً في المنزلة التي يستحقها بين شعراء القرن الأول للهجرة ،

فليس ثمة ريب في أنه من ناحية النسيب دون أستاذه جميل سمو عاطفة ورقة شعور وصدق إحساس ولكنه قد يفوقه رصانة أسلوب وصفاء ديباجة . أما من حيث المديح فقد لا نغلو إذا لاحظنا أنه يبذ جريراً والفرزدق والأخطل في تحري أخلاق عظماء الرجال ومواهبهم ومناقبهم الحقيقية وتصويرها تصويراً صادقاً .

الفصل الثاني

جرير

(أ) حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مولده . أسرته . استرداد جده الخطفى مانحله من ماله . انسجام هذا وما يروى عن جرير بشأن أخلاق أبيه . عقوقه له . مقارنة بينه وبين الحطيئة . موقف أولاده منه . خشونة عيشه . منزلته عند الأمويين. خصومه من الشعراء . غلبته عليهم جميعاً سوى الفرزدق والأخطل. وفاته .

(ب) أخلاقه : عقوقه لأبيه . قذفه المحصنات . طمعه .

(ج) شعره : جمعه وطبعه . أبوابه . غزله على العموم : سر جماله . مثل منه . آراء وملاحظات . غزله الأصيل . مثل منه . رثاؤه : إخلاصه فيه . نموذج منه . هجاؤه : خشية الناس إياه . كيف يهجو الفرزدق ؟ كيف يهجو الأخطل ؟ كيف يهجو عمر بن لجأ التيمي ؟ ! بعض أساليبه الأخرى في الشجار . مثل من هجائه . مديحه : خاصته . مثل منه . فخره : أهم عناصره . مثل منه .

***

والآن لنتحدث عن المثلث الأموي الشهير ، وهو مؤلف من جرير والفرزدق والأخطل كما تعلم ، ونبدأ بجرير لأنه أطول الثلاثة باعاً وأرسخهم قدماً في صناعة القريض.

(أ) وهو جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفى (١) من يربوع ويربوع من تميم ، أي أنه ابن عم الفرزدق الذي سابّه مدة تقارب الأربعين سنة . وكنيته أبو حزرة وحزرة أكبر أولاده .

ولد باليمامة في خلافة عثمان . ومع أنه طالما فخر بنسبه يغلب على الظن أنه من أسرة خاملة لا شأن لها ، وفي أخباره ما يؤيد ذلك تأييداً تاماً .

روي أن جده الخطفى نحله شيئاً من ماله ولكنه استرد ما نحله إياه على أثر ولادة صبية ولدت له . وما أظن أن عربياً ذا مروءة يفعل هذا . ولقد كان لهذه الحادثة أثرها السيء في نفس جرير فعاتب جده عتاباً مراً أروي لك منه هذه الأبيات :

وقائلة والدمع يحدر كحلها ... أبعد جرير تكرمون المواليا ؟
فردّي جمال الحي ثم تحملي ... فما لك فيهم من مقام ولا ليا
وإني لمغرور أعلل بالمنى ... ليالي أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة ... فان عرضت أيقنت أن لا أباً ليا
وإني لعف الفقر مشترك الغنى ... سريع إذا لم أرض داري انتقاليا (٢)

---

(١) لقب بالخطفى لقوله في وصف الابل :

يرفعن بالليل اذا ما أسدفا ... أعناق جنان وهاماً أرجفا
وعنقاً بعد الرسيم خيطفا

(٢) وفد جرير على يزيد بن معاوية في أيام خلافته واستأذنه في الدخول عليه والانشاد بين يديه . فقيل له ان امير المؤمنين يقول : لا يدخل علينا شاعر لا نعرفه . فقال للحاجب : قل له انا القائل : « واني لعف الفقر ... الخ » وذكر بضعة ابيات من القصيدة ـ وكان يزيد قد انتحل هذه الأبيات في حادث جرى له مع ابيه ـ فأذن له وقال وهو يشير الى الأبيات : (لقد فارق ابي الدنيا وهو يعتقد اني قائلها) ثم قبل مدحته واحسن جائزته . وهناك شيء احب ان اقوله هنا وهو أن في رواية هذه الابيات خلافاً بين الأغاني والديوان من حيث الترتيب ومن حيث بعض الألفاظ وقد اخترت من كلتا الروايتين ما بدا لي انه الصواب .

جريء الجنان لا أهاب من الردى　　إذا ما جعلت السيف قبضي بنانيا
وليس لسيفي في العظام بقيـة　　وللسيف أشوى وقعة من لسانيا
بأي سنان تطعن القوم بعدما　　نزعت سنانًا من قناتك ماضيا

وللك أن تقارن بين حذيفة جدّ جرير الذي استرد ما وهب لحفيده لأن صبية ولدت له وبين صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق الذي كان يفدي الموؤدات أو المعرضات للوأد بديات يؤديها من ماله الخاص لتتبين الفرق بين نسب جرير ونسب الفرزدق . وعمل حذيفة المتقدم ذكره ينسجم كل الانسجام وما دل عليه جرير سائلاً سأله عن أشعر الناس من اعتقال أبيه عطية عنزاً وامتصاص ضرعها خشية أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن .

وقد حملت خسة عطية هذه ولده جريراً على عدم البر به كما حملت خفة أم الحطيئة ولدها على البرم بها ، ثم على هجائها أقطع الهجاء . وما دمنا قد قارنا بين جرير وبين الحطيئة من حيث ضعة النسب ومن حيث العقوق للوالدين فلنلاحظ أنهما سيّان كذلك من حيث النقمة على الناس والرغبة في التشفي منهم والتهجم على أقدارهم وأحسابهم . إلا أن خشية الحطيئة صرامة العقوبة على عهد الراشدين حملته على أن ينزه هجاءه عن الفحش ، بينما حمل تساهل الأمويين جريراً على أن يفحش في هجائه وأن يمعن في الفحش أيما إمعان . وقد ذاق جرير مرارة العقوق من أولاده[1] ولا سيما بلال ، إلا أن هذا لم يدهشه ، لأنهم كانوا يعيدون عليه ما رأوا وما شهدوا منه في معاملته لأبيه . وكان إلى هذا خشن العيش جم الحرمان ،

---

(١) كان لجرير بنتان وثمانية أولاد ذكور كلهم شعراء ، أكبرهم حزرة الذي كان يكنى به كما مر . ومن المعروفين منهم نوح وبلال وعكرمة الذي حمل آخر مدائحه الى هشام بن عبد الملك عندما اقعدته الشيخوخة عن زيارته والمثول بين يديه .

روي أنه اشترى جارية من رجل اسمه زيد فلم تلبث أن فركته[١] لأنها لم تصبر على خشونة عيشه . فقال في ذلك :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقّق والصناب[٢]

وقد عقّب الفرزدق على هذا بقوله :

لئن فركتك علجة آل زيد وأعوزك المرقّق والصناب
لقدماً كان عيش أبيك جدباً يعيش بما تعيش به الكلاب

وقد امتدح جرير طائفة من خلفاء بني أمية وأمرائهم ورجال دولتهم ؛ مدح يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وسليمان ويزيد وهشاماً أولاد عبد الملك ، ومدح عمر بن عبد العزيز ، ومدح عبد العزيز بن مروان ومسلمة بن عبد الملك ، وعبد العزيز والعباس ابني الوليد ، ومعاوية بن هشام ، ومدح الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخالد بن عبد الله القسري . مدح كل هؤلاء العظماء من رجال دولة بني أمية وغيرهم ، ولكنه لم يكن ذا مكانة مرموقة عند الأمويين . فأنت تعلم أن الحجاج لم يحجم عن إلقائه في بركة قصره عندما دخل مدينة واسط بدون إذنه . وأن عبد الملك لم يأذن له بالانشاد بين يديه إلا بعد شفاعة محمد بن الحجاج له ، وأن الوليد بن عبد الملك أراد أن يسرجه ويلجمه وأن يحمل شاعره الخاص عدي بن الرقاع على ظهره لتطاوله عليه وتعرضه له . وأن عمر بن عبد العزيز قرنه وصاحبه عمر بن لجأ التيمي في حبل وشهرهما في المدينة عندما تجاوزا حدود الأدب في تهاجيهما . ولكنهم ـ أعني الأمويين ـ كانوا يقبلون مدائحه ويجزلون صلته وهذا هو كل ما يهمه .

ومما تجب الاشارة إليه في الكلام عن حياة جرير كثرة خصومه من

---

(١) فركت المرأة زوجها : كرهته .
(٢) المرقق : الخبز الرقيق . والصناب : شيء يتخذ من الخردل والزبيب .

الشعراء، فقد تألب عليه أكثر من أربعين شاعراً بينهم المدافع عن عرضه وشرفه كالفرزدق، وبينهم المدفوع بحكم ضرورة أخرى إلى ملاحاته ومهاجاته كالأخطل، وبينهم المتعرض له والمتحرش به طمعاً بأن يقترن اسمه باسمه ويسير شعره إلى جنب شعره في الآفاق كعمر بن لجأ التيمي، فهزمهم وأفحمهم سوى اثنين منهم هما الفرزدق والأخطل. ولم يخز بهجائه شاعر كما خزي به عبيد الراعي الذي قال فيه بائيته التي مطلعها:

أقلّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

والتي يقول فيها:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فقد تشاءم بعبيد بعد هذا قومه وسبوه وولده الذي حمل جريراً بنزقه وسوء تصرفه على هجائه وهجاء أبيه وعلى هجائهم في النهاية. وكانت شاعرية جرير الفذة تسلية الراعي الوحيدة فيما أصابه من الخزي وسوء الأحدوثة: روي أنه سمع ذات يوم رجلاً ينشد:

وعاوٍ عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما (١)
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانيّ إذا هزّ صمما (٢)

فسأله: لمن هذان البيتان؟ قال هما لجرير فقال: لعن الله من يلومني على أن يغلبني مثل هذا.

وعمّر جرير حتى أربت سنه على الثمانين وشهد موت الأخطل والفرزدق وهجاهما بعد موتهما فقال في الأول:

زار القبور أبو مالك فكان كألأم زوارها

---

(١) الانفاذ: جمع نفذ وهو الخرق الذي تحدثه الطعنة وما يجري مجراها.

(٢) القرى: الظهر.

وقال في الثاني :

مات الفرزدق بعدما جدّعته ليت الفرزدق كان عاش قليلا

وليم في هجاء الفرزدق بعد موته فندم ورثاه . وتوفي بعده بعـدة أشهر زعموا أنها ستة وقد قيل غير ذلك . والرواة مختلفون في تاريخ وفاة الفرزدق كما سيجيء لـكن الراجح هو أنه توفي عام (١١٤) للهجرة فتكون وفاة جرير إذن في العام السالف ذكره .

(ب) أخلاقه : المعروف أن جريراً كان متديناً عفيفاً ، ولـكني أشك في أن يكون ذا عقيدة دينية راسخة تسيطر على نزعاته وتهذب من أخلاقه، لأنه لو كان كذلك لحمله دينه على البر بأبيه ونهاه عن التهجم على أعراض الناس وأحسابهم . وأكبر الظن عندي أنه كان يصطنع الدين لأن الفرزدق لا يتقيد به ، ويصطنع العفة كذلك لأن الفرزدق كان متجاهراً بالفسق . وقد اعتذر عن قذفه المحصنات بأن أولياءهن يبدأونه ولم يكن الصفح من أخلاقه . على أنه لو كان متديناً حقـاً لعمل بقول القرآن « واصفح الصفح الجميل » . ثم ألم يكن يجد ـ وهو الشاعر الفحل ـ في ضروب الهجاء المختلفة مندوحة عن نهش أعراض المحصنات ورميهن بأنواع المنكرات ؟ ألم يكن الحطيئة قبله شاعراً هجاءاً مرهوب اللسان دون أن يلوث هجاءه بفاحش القول وساقطه ؟ وأخيراً ، ألم يخز هو عبيداً الراعي وقومه نميراً ببيت واحد لا فحش فيه ولا هجر هو قوله : (فغض الطرف ...الخ) ؟! الواقع أن الدين كلمة على لسانه لا أثر لها مطلقاً في نفسه .

وكان علاوة على ما تقدم كثير الطمع شديد الجشع . أوفده الحجاج مع ابنه محمد على عبدالملك بن مروان تقرباً له بمديحه وأعطاه فيما أعطاه قبل إيفاده عشرة أعبد، ولـكنه ما كاد يمدح عبدالملك حتى قال له إن أولاده يتضورون جوعاً وإنهم يعيشون على الماء القراح وإنه وهم ينتظرون عطاء الخليفة ليتقوا به غائلة الجوع، ولعل الأبيات

التالية أصدق صورة لفاقة جرير النفسية ورغبته الملحة في الاستعطاف والاستجداء. قال:

أشكو إليك فأشكني ذرية لا يشبعون وأمهم لا تشبع
كثروا عليّ فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المرضع
وإذا نظرت يريبني من أمهم عين مهجّجة وخد أسفع[(١)]
وإذا تقاسمت العيال غبوقها كثر الأنين وفاض منها المدمع
رشني، فقد دخلت عليّ خصاصة مما جمعت، وكل خير تجمع

(ج) شعره: لجرير شعر جم طبع جزء كبير منه في (مناقضات جرير والفرزدق) التي نشرها المستشرق الانكليزي (بيفن) Bevan في ثلاثة مجلدات ضخمة ظهرت بين سنتي ١٩٠٥ و١٩١٢. وطبع جزء أكبر منه في في المجموعة التي أصدرها محمود عبد المنعم الشواربي عام (١٣١٣) للهجرة وضمنها على سبيل الاستطراد قصائد ومقطوعات كثيرة لغير جرير، ولكنه سماها (ديوان جرير). ونشرت طائفة منه في مجموعة (نقائض جرير والأخطل) التي نشرها الأب صالحاني عام (١٩٢٢)، وطبع كله في ديوان عني بجمعه وطبعه الأستاذ محمد إسماعيل الصاوي عام ١٣٥٣ للهجرة.

وقد اشتمل هذا الديوان على كل باب من أبواب الشعر، فكان فيه الغزل، وكان فيه الرثاء، وكان فيه الفخر، وكان فيه العتاب، وكان فيه الوصف. أما المديح والهجاء فانهما يحتلان المقام الأول في هذا الديوان كما هو معلوم وقد نجح جرير في معالجة كل باب من هذه الأبواب سوى الوصف، نجاحاً لا شبهة فيه ولا غبار عليه.

غزله: يعتقد بعض النقاد القدماء أن جريراً أنسب العرب لقوله:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يحيين قتلانا

(١) مهجّجة: غائرة. والأسفع: هو الذي يعلو حمرته سواد.

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهناك من يرفعه إلى أعلى مكانة في عالم النسيب لقوله :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ويحدثنا هو عن قدرته الفائقة على صوغ بدائع النسيب فيقول:(لولا ما شغلني من هذه الكلاب ــ « يعني خصومه من الشعراء » ــ لشببت تشبيباً تحن منه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقبها) . والذي نعتقده هو أن غزل جرير رقيق جذاب على العموم إلا أنه غير أصيل . وهو كذلك لأن جريراً لم يكن عاشقاً عفيفاً شديد اللوعة كجميل بن معمر وقيس بن ذريح ؛ ولم يكن غزلاً ماجناً كعمر بن أبي ربيعة والعرجي،وإنما كان- كما يستشف من شعره ـ رقيق الاحساس حي الشعور خصب الخيال ومن شأن هذه المزايا أن تهيّء لصاحبها قدرة عجيبة على صوغ بدائع النسيب وروائع الغزل . وهذا ما حصل لجرير بالفعل ؛ فقد رق نسيبه وجاد غزله إلى درجة يخيل لك معها أن قائله ممن ذاق مرارة الحب وتقلب على جمر الهوى . أتريد برهاناً على ذلك ؟ إقرأ قوله :ـــ

بنفسي من تجنبه عزيز عليّ ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام
أليس لما طلبت فدتك نفسي قضاء أو لحاجتي انصرام ؟
أتنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامة ؟ سقي البشام
تركت محائمين رأوا شفاءاً فحاموا ثم لم يردوا وحاموا

وقوله :

يا أم عثمان إن الحب عن عرض يصبي الحليم ويبكي العين أحيانا

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياك من أسباب دنيانا
يلقى غريمكم من غير عسرتكم بالبذل بخلاً وبالاحسان حرمانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمني لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
أبدّل الليل لا تسري كواكبه ؟ أم طال حتى حسبت النجم حيرانا
يا رُبَّ عائذةٍ بالغور لو شهدت عزت عليها بدير اللجّ شكوانا
يا حبذا جبل الريان من جبلٍ وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانيةٍ تأتيك من قبل الريان أحيانا
هل يرجعنّ وليس الدهر مرتجعاً عيش بها طالما احلولى ومالالنا
أزمان يدعونني الشيطان من غزلي وكن يهويني إذ كنت شيطانا

أظن أنك لو قرأت هذا النسيب في ديوان جميل بن معمر لما أنكرت وجوده فيه ،ولكن حذار أن تستنتج منه أن جريراً تبع نساء تأسره النظرة وتغويه الكلمة وتستهويه الابتسامة ، فليس في أخباره ما يدل على أنه كان كذلك في يوم من الأيام . وليس في غزله ما يدل حقيقة على أنه كان كذلك في يوم من الأيام . وكل مافي الأمر أنه أوتي من دقة الحس ورقة العاطفة ولطف الخيال ما مكنه من أن يخلع على عامة غزله هذه المسحة الغرامية المستطرفة .

على أن في صدور بعض مدائحه وأهاجيه غزلاً أصيلاً هو هذا الذي يشبب فيه بزوجتيه خالدة المكناة بأم حزرة، وأمامة والدة ابنته زينب . وأسرع فأقول لك إن هذا الغزل الواقعي لا يمتاز عن غيره من غزل جرير إلا بكونه قد قيل في امرأة حقيقية لا في عروس من عرائس الخيال والوهم . ولكي تتحقق صحة هذا الزعم أروي لك منه الأبيات التالية التي يتغزل فيها جرير بزوجته خالدة . ويغلب على الظن أنه قال فيها هذه الأبيات قبل أن يبني بها قال جرير :

أخالد عاد وعدكم خلابا[١] ومنيت المواعيد والكذابا
ألم تتبيني كلفي ووجدي غداة يردّ أهلكم الركابا[٢]
أهذا الود زادك كل يوم مباعدةً لالفك واجتنابا
لقد طرب الحمام فهاج شوقاً لقلب ما يزال بكم مصابا
ونرهب أن نزوركم عيوناً مصانعة لأهلك وارتقابا
فما باليت ليلتنا بنجدٍ ودمع العين ينحدر انسكابا[٣]
لذكرك حين فوّزت المطايا على شرك تخال به سبابا[٤]
ألا ياقلب مالك إذ تصابى وهذا الشيب قد غلب الشبابا
كما طرد النهار سواد ليلٍ فأزمع حين حل به الذهابا[٥]
سأحفظ ما زعمت لنا وأرعى إياب الود إن له إيابا
وليل قد أبيت به طويلٍ لحبك ما جزيت به ثوابا
بنفسي من أزور فلا أراه ويضرب دونه الخدم الحجابا
أخالد لو سألت علمت أني لقيت بحبك العجب العجابا

فأنت ترى أن هذه القطعة الغزلية الأصيلة وهي من خير ما قال صاحبنا في

---

(١) الخلاب : المخادعة .
(٢) يردونها من المراعي ليحتملوا الى محاضرهم .
(٣) ربما كانت (ينسكب انسكابا) .
(٤) فوزت : ركبت المفازة . وشرك : اسم موضع ، وسباب : جمع سب : وهو القطعة من الكتان .
(٥) ليس لدي ما يثبت أن جريراً أخذ معنى هذين البيتين من الفرزدق ، أو أن الفرزدق أخذه منه حيث يقول :

قالت وكيف يميل مثلك للصبا وعليك من سمة الحليم وقار
والشيب ينهض بالشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

ولكن الذي لا شك فيه هو أن بيتي الفرزدق انقى ديباجة وأرق اسلوباً من بيتي جرير .

هـذا الباب لا تختلف في شيء وما تقـدم ذكره من غزله التقليدي ، ذلك لأن الشاعر في كل ما رويت لك من غزله متوقد اللوعة شديد الكلف حاد الألم ، ولأن حبيبته في كل ما رويت لك من غزله نافرة هاجرة تعد ولا تنجز وتمني ولا تنيل . ولـكن جريراً محسن كل الاحسان في كل من غزله الواقعي وغزله التقليدي على حد سواء .

رثاؤه : وكما واتى جريراً طبعه في النسيب فبرع فيه براعة تامة واتاه طبعه كذلك في الرثاء فأجاد فيه إجادة غير قليلة . ولست أنكر أنه يغلو في رثائه أحيانًا ، فيزعم أن البحار نضبت والأرض مارت والجبال دكت حزنًا على الفقيد . ولـكني أقول إنه يخلص في أكثر رثائه إخلاصًا كافيًا ، فيذرف الدمعة السخينة ويعبر عن اللوعة المبرحة ، ويصف أثر المصيبة في نفسه أو في نفوس من حلت بهم وصفًا رائعًا مؤثراً ، إقرأ رثاءه لزوجته ولابنه سوادة ولأخويه عمرو وحكيم وللوليد بن عبد الملك ولجبير بن عياض تجد أن ما أقوله حق لا مراء فيــه . وأغرب ما يلاحظ في هذا الصدد رثاؤه البليغ للفرزدق ، ذلك الرثاء الذي لا تـكاد تلمس فيه أثراً للرياء أو المجاملة ، وأنا أروي لك إحدى مراثيه العديدة لخصمه وابن عمه لأضع بين يديك مثلاً من رثائه الممتاز ولتشاطرني الشعور بغرابة هذا الرثاء ، قال جرير :

لعمري لقد أشجى تميماً وهدها ... على نكبات الدهر موت الفرزدق
ثوى حامل الأثقال عن كل مغرم ... ودامغ شيطان الغشوم السملّق (١)
عمـاد تميم كلهـا ولسـانهـا ... وناطقها البذاخ في كل منطق
فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب ... وجارٍ وعان في السلاسل موثق (٢)

(١) السملق : الصخاب .
(٢) في الديوان (لجار) والصواب ما أثبتناه .

ومن ليتيم بعد موت ابن غالب   وأم عيال ساغبين ودردق[1]
ومن يطلق الأسرى ومن يحقن الدما   يداه ويشفي صدر حران محنق
فكم[2] من دم غال تحمل ثقله   وكان حمولاً في وفاء ومصدق
وكم حصن جبار همام وسوقة   إذا ما أتى أبوابه لم تغلّق
فتىً عاش يبني المجد تسعين حجةً   وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

هجاؤه : أبرع من غزل جرير ورثائه هجاؤه الذي امتاز به بين شعراء عصره والذي أكسبه شهرة مخيفة وسمعة هائلة .

روي أنه مر بقرية اسمها (عزولاء) فأناخ راحلته على باب رئيسها وهو الأخرم بن أخضر الوائلي فعبث الصبيان براحلته فتحول عن هذه القرية إلى أخرى ونزل عند رجل يقال له عبد الله بن بدر السحيمي فنحر له وأكرمه . وجاء الاخرم، فرأى آثار رحل جرير، فقال لأهله : « ما هذا ؟ » قالوا : « إنسان يقال له جرير بن الخطفى أناخ فعبث الصبيان براحلته فتحول إلى عبد الله » فنادى : « يا سوء صباح بنى مازن » - وكان مطاعاً في قومه - فجمع نساءهم وأجلسهن على أكمة ثم قال لهن : « إذا قلت لكن قد جاء ، فانهضن والطمن الوجوه وقلن : « ياسوء صباح نسوة بني مازن، وتعوّذن به » ، فلما أقبل جرير فعلن ذلك، وكان قد هجا عزولاء وأهلها بقوله :

إذا شاع السلام بأرض قومٍ   فليس على عزولاء السلام
منيزلة تبرّا الله منها   بها من مازن نفر لئام

فقال لهن : « أما البيتان فقد مضيا، وقد وهبت لكنّ ما سوى ذلك » . ونحر له الأخرم وأكرمه ، وأقام جرير عنده يوماً .

---

(١) الدردق والدرادق : الصغار .
(٢) في الديوان (وكم) .

ولدى جرير صنوف مختلفة من الهجاء أعد كلاً منها لمقارعة خصم من خصومه. فآل مجاشع ـ رهط الفرزدق ـ جبناء أذلاء لا يحمى لهم ذمار ولا يعز لهم جار تذكرهم قريش دائماً بالسوء لأنهم غدروا بالزبير حواري رسول الله (ص) ولم يعصموه من القتل، وهم قيون[1] أولو أكيار وفؤوس ومساحي، يصقلون السيوف ولكنهم لا يحملونها في يوم قتال، ثم هم بعد هذا وذاك ذوو أعراض ملوثة وأحساب غير مشرفة لا يملكون مثقال ذرة من الغيرة على محارمهم، ولهم من تاريخ ليلى أم الفرزدق وجعثن أخته ما يفضحهم في كل محفل ويخزيهم في كل موسم، هذا إلى أن الفرزدق فاسق فاجر لا دين له ولا مروءة. والتغلبيون رهط الأخطل كفرة فجرة يشربون الخمر ويأكلون الخنزير ويعبدون الصليب ويؤدون الجزية (ويسمون الفليس ولا يسمون عبد الملك ولا هشاماً) وهم بعد ذلك أصحاب فاقة وأرباب ذلة ومسكنة. وآل التيم قوم عمر بن لجأ وضعاء صعاليك قلّو فذلوا وخبثت أصولهم فخبثت فروعهم، (كريمهم لئيم وسيدهم مسود). وجرير يقاضي خصومه إلى ذوي الرأي والانصاف من قريش وغيرها من القبائل لأنه واثق بعدالة قضيته، وهو يناشد الناس من حين لآخر: ألا يعلمون من يقف المواقف الباسلة المشرفة ويعطي السيف حقه في ساحات القتال والنضال؟! وقد تسألني أن أروي لك شيئاً مما يسمح الأدب بروايته من هجاء جرير فاسمع قوله في هجاء الفرزدق عندما نفاه مروان بن الحكم من المدينة لاقراره على نفسه بالزنا في رائيته التي مطلعها: (ألا من لشوق أنت بالليل ذاكره): ـ

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً   فجاءت بوزوازٍ قصير القوائم[2]

---

(١) كان لصعصعة جد الفرزدق قيون يعملون له فتخذ جرير من ذلك سبباً للطعن في الفرزدق وآبائه.

(٢) الوزواز: الطياش الخفيف. قصير القوائم: قصير الرجلين.

يوصّل حبليه إذا جن ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم
أتيت حدود الله مذ أنت يافع ... وشبت فما ينهاك شيب اللهازم[١]
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم[٢]
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم ... طهوراً لما بين المصلى وواقم[٣]
تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلى والمكارم

وقوله في هجاء الأخطل وقومه :

إنا نفضل في الحياة حياتنا ... ونسود من دخل القبور قبورا
الله فضّلنا وأخزى تغلباً ... لن تستطيع لما قضى تغييرا
فينا المساجد والامام ولا ترى ... في دار تغلب مسجداً معمورا
تلقى إذا اجتمع الكرام بموطن ... أشراف تغلب سائلاً وأجيرا
لعن الاله نسيّة من تغلب ... يرفعن من قطع العباء خدورا
الجاعلين لمار سرجس حجّهم ... وحجيج مكة يكثر التكبيرا
لقي الاخيطل أمه مخمورة ... قبحاً لذلك شارباً مخمورا
لم يجر مذ خلقت على أنيابها ... ماء السّواك ولم تمس طهورا

وقوله في هجاء التيم وصاحبهم عمر بن لجأ :

لئام العالمين كرام تيم ... وسيدهم وإن رغموا مسود
وإنك لو لقيت عبيد تيم ... وتيماً قلت : أيهم العبيد؟
أرى ليلاً يخالفه نهار ... ولؤم التيم ، ما اختلفا ، جديد

---

(١) اليافع : الغلام اذا ناهز البلوغ . اللهزمة : عظم ناتئ في اللحي تحت الأذن والمراد بشيب اللهازم : شيب شعر الوجه .

(٢) الرجس : القذر يطلق مجازاً على الرجل الفاسق .

(٣) المصلى : موضع في المدينة . وواقم : حصن فيها .

بخبث البذر ينبت حرث تيم فما طاب النبات ولا الحصيد
ومالكم الفوارس يا ابن تيم ولا المستأذنون ولا الوفود
أهانك بالمدينة يا ابن تيم أبو حفص وجدّعك الوليد
وإن الحاكمين لغير تيم وفينا العز والحسب التليد
وإن التيم قد خبثوا وقلوا فما طابوا ولا كثر العديد

مديحه : أما مديح جرير فانه وصف محكم لأخلاق عظماء الرجال ، وتصوير صادق لما في أيديهم من ملك وسلطان ولما يتمتعون به من حول وطول ، واستجداء دائم متصل،ذلك لأنه لا يكاد يمدح خليفة أو أميراً أو وزيراً أوقائداً أو وجيهاً حتى يقول له إنه مسكين وابن سبيل قد كثر عياله وقلّ رزقه،وإن معونته عمل مبرور لا ينبغي أن يفوته . وغني عن البيان أنه إذا كانت الرغبة في الحصول على الجائزة هي التي تملي على شاعر المديح ما يقوله في عظماء الرجال فلا محل للبحث عن الاخلاص في مديحه . هذا فضلاً عن أن جريراً حرّض الوليد بن عبد الملك على إقصاء أخيه سليمان عن ولاية العهد وعقد البيعة لابنه عبد العزيز من بعده ،ثم إنه مدح سليمان بن عبد الملك وهنأه بالخلافة عندما ارتقى إلى منصة الملك بعد وفاة أخيه الوليد . على أن هذا كله لا يحملنا طبعاً على الغض من غرر جرير الرائعة التي وصف بها أعمال عظماء عصره وأخلاقهم وشيئاً لا بأس به من أحوالهم. فمن تلك الغرر قوله في مدح هشام .

شققت من الفرات مباركات جواري قد بلغن كما تريد
وسخرت الجبال وكن خرساً يقطع في مناكبها الحديد
بلغت من الهنيء فقلت شكراً هناك وسهّل الجبل الصلود
بها الزيتون في غلل ومالت عنا قيد الكروم فهن سود (١)

(١) الغلل : الماء الجاري تحت الشجر .

قدمت في الهني، جنان دنيا ... فقال الحاسدون هي الخلود(١)
يعضون الأنامل إن رأوها ... بساتينا يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل ... يكون بحمله طلع نضيد
تهنأ للخليفة كل نصر ... وعافية يجيء بها البريد
رضينا أن سيبك ذو فضول ... وأنك عن محارمنا تذود
وأنكم الحماة بكل ثغر ... إذا ابتلت من العرق اللبود(٢)

وقوله في مدح عبد العزيز بن الوليد :

إذا قلت لي عبد العزيز كفيتني ... زمانا فشت علاته ومباخله
فيومان من عبدالعزيز تفاضلا ... ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تحوط المسلمين جياده ... ويوم عطاء ما تغب نوافله
وللترك من عبدالعزيز وقيعة ... وللروم يوم ما تتم حوامله(٣)
فما وجدوا عبدالعزيز مغمرا ... ولا ذا سقاط عند أمر يحاوله(٤)
ولا جافيا عن قائم السيف قبضه ... إذا الفشل الرعديد قفت أنامله
فلا هو من الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فهذا بديع ليس في الناس مثله ... وهذا مديح لا يكذب قائله
أبينا فما يدعو إلى غيرك الهوى ... وما من خليل بابن ليلى نبادله

وقوله في مدح الحجاج :

دعوا الجبن يا أهل العراق فانما ... يباع ويشرى سبي من لا يقاتل

---

(١) الهني، والمري، : نهران حفرها هشام في الرقة .

(٢) اللبود : جمع لبدة وهي ما يلي السرج .

(٣) لعجز هذا البيت صلة ظاهرة بقوله تعالى « يسم : يوم تضع كل ذات حمل حملها » .

(٤) مغمر : بكسر الميم الثانية مغامر أو مجازف . السقاط : الزلة أو هو جمع السقطة .

لقد جرّد الحجاج بالحق سيفه ... لكم فاستقيموا لا يميلنّ مائل
فما يستوي داعي الضلالة والهدى ... ولا حجة الخصمين حق وباطل (١)
وأصبح كالبازي يقلب طرفه ... على مربأ والطير منه دواحل (٢)
وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم ... سويّا ولا عند المراشاة نائل
ومن غلّ مال الله غلّت يمينه ... إذا قيل أدّوا ، لا يغلّن عامل (٣)
وما نفع المستعملين علوهم ... وما نفعت أهل العصاة الجعائل
أطيعوا فلا الحجاج مبق عليكم ... ولا جبرئيل ذو الجناح حين غافل (٤)
تمنى شبيب منية سفلت به ... وذو قطريّ لفّه منك وابل
تقول فلا تلقى لقولك نبوة ... وتفعل ما أنبأت أنك فاعل

فليس من شك في أن المثال الأول وصف رائع لمجهود عمراني خطير تم على يد ملك عظيم عالي الهمة . وأن المثال الثاني صورة صادقة لأمير فتيّ فياض اليدين بالعطاء شديد الوطأة على أعداء بلاده مستمسك بدينه مستمتع بدنياه جامع لشتى المحاسن والمحامد . وأن المثال الثالث كفيل باعطاء فكرة قوية كل القوة عن سطوة الحجاج الرهيبة وسياسته الحازمة القاهرة وقدرته الهائلة على قمع الفتن والاضطرابات وتوطيد دعائم الأمن والطمأنينة .

فخره : ولا أريد أن أختم هذا الفصل دون أن أقول كلمة في فخر جرير ؛

( ) يشير هذا البيت الى قوله تعالى « اسم : أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ . »

(٢) الدواحل : جمع داحل وهو المستتر الخائف ، ويروى دواخل .

(٣) غل : خان .

(٤) اقتبس جرير عجز هذا البيت من قوله تعالى « بسم : ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

وأحسن ما في هذا الفخر تبجح صاحبه ببراعة خاطره وخصب مخيلته وقوة عارضته وقدرته الفائقة على تمزيق شمل خصومه وتحطيمهم واحداً بعد واحد . فعنده أنه بالنسبة إليهم (بازٍ يصكّ حباريات) وأنه سيسمهم ما دام حياً فاذا مات فسيسمهم بعده حمزة وبلال . ومن جيد شعره في هذا الباب قوله :

أعددت للشعراء سماً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضغا[1] البعيث جدعت أنف الأخطل

ولجرير فخر كثير بآبائه وأجداده يغلب على الظن أنه محض ادعاء .

---

(١) ضغا : استخذى

الفرزدق

(أ) حياته : اسمه . نسبه . لقبه وكنيته . مولده ونشأته . شاعريته . أخباره عبث الرواة بها . بعض ما فيها من آثار الافتعال . ما يصح منها . ما حدث له مع زياد بن أبيه . فراره إلى المدينة . ما جرى له مع النوار وعبدالله بن الزبير . صلته بخالد بن عبدالله القسري سجنه . مهاجاته لجرير . توبته . وفاته .

(ب) صفاته : فسقه . تيهه . تناقضه . كرمه . سرعة خاطره .

(ج) شعره : جمعه وطبعه .

غزله : ـ أصالته ، لغته ، بعض ما يستحسن منه .

رثاؤه : ـ عناصره ، ماذا ينقصه ، مثل منه .

هجاؤه : ـ مخافة الناس إياه ، خلو بعضه من الفحش ، ظرفه ودعابته ، بعض ما تجوز روايته منه .

مديحه : ـ تناقضه ، ما فيه من متعة وفائدة ، مثل منه.

فخره : ـ مقاصده وأغراضه ، مثل منه .

وصفه : ـ صدقه وجودته. مثل منه

ما لشعره من القيمة التاريخية على العموم . مقارنة بينه وبين جرير والأخطل من هذه الناحية . عنايته بالشؤون العامة .

***

(أ) حياته : هو همام بن غالب بن صعصعة، من دارم، ودارم أكبر بطن من تميم.

والفرزدق ـ وهو من أسماء الرغيف أو العجين ـ لقب غلب عليه لسماجة وجهه أو لتأثره بالجدري وهو الأصبح . وكنيته أبو فراس (وهي من كنى الأسد) .

ولد في خلافة عمر (رض) بالبصرة ، ونشأ في باديتها ، فغلبت عليه البداوة بما فيها من غلظة وجفاء ، حتى أنها أضعفت سلطان الدين على نفسه إضعافاً شديداً . ويظهر أن أباه تفرس فيه القدرة الفائقة على قرض الشعر فأخذه بروايته ونظمه . وقصة تقديمه إياه إلى الامام عليّ عليه السلام ـ على أنه موشك أن يكون شاعراً مجيداً ـ مشهورة . ويحدثنا المترجم في خبر يرويه صاحب الأغاني أنه ورث الشعر عن خاله العلاء بن قرظة الذي يقول :

إذا ما الدهر جرّ على أناس ... بكلكله أناخ بآخرينا
فقل الشامتين بنا : أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا(١)

وأخبار صاحبنا كثيرة جداً ، وفيها الشيء الكثير من التناقض والاضطراب ، والشيء الكثير كذلك من الاختلاق المحض والكذب الذي لا غبار عليه. فمن أمثلة التناقض في أخباره ما يروى في خبر من أن مروان بن الحكم نفاه من المدينة وكتب إلى أحد عماله أن يحده لاقراره على نفسه بالزنا في قصيدته التي مطلعها: « ألا من لشوق أنت بالليل ذاكره ... الخ » . وفي خبر آخر أن مروان نفاه من المدينة لفسقه وتهتكه ، ولكنه أحاله على أحد عماله بمئتي دينار . ومن أمثلة الاختلاق في أخباره قصة الجارية التي يزعم الرواة أن سكينة بنت الحسين

(١) في الأغاني ج ١٩ ص ٥ أن صعصعة جد الفرزدق شاعر، ومن شعره قوله:

اذا المرء عادى من يودك صدره ... وكان لمن عاداك خدناً مصافيا
فلا تسألن عما لديه ، فانه ... هو الداء لا يخفي بذلك خافيا

ولكن يغلب على ظني أن صعصعة لم يكن شاعراً وأن البيتين منحولان لأنهما أشبه بشعر المولدين منهما بشعر الجاهليين .

بن علي (ع س) أعطتها إياه بعد أن وبخته وطردته ثلاث مرات .

ولكن ما يصح من هذه الأخبار كثير أيضاً ؛ من ذلك ما أجمع عليه الرواة من أن الفرزدق كان يهاجي بني فقيم وبني نهشل، و كلتا الطائفتين من دارم رهط الفرزدق ؛ فشكوه إلى زياد بن أبيه وهو يومئذ عامل معاوية على العراق ، فطلبه لينصف خصومه منه . ويظهر أنه كان مدركاً شدة العقوبة التي تنتظره ؛ ففر إلى المدينة ، واستجار بسعيد بن العاص عامل معاوية عليها ، فأجاره . ولم يزل مقيماً في الحجاز تحسن حاله مرة وتسوء أخرى ، تبعاً لمعاملة الوالي إياه ، إلى أن توفي زياد بن أبيه . وقد تركت هذه الرحلة آثاراً بارزة في شعره لأنه مدح فيها أناساً وهجا آخرين وذاق ترف المدينة وعرف حضارتها واختلف إلى قيانها وتغزل بهن ، متصوناً مرة ومتهتكاً تارة . ومن أخبار الفرزدق التي لا يختلف فيها الرواة خبره مع ابنة عمه النوار بنت أعين المجاشعية التي كان وليّ أمرها فطلبت إليه أن يزوجها من رجل رضيته فاحتال عليها وأشهد عليها أناساً بأنها قد فوضت أمرها إليه ، فلما فعلت ذلك جاء مسجد بني مجاشم وألقى خطبة زوج بها نفسه من النوار ، فنفرت هذه منه وشخصت إلى عبدالله بن الزبير ـ وهو يومئذ وليّ الأمر في الحجاز والعراق ـ لترفع ظلامتها إليه. وشخص الفرزدق في نفس الوقت ليدافع عن وجهة نظره واستشفع إلى ابن الزبير بابنه حمزة، واستشفعت النوار إليه بزوجته خولة بنت منظور بن زبان الفزارية . فقضى ابن الزبير للنوار في بدء الأمر ثم عاد فأصلح بين الشاعر وابنة عمه بعد أن حمله على أداء مهر لها قدره عشرة آلاف درهم أداها عنه سلم بن زياد . وقد تركت هذه الحادثة أيضاً أثراً غير قليل في شعره لأنه هجا فيها أناساً عديدين ومدح أناساً عديدين كذلك، هجا بني أم النسير لأنهم حملوا النوار إلى الحجاز، وهجا ابن الزبير نفسه لأنه قضى لها في بدء الأمر ، ومدح حمزة بن عبدالله بن الزبير طلباً لشفاعته عند أبيه ، ومدح سلم بن زياد

المتقدم ذكره ليعينه على أداء مهر النوار .

ومما لا سبيل إلى الشك فيه خبر سجن خالد بن عبدالله القسري إياه بسبب هجائه له ولصاحب شرطته مالك بن المنذر ولنهر احتفره اسمه المبارك .(١) على أنه من المفيد أن نلاحظ أن صلة الفرزدق بخالد القسري كانت سيئة جداً قبل أن يأمر بحفر المبارك وقبل تسخيره الناس في حفره ظلماً وعدوانا . يدلك على ذلك أنه لما أمر خالد بضرب رئيس حجبة الكعبة ، لأنه لم يفتح أبوابها له وشخص هذا إلى سليمان بن عبد الملك يشكو ظلامته إليه ، أعان الفرزدق الشيبي على خالد وقال أبياتاً حرض بها سليمان على البطش بخالد ، فاشتد غضب سليمان وأمر بقطع يد القسري ؛ إلا أن يزيد بن المهلب كان حاضراً ، فتضرع إلى سليمان في أن يعفو عن يد خالد وأن يعاقبه بصورة أخرى، فأجابه إلى ملتمسه وأمر بضرب خالد مئة سوط ، وهنا عاد الفرزدق إلى إظهار كرهه لخالد فهجاه بأبيات يقول في أولها :

لعمري لقد صبت على ظهر خالد ٭ شآبيب ما استهللن من سبل القطر

وعندما ولِّيَ خالد العراق على عهد هشام هجاه الفرزدق بمقطوعات عديدة ، وكانت أم خالد هذا نصرانية فكان الفرزدق يتخذ من نصرانيتها سبباً للطعن فيه والغض منه . ويظهر أن خالداً كان يحلم عن الفرزدق منتظراً أن يرتدع عن غيّه ويكف عن هجائه دون أن يلجأ إلى معاقبته ، إلا أنه يئس من هذا فانتهز فرصة هجائه إياه وتنديده بالسياسة التي اتبعها في حفر المبارك وألقاه في غيابة

---

(١) هجا الفرزدق خالد بن عبد الله القسري وصاحب شرطته مالك بن المنذر ونهر المبارك بقوله :

أأهلكت مال الله في غير حقه ٭ على نهرك المشؤوم غير المبارك
وتضرب أقواماً براء ظهورها ٭ وتترك حق الله في ظهر مالك
أأنفاق مال الله في غير كنهه ٭ ومنعاً لحق المرملات الضرائك

السجن . ويبدو أنه أمر باساءة معاملته،فضاق المترجم ذرعاً بهذه العقوبة وأكثر من التنصل من هجاء خالد والمبارك ، بل إنه مدحهما في قصائد ومقطوعات عديدة ولكن خالداً أعاره أذناً صماء فمدح هشاماً وأسد بن عبدالله القسري ومالك بن المنذر نفسه ، وأكد في هذه المدائح أنه لم يقل شيئاً مما نسب إليه بصدد المبارك ، وأن الأبيات المروية له في هذا الشأن مختلقة منحولة ، وادعى في بعض قصائده أنه أخذ على حين غرة وأنه لو شعر بسوء نية مالك نحوه لتعذر عليه سجنه، وأنه إنما سجن لأنه سري ثري :

فان أك محبوساً بغير جريرة ... فقد أخذوني آمناً غير خائف
وما سجنوني غير أني ابن غالب ... وأني من الأثرين غير الزعانف
ولو كنت أخشى خالداً أن يروعني ... لطرت بوافٍ ريشه غير جادف (١)
كما طرت من مصري زيادٍ وإنه ... لتصرف لي أنيابه بالمتالف

وقد تركت هذه الحادثة أثراً قوياً جداً في نفس الفرزدق وشعره ، لأنها أنطقته بقصائد ومقطوعات تمد أبياتها بالمئات . ولعل الفرزدق أول من وصف السجن وتحدث عنه باسهاب من شعراء العرب . وسنشير إلى بعض أخباره الأخرى عند الكلام عن أخلاقه .

وقد اقترن اسم الفرزدق باسم جرير لتهاجيهما نحواً من أربعين سنة ، ويقال في سبب تهاجيهما إن جريراً كان يهاجي شاعراً مجاشعياً اسمه البعيث فغلبه وظهر عليه ، وتعرض على جاري عادته في الهجاء لنساء بني مجاشع فأساء إلى سمعتهن وتهجم على شرفهن . فجاء هؤلاء النسوة إلى الفرزدق ، وقد قيد نفسه بقيد آلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن ، فعيرنه سكوته وحرضنه على الأخذ بثارهن .

---

(١) غير جادف : غير مقصوص ، أو غير قصير .

فثارت حميته وفض قيده وهجا جريراً فالتحم الهجاء بينهما ، وضلا يتصاولان مدة حياتهما دون أن يغلب أحدهما الآخر ، لأن كلاً منهما مثل في سلاطة اللسان وبذاءة الهجاء[١] . وقد جمعت أهاجيهما في كتاب ضخم تقدمت له الاشارة عند الكلام عن شعر جرير .

ونسك الفرزدق في أواخر أيامه وكف عن قذف المحصنات وكانت توبته على يد الحسن البصري . وقد أعلن توبته هذه في قصيدته التي هجا بها إبليس والتي يقول فيها :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبي[٢] وتم تمامي
فزعت إلى ربي وأيقنت أنني ... ملاق لأيام المنون حمامي

وتوفي بذات الرئة أو بالدبيلة وكانوا يعالجونه بالنفط الأبيض فكان يقول : « أتعجلون لي شراب أهل النار ؟ » وقد أوصى بعتق عبيده جميعاً بعد وفاته وفرض لكل منهم شيئاً في ماله فلما اشتد مرضه كان يقول :

أروني من يقوم لكم مقامي ... إذا ما الأمر جل عن الخطاب
إلى من تفزعون إذا حثوتم ... بأيديكم علي من التراب

فقال له أحد عبيده : « إلى الله .. » فأمر ببيعه في الحال وأبطل وصيته فيه .

وتوفي صاحبنا في خلافة هشام بن عبد الملك . والرواة مختلفون في سنة وفاته فمنهم من يقول إنه توفي سنة (١١٠) للهجرة، ومنهم من يقول إنه توفي سنة (١١١) للهجرة ، ومنهم من يقول إنه توفي سنة (١١٢) للهجرة ، ومنهم من يقول

---

(١) من طريف ما اهتدى اليه الدكتور طه حسين في بحوثه الأدبية الأخيرة أنه رأى في تهاجي جرير والفرزدق والأخطل ثورة على نظام الجماعة ونقداً صارماً عنيفاً للاحوال السياسية والادارية والاقتصادية القائمة على عهد بني أمية . (الكاتب المصري العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٥٧٧ ـ ٥٧٨) .

(٢) في رواية : « عمري » وهي أصح .

إنه توفي سنة (١١٤) للهجرة ولكن الأستاذ فؤاد البستاني أثبت في العدد (٣٧) من« الروائع » أن وفاة الفرزدق لا يمكن أن تكون قبل سنة (١١٤)للهجرة مستدلاً على ذلك بأن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم عندما ولي المدينة ، وقد كانت ولاية خالد هذا من سنة ١١٤إلى١١٦ للهجرة، ومطلع القصيدة التي مدح الفرزدق بها خالداً هو قوله : —

أقول لحرفٍ قد تخوّن نيّها(١) دؤوب السرى إدلاجه وأصائله

وعلى هذا يمكن الجزم بأن وفاة المترجم لم تكن قبل سنة (١١٤) للهجرة .

(ب) صفاته : كان الفرزدق ماجناً خليعاً شديد التيه كثير التناقض ، إلا أنه كان كريم الطبع شديد الرغبة باصطناع المعروف،هذا إلى ذكاء في طبعه وحضور في بديهته . وما أريد أن أفيض فيالتحدث عن خلاعته ومجونه ،فنظرة سريعة في ديوانه وأخباره تدل على مكان المجون من طبعه . على أنه لولم يكن له في هذا الباب إلا رائيته التي تقدمتها الاشارة لكفى بذلك دليلاً على إمعانه فيالمجون وإسرافه في إرضاء شهواته ولذاته . ولا تقل العجرفة غلبة على طبعه عن الفسق ، وما ظنك برجل يستنشده الخليفة ليسمعه شيئاً من مديحه أو مديح أحد أسلافه فينشده أبياتاً يفخر فيها بأبيه!ويمتدح الخليفة فيقول في التمهيد إلى مديحه إنهأكرم فرد من أفراد رعيته ؟!

وكان إلى هذا شديد التناقض ، أنكر على هشام بن عبد الملك تجاهله علي بن الحسين (ع س) بأشد لهجة وأعنفها على مرأى من ألوف الحجاج ومسمع . ومدح سليمان بن عبد الملك بقصيدة عدّد فيها الخلفاء واحداً واحداً مبتدئاً بأبي بكر (رض) ومنتهياً بسليمان وأهمل ذكر علي بن أبي طالب (ع س) . وهجا

---

(١) الحرف من أسماء الناقة . الني : الشحم

عمر بن هبيرة في أثناء توليه العراق أشنع هجاء ، فلما عزل وحبس ضرب حوله هالة من التقديس والتمجيد .

إلا أنه كان سخياً سمحاً شديد الولع باسداء الجميل . روي أنه خطب حدراء بنت زيق بن بسطام وأصدقها مئة من الأبل ، فماتت قبل أن يبني بها ، ولم يكن يلزمه سوى نصف صداقها ، إلا أنه أداه إلى أبيها كاملاً غير منقوص . وهذا يعني أنه أعطى زيق بن بسطام خمسين ناقة سخاءً وكرماً .

ويتناقل الرواة أخباراً كثيرة مآلها أنه لبى نداء عدد من المستغيثين لاذوا بقبر أبيه ، منها خبر تلك العجوز التي رد عليها الفرزدق ولدها الوحيد من بعث تميم بن زيد ، ومنها خبر أعرابي أعطاه الفرزدق مئة من الأبل ليدي بها قتيلاً لزمته ديته ، ويعجبني في هذا المقام قول الفرزدق :

ألا هل علمتم ميتاً قبل غالب ... قرى مئة ضيفاً ولم يتكلم

وقول الأخطل مخاطباً رهط جرير : —

بني الخطفى عدوا أباً مثل دارم ... وإلا فهاتوا منكم مثل غالب

قرى مئة ضيفاً أناخ بقبره ... فآب إلى أصحابه غير خائب

أضف إلى ذلك أن المترجم كان ذكي الطبع حاضر البديهة سريع الجواب . أعطاه سليمان بن عبد الملك أسيراً رومياً ليضرب عنقه فضربه فلم يصنع شيئاً فضحك منه سليمان وضحك معه الناس ، فما كان منه إلا أن ارتجل على الفور هذه الأبيات :

أيعجب الناس أن أضحكت خيرهم ... خليفة الله يستسقى به المطر

لم ينب سيفي من رعب ومن دهش ... عن الأسير ولكن أُخّر القدر

ولن يقدم نفساً قبل مدتها ... جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر (١)

(١) بين الديوان وبين الشعر والشعراء لابن قتيبة خلاف في رواية هذه الأبيات . وقد آثرت رواية ابن قتيبة .

وقال له يوماً خالد بن صفوان وهو يمازحه : « يا أبا فراس ، ما أنت بالذي لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن » فقال له : « ولا أنت بالذي قالت الفتاة لأبيها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين !! »

(ج) شعره : للفرزدق ، كما لصاحبه جرير شعر كثير ، طبع المستشرق الفرنسي بوشيه (R . Boucher) نحواً من ثلثه في سنة (١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٥) منقولاً عن نسخة مخطوطة وقف عليها في مكتبة جامع أيا صوفيا وشرحه ونقله إلى الفرنسية . وأتم المستشرق الألماني يوسف هل (J .Hell) عمل بوشيه فنشر ما لم ينشر من النسخة المشار إليها في سنتي (١٩٠٠ و١٩٠١) . وظهرت طائفة من شعر الفرزدق في مجموعة ناقصة تدعى (خمسة دواوين العرب) أصدرتها المطبعة الوهبية بمصر عام ١٨٧٦ م . وطبعت المكتبة الأهلية ببيروت هذا الجزء المقتضب من شعر الفرزدق مرتين أخراها سنة ١٩٣٣ م .

وأخيراً عني الأستاذ عبدالله إسماعيل الصاوي بشعر الفرزدق فجمع ما تفرق منه في هذه الطبعات وأضاف إليه ما وقف عليه في كتب الأدب المختلفة ونشره في مجلدين ضخمين ظهرا بمصر عام ١٩٣٦ م .

وكما اشتمل ديوان جرير على كل باب من أبواب الشعر اشتمل ديوان الفرزدق كذلك على كل باب من هذه الأبواب . بيد أنه من الحق أن نلاحظ أن الفرزدق لم يوفق توفيق جرير في كل ما تطرق إليه من أغراض القريض .

غزله : زعمت عند الكلام عن شعر جرير أن غزله على العموم رقيق جذاب إلا أنه غير أصيل ، وأزعم الآن أن غزل الفرزدق لا يخلو من قصائد ومقطوعات أصيلة ، إلا أن الرقة تنقصه في كثير من الأحيان .

وللأصالة في غزل الفرزدق مصدرا ، أحدهما خلاعته والثاني سذاجة . فأما خلاعته فتملي عليه أحاديث مغامراته التي تمتاز بها حياته والتي أحب أن أنزه

عنها هذا الفصل. وأما سذاجته فتسلي عليه عجائب الأماني والآمال ،فهو يتمنى طوراً أن يصاب زوج حبيبته بالعمى على أن يكون أحذق أطباء العيون وأوسعهم شهرة، ليدعى إلى معالجـة ذلك الزوج البائس ولتكون معالجته إياه سبيل مقابلات ومغازلات كلها صبابة وغرام . ويتمنى تارة أن يكون وحبيبته بعيرين مصابين بـ (العر) يتحاشاهما الناس جميعاً ويضطرونهما للحياة وحدهما لينعما بحياة لا يكدر صفاءها عليهما الوشاة والرقباء . وكان ينبغي أن يكون هذا الغزل الداعر الفاجر لطيف اللغة رقيق الديباجة، ولـكنه لم يكن كذلك على الأكثر ، فما أظنك تستسيغ هذا البيت :

إذا القنبضات السّود طوّفن بالضحى　　رقدن عليهن الحجال المسجّف(١)

أو هذا البيت :

ومستنفزات للقلوب كأنهـا　　مهاً حول منتوجاته يتصرف(٢)

أوهذا البيت :

أفاطم لو صـاحبتهن عذرتنـا　　ولم تستطيعي القلقلان العشنزرا(٣)

ومثل هـذا كثير في غزل الفرزدق فتتبعه إن أعجبك الوقوف عليه . ومع ذلك لا يخلو غزل صاحبنا من مقطوعات وأبيات لطيفة في معناها وفي مبناها على حد سواء ، منها قوله :

إذا شئت غناني من العاج قاصف　　على معصم ريان لم يتخدد
لبيضاء من أهل المدينة لم تعش　　ببؤس ، ولم تتبع حمولة مجحد(٤)
وقامت تخشّيني زياداً وأجفلت　　حواليّ في برد رقيق ومجسد(٥)

---

(١) القنبضات : ـ ويروى القنبصات ـ النساء القصيرات النحيفات الأجسام .
(٢) المستنفزات : ـ المحركات .
(٣) القلقلان : ـ الرجل الخفيف . والعشنزر : السيء الخلق .
(٤) المجحد : الفقير .
(٥) المجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران .

فقلت ذريني من زياد فانني   أرى الموت وقّافاً على كل مرصد

وقوله :

منع الحياة من الرجال وطيبها   حدق يقلبها النساء مراض

فكأن أفئدة الرجال إذا رأوا   حدق النساء لنبلها أغراض

وقوله :

لا حبذا البيت الذي أنت هائبه   تزور بيوتاً حوله وتجانبه !

تجانبه من غير هجر لأهله   ولكن عيناً من عدو تراقبه

رثاؤه : ومثل نجاح الفرزدق في غزله نجاحه في رثائه ، أعني أنه ضئيل أيضاً ، فقد رثى هذا الشاعر أباه وأولاده وأخاه وابن عمه وكيعاً الغداني، ورثى سليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف وولده محمد وأخاه محمد ، ورثى غيرهم من الأقربين والأبعدين ، وكرر رثاء كثير ممن رثى مراراً عديدة . ولكنه قلما عبر في هذا الرثاء الجم عن عاطفة صادقة أو شعور يفيض بالوفاء والاخلاص . ستقول : وعلى ماذا ينطوي رثاؤه إذن ؟ ! والجواب عن ذلك : أنه ينطوي على المديح والفخر وعلى ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد بها وعلى المبالغات أحياناً ، وهذا كله مما يزخر به الرثاء العربي عادة . فلا تثريب على الفرزدق في الاكثار منه . والذي ينقص رثاءه هو الكلام المؤثر الذي يعرب عن المشاعر والعواطف ويصور نبضات القلوب المحزونة وخلجات النفوس المتألمة كرثاء جرير لزوجته ، وأبي تمام لابنه وأخيه وجاريته ، والشريف الرضي لوالدته . وهذا يعني أن رثاء الفرزدق خلو من أهم عناصر الرثاء وأكبرها شأناً ، ولكي تكوّن فكرة صحيحة عن هذا الرثاء أروي لك منه هذه الأبيات التي يرثي بها المترجم أخاه :-

أبى الصبر إلا أن أرى البدر طالعاً   ولا الشمس إلا ذكراني بغالب[1]

---

(١) لعل الصحيح : أبى الوجد أو الحزن .

شبيهين كانا بابن ليلى ومن يكن   شبيه ابن ليلى يمح ضوء الكواكب
فتىً كان أهل الملك لا يحجبونه   إذا فاد يوماً بين باب وحاجب
كأن تميماً لم تصبها مصيبة   ولا حدثان قبل يوم ابن غالب
ولو شعر الأجبال دمخ ويذبل   لما لا بأعراف الذرى والمناكب

وهذه القصيدة التي يرثي بها ولدين له : —

بفي الشامتين الصخر إن كان مسّني   رزية شبلي مخدر في الضراغم
هزبر إذا أشباله سرن حوله   تشظت سباع الأرض من ذي النحائم (١)
أرى كل حي لا يزال طليعة   عليه المنايا من فروج المخارم
وما أحد كان المنايا وراءه   ولو عاش أياماً طوالاً بسالم
فلست ولو شقت حيازيم نفسها   من الوجد بعد ابني نوار بلائم
على حزن بعد اللذين تتابعا   لها والمنايا قاطعات التمائم
يذكرني ابني السّماكان موهناً   إذا ارتفعا بين النجوم التوائم (٢)
فقد رزىء الأقوام قبلي بابنهم   وإخوانهم فاقني حياء الكرائم (٣)
ومن قبل مات الاقرعان وحاجب   وعمرو ومات المرء قيس بن عاصم
ومات أبي والمنذران كلاهما   وعمرو بن كلثوم شهاب الأراقم
وقد مات خيراهم فلم يهلكاهم   عشية بانا رهط كعب وحاتم
وقد مات بسطام بن قيس وعامر   ومات أبو غسان شيخ اللهازم
فما ابناك إلا ابن من الناس فاصبري   فلن يرجع الموتى حنين المآتم

---

(١) لم أجد فيما لدي من معاجم اللغة مدلولا واضحاً لهذه الكلمة ولكن ربما كانت من نحم السبع : صوت .
(٢) توائم النجوم : ما تشابك منها .
(٣) اقني : الزمي .

أما أن المرثيتين بليغتان محكمتا السبك رصينتا الأسلوب على الأكثر فهذا ما يخيل إلي . ولكن ، أتحتويان على كلام تترقرق منه الدموع وتجيش في طياته الزفرات ويفيض بالأحاسيس والانفعالات ؟ ! إنني أؤكد مخلصاً أني لا أجد فيهما هذا الكلام .

هجاؤه: بيد أن المترجم برع في الهجاء براعة فائقة ، وحسبك دليلاً على ذلك أن جريراً لم يفحمه مع أنه أفحم عشرات الشعراء الذين تورطوا في مهاجاته. وكان للفرزدق من هذه القدرة على الهجاء سلاح يتحاماه الناس ويخشونه على أعراضهم وأحسابهم . روى أن شاعراً من بني حرام أقدم على هجائه فما كان من قومه إلا أن قادوه صاغراً ذليلاً وجاؤوا به إليه قائلين: «ها هو صاحبنا بين يديك ، إفعل به ما تشاء فلا عدوى عليك ولا قصاص »، فعفا عنه وخلى سبيله وقال في ذلك : —

فمن يك خائفاً لأذاة شعري　　فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم قادوا سفيههم وخافوا　　قلائد مثل أطواق الحمام (١)

ولما خرج المهلب إلى حرب الأزارقة التمس جرير من الفرزدق أن يكلمه في إعفائه من هذا البعث ، فكلمه فيه فأعفاه . وليم المهلب في ذلك فقال : (إنما اشتريت عرضي !) (٢) .

ومع أن معظم هجاء الفرزدق لم يكن مما يترنم به العذارى بسمع من آبائهن، فانه لا يخلو من شذرات عديدة فيها النقد اللاذع وفيها التقريع الممض ، ولكن ليس فيها شيء من الفحش أو الهجر ،من ذلك أنه هجا عمر بن هبيرة عندما ولي أمر العراق فقال : إن الزمان قد فسد والأحوال قد ساءت حتى أن الأمويين ،

---

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١١ طبعة مطبعة التقدم بمصر.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

لجأوا إلى الاستعانة برجال فزارة على سياسة الملك وتدبير شؤونه ومصالحه . وهجا خالد بن عبدالله القسري عندما عين خلفاً لعمر بن هبيرة المذكور فقال : إنه لا ينبغي أن ينوب عن الخليفة في سياسة المسلمين رجل لا تدين أمه بالتوحيد ، وهو يشير بذلك إلى أن أم خالد نصرانية كما تقدم . ويرق هجاء الفرزدق ويظرف أحياناً فتتخلله الفكاهة العذبة والدعابة الحلوة ، إسمع قوله مخاطباً جريراً :

ظللت تصادي عن عطية قائماً   لتضرب أعلى رأسه غير مؤتل
لك الويل لا تقتل عطية ، إنه   أبوك ، ولكن غيره فتبدل
وبادل به من قوم بضعة مثله   أبا شرّ ذي نعلين أوغير منعل
فان هم أبوا أن يقبلوه ولم تجد   فراقاً له إلا الذي رمت فافعل

مديحه : أما في المديح فقد وفق الفرزدق أحياناً، إلا أنه فشل أحياناً أخرى فشلاً تاماً. وأكبر الظن أن عدم نجاحه في مديحه ناشىء عن عدم إخلاصه لممدوحيه، فأنت تعلم أنه علوي الرأي ولكنه كان مضطراً لانتجاع بني أمية ورجال دولتهم بالمديح . وفي إمكانك أن تتبين مبلغ إخلاصه لممدوحيه إذا علمت أنه هجا أكثرهم أشنع هجاء كما مدحهم أحسن مديح . فبينا هو يقول لك إن هشام بن عبد الملك صفوة الله من خلقه ولولاه لكان الناس أشبه بعقد وهي سمطه فانتثر ، إذا هو يقول لك إن هشاماً شر من تولى أمور الناس وألأم من تبوأ دست الخلافة. وبينا هو يقول لك إن الحجاج رجل التقوى والصلاح ورجل العدل والاخلاص إذا هو يقول لك إن حكمه جنّة أصابت العراق وقد شفاه الله منها . وبينا هو يقول لك إن آل المهلب فرسان العرب وأجوادهم وذوو المروءة والنجدة والأريحية منهم ، إذا هو يقول لك إنهم نبط أنذال لا يشرفهم خلق ولا يرفعهم نسب .

على أن مديحه لا يخلو من متعة وفائدة ، ولك أن تتصفحه لترى أنه حافل بالصور الصادقة التي تمثل أحوال زمانه . فهذه قصيدة تصف لنا مجاعة هائلة حلّت

يشبه جزيرة العرب في سنة من سني حكم الوليد بن عبدالملك وصفاً صادقاً مستفيضاً ، وهذه قصيدة تمثل لنا عظم سطوة الحجاج وشدة بطشه واستتباب الأمن في العراق على عهده بعد أن كان مسرحاً لفتن واضطرابات لا تنتهي . وهذه ثالثة تذكر لنا فرار آل المهلب من سجن الحجاج والتجاءهم إلى سليمان بن عبد الملك وهو ولي للعهد ، وتصف لنا عطفه عليهم وشفاعته لهم عند أخيه الوليد.

أتحب أن أروي لك مثالاً من هذا المديح الذي يعطينا من حين لآخر صورة صحيحة لناحية من نواحي الحياة العامة على عهد الفرزدق ؟ إسمع قوله من قصيدة يمدح بها الوليد بن عبدالملك :

أمير المؤمنين وأنت تشفي ... بعدل يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا ... يكلفنا الدراهم في البدور
وأنى بالدراهم وهي منا ... كرافع راحتيه إلى العبور
إذا سقنا الفرائض لم يردها ... وصدّ عن الشويهة والبعير
إذا وضع السياط لنا نهاراً ... أخذنا بالربا سرق الحرير[1]
فأدخلنا جهنم ما أخذنا ... من الارباء من دون الظهور[2]
فلو سمع الخليفة صوت داع ... ينادي الله : هل لي من مجير؟!
وأصوات النساء مقرّنات ... وصبيان لهن على الحجور
إذاً لأجابهن لسان داع ... لدين الله مغضاب نصور

---

١) السرق : جمع سرقة وهي الشقة من الحرير . وأحسب أن الفرزدق يريد انهم يرشون العامل بالحرير لا أنهم يدفعونه اليه على أنه جزء من الضريبة لأنه لا يقبل منهم غير النقد كما يقول الفرزدق نفسه في البيت الثاني من هذه الأبيات .

(٢) يريد انهم حفظوا ظهورهم من السياط بالالتجاء الى شراء الحرير بالربا . ولكنهم فعلوا ما أدخلهم جهنم لأن الربا محرم في الاسلام .

فهذه الأبيات تعطينا فكرة واضحة قوية عن السياسة الجائرة التي كان يتبعها العمال على عهد الفرزدق في سبيل جباية الضرائب . وتدلنا على ما يلقى الناس من شدائد وأهوال لا يكاد يصدقها العقل بسبب أداء هذه الضرائب ، وتشير مع ذلك إلى حسن ظنهم بالخليفة وأملهم بعطفه عليهم ورأفته بهم . ومثل هذه الأبيات ذات الفائدة التاريخية الكبيرة كثير في مديح الفرزدق كما قدمت .

فخره : أصدق شعوراً من مديح الفرزدق وأصفى ديباجة فخره الذي يعد بحق ترجمان ضميره وعنوان شاعريته . وفي الواقع أن الفرزدق غلا أحياناً في الفخر بقومه فزعم أن بيته أرفع دعائم من السماء وأن قومه سادة الناس يأمرونهم فيأتمرون ، وينهونهم فينتهون . إلا أنه لم يفعل ذلك دائماً لحسن الحظ . والغالب على فخره هو أن يذكر قومه وأهله الأدنين بما هو فيهم من كثرة العدد ومنعة الجانب وعلو الكلمة ورجاحة العقل وغزارة الجود وإيواء الضعيف وإغاثة الملهوف وما إلى ذلك من محاسن ومحامد . وربما فخر بصلات بعض نبهاء أسرته بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة وتقربهم منه وحصولهم على شرف مجالسته ومنادمته بينما تظل كليب ـ رهط جرير ـ (وراء الناس) لا يسمح لها بالدنو من السرادق الملكي . ولكن الغالب على فخره ما قدمناه من إطراء محاسن قومه الأدبية والخلقية ، فمن طريف فخره قوله :

أنا ابن الذي ردّ المنية فضله ... وما حسب دافعت عنه بمعور (١)
أبي أحد الغيثين صعصعة الذي ... متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر ... على الفقر يعلم أنه غير مخفر
وفارق ليل من نساء أتت أبي ... تعالج ريحاً ليلها غير مقمر (٢)

---

(١) معور : معيب .

(٢) الفارق : المرأة التي أدركها المخاض .

فقالت أجر لي ما ولدت فانني أتيتك من هزلى الحمولة مقتر (١)
فقال لها نامي فاني بذمتي لبنتك جار من أبيها القنوّر (٢)

وقوله :

وركبٍ كأن الريح تطلب عندهم لها ترةً من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم على شعب الأكوار من كل جانب
إذا ما رأوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب

وقوله في ملحمته :

إذا اغبرّ آفاق السماء وكشّفت كسور بيوت الحي نكباء حرجف (٣)
وأصبح مبيض الصقيع كأنه على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فينا بخير (٤) وإن جنى فما هو مما ينطف الجار ينطف (٥)
ويمنع مولانا وإن كان نائياً بنا جاره مما يخاف ويأنف (٦)
وقد علم الجيران أن قدورنا ضوامن للأرزاق والريح زفزف (٧)

---

(١) المراد بقوله : أتيتك من هزلى الحمولة : انها أتته من رجل حمولاته هزلى . والحمولة هي الأبل التي يحمل عليها .

(٢) يختلف الرواة في عدد البنات اللواتي تطوع صعصعة جد الفرزدق بفدائهن من الوأد فنهم من يعدهن بالعشرات ومنهم من يعدهن بالمئات ، والذي استنتجه من هذا أن صعصعة فعل شيئاً من هذا القبيل . الا ان الرواة نسجوا حوله طائفة من الاساطير جملته اشبه بالخرافة لكنني مع ذلك أميل الى تصديق ما فخر به الفرزدق اجمالا .

(والقنور : هو الضيق الصدر السيء الخلق) .

(٣) النكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين . الحرجف : الشديدة الهبوب .

(٤) هكذا في جمهرة اشعار العرب ، وفي الديوان (فينا بجير) ورواية الجمهرة اقرب الى الصواب فيما اظن .

(٥) نطف : خاف .

(٦) المولى : ابن العم ، والعبد المعتق . (٧) ريح زفزف : شديدة الهبوب : باردة .

نعجل للضيفان في المحل بالقرى ... قدوراً بمعبوط تمد وتغرف (١)
وما حل من جهل حبى حلمائنا ... ولا قائل المعروف(٢) فينا يعنّف
وما قام منا قائم في ندينا ... فينطق إلا بالتي هي أعرف
سيعلم من سامى تميماً إذا هوت ... قوائمه في البحر من يتخلّف
فسعد جبال العز والبحر مالك ... فلا حضن(٣) يبلى ولا البحر ينزف
وبالله ، لولا أن تقولوا : تكاثرت ... علينا تميم ، ظالمين ، وأسرفوا
لما تركت كف تشير باصبع ... ولا تركت عين على الأرض تطرف

تلك هي طريقة الفرزدق في الفخر بقومه . أما إذا فخر بنفسه فما شئت من تبجح بصلابة العود وصرامة اللسان وما شئت من تشدق بالشاعرية الفياضة والصيت المدوي في الآفاق :

رأتني معد مصحراً فتناذرت ... بديهة مخشي الجريرة عارم
وما جرّب الأقوام مني أناثةً ... لدن عجموني بالضروس العواجم
لقد كافحت مني العراق قصيدة ... رجوم مع الماضي رؤوس المخارم
خفيفة أفواه الرواة ثقيلة ... على قرنها نزالة بالمواسم

وصفه : وللفرزدق خطرات وصفية كثيرة معظمها تابع المديح والفخر وقليل منها مستقل ، وصف في واحدة منها لقاءه الأسد واحجامه عنه ثم إقدامه عليه وتنحي هذا عن طريقه ، ووصف في ثلاث (٤) لقاءه الذئب وما جرى له معه في

---

(١) المعبوط : المذبوح .
(٢) هكذا في الجمهرة ، وفي الديوان (وما قائل بالعرف) .
(٣) حضن : جبل بأعلى نجد .
(٤) أحسن هذه القطع الثلاث أبياته النونية التي أولها :
وأطلس عسال وما كان صاحباً ... دعوت لناري موهناً فأتاني
والتي سأرويها في مكان آخر من هذا الكتاب .

شتى المناسبات . ووصف في طائفة منها محنته على يد خالد القسري وحياته في السجن ووصف في غير ما تقدمت له الاشارة أشياء أخرى كثيرة .

والفرزدق موفق في أغلب هـذه الخطرات ، لأنه يستعرض الموصوف استعراضاً جيداً ويصفه وصفاً صادقاً جميلاً . وقد مر بك شيء من وصفه عند الكلام عن فخره فاسمع الآن قوله في وصف هرب عمر بن هبيرة من سجن خالد بن عبدالله القسري : —

لما رأيت الأرض قد سدّ ظهرها ولم تر إلا بطنها لك مخرجا
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا
فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة وما سار سارٍ مثلها حين أدلجا
هما ظلمتا ليل وأرض تلاقتا على جامح من أمره ما تعرجا
نجوت ولم يمنن عليك شفاعة (١) سوى ربذ التقريب من آل أعوجا (٢)

وقوله في وصف سفينة قطع بها نهر الدجيل إلى أسد بن عبد الله القسري :

لفلج وصحراواه لو سرت فيهما أحب إلينا من دجيل وأفضلا (٣)
وراحلة قد عوّدوني ركوبها وما كنت ركّاباً لها حين ترحل
قوائمها أيدي الرجال إذا انتحت وتحمل من فيها قعوداً وتحمل
إذا ما تلقّتها الأواذي شقها لها جؤجؤ لا يستريح وكلكل (٤)

وقوله في وصف البيداء والقطا ، وربما كان خير ما قال في الوصف وخير ما قيل في هذا الباب : —

---

(١) بين الديوان والأغاني خلاف في رواية هذا الشطر وقد آثرت رواية الأغاني .

(٢) التقريب : ضرب من السير ، والربذ : خفته ، وأعوج : فرس مشهور .

(٣) فلج : واد بين البصرة وحمى ضرية . دجيل : نهر يصب في دجلة .

(٤) الأواذي : جمع آذي وهو الموج . الجؤجؤ : الصدر . الكلكل : مقدم العنق .

وبيــداء تغتــال المطيّ قطعتهــا ... بركّاب هول ليس بالعاجز الوغل (١)
إذا الأرض سدّتها الهواجر وارتدت ... ملاء سموم لم يسدّين بالغزل (٢)
وكان الذي يبدو لنا من سرابها ... فضول سيول البحر من مائه الضحل (٣)
ويدعو القطا فيها القطا ، فيجيبه ... توائم أطفــال من السبب المحل
دوارج أخلفن الشكير (٤) كأنمــا ... جرى في مآقيها مراود من كحل
يسقّين بالموماة زغبــاً نواهضــاً ... بقايا نطاف في حواصلها تغــلي
تمج أدواى في أدواى بها استقت ... كما استفرغ الساقي من السجل بالسجل

كثيرهم الشعراء الذين سبقوا الفرزدق إلى وصف البيداء في الجــاهلية والاسلام . ولــكن أظن أنه لم يسبق إلى وصف القطا وعلاقة بعضه ببعض على النحو الذي رسمه لنا في هذه الأبيات . وإنه لمن الحق أن نسجل أنه نجح في هذ الوصف نجاحاً تاماً .

ما لشعره من القيمة التاريخية : ولشعر الفرزدق بعد كل هذا قيمة تاريخية كبيرة ؛ ذلك لأنه كان يعنى بالحوادث المهمة التي تقع على قرب أو بعد منه ويتأثر بها ويعرب عن شعوره نحوها ؛ فيمدح مرة ، ويهجو تارة ، ويفخر حيناً . وليس من شك في أن لجرير والأخطل شعراً ذا فائدة تاريخية حسنة . فقصيدة (خف القطين..) مثلاً تكاد تكون ملحمة أموية تغلبية. ولمدائح جرير للحجاج، ولا سيما لاميته التي مطلعها : « شعفت بعهد ذكرته المنازل .. » ، قيمة تاريخية ليست بالقليلة ، ولــكن شعر الفرزدق أحفل بالفوائد التاريخية وأدل على حياة القرن الأول

(١) الوغل : الضعيف المقصر .
(٢) الملاء : جمع . ملاءة : وهي الملحفة .
(٣) الضحل : الماء القليل .
(٤) الشكير : الزغب ، يريد انهن تريشن بعد الزغب .

للهجرة ذلك لأن جريراً لا يعالج الحادثة التاريخية إلا من الناحية الايجابية ، أي من الناحية التي توصله إلى رضى الممدوح وجائزته ، ولأن الأخطل لا يعالج الحادثة التاريخية بدوره إلا ليؤيد سياسة الأمويين أو ليناضل في سبيل قبيلته . أما الفرزدق فكان يتحرر أحياناً من هذين القيدين ويتطوع بالتعقيب على الحوادث في غير ما طمع ولا فائدة من أي نوع . فمن الواضح أنه لا فائدة له مطلقاً في التعقيب على فرار آل المهلب من سجن الحجاج بأكثر من قصيدة واحدة وبما يخالف سياسة الحجاج مخالفة تامة لأنه ممن يخضع لسلطان الحجاج وفي إمكان هذا أن يوسعه عقوبة متى أراد . ومثل هذا يقال في تعقيبه على فرار عمر بن هبيرة من سجن خالد بن عبدالله القسري وفي تنديده بالسياسة التي اتبعها هذا في حفر المبارك . ولكنه فعل هذا كله تلبية لنداء ضميره وتمرداً على سياسة الاستبداد والعنف والعسف . وقد حدثتك بأشياء كثيرة عن أخلاق الفرزدق بعضها له وبعضها عليه ، وفاتني أن أقول لك إنه يغار غيرة لا بأس بها على المصالح العامة ، فلنسجل له هنا هذه الخلة الحسنة التي نلمسها في صفحات كثيرة من ديوانه.

الأخطل

(أ) حياته : اسمه . نسبه . كنيته . لقبه . سبب تلقيبه بالأخطل . مولده ونشأته . بدء قرضه الشعر . مهاجاته كعب بن جعيل . مكيدة هذا للقضاء عليه . نجاته وفوزه عن طريق هذه المكيدة . حظوته عند بني أمية . أفول نجمه على عهد الوليد بن عبد الملك . موقف قبيلته منه . فقره رغم صلته ببني أمية . دخوله بين جرير والفرزدق . قضاؤه للأول على الثاني . عدوله عنه ولباقته في ذلك . وفاته .

(ب) أخلاقه : ظرفه . تسرعه . تدينه .

(ج) ديوانه : طبعه . على ماذا يحتوي . عدم تنقيح المترجم شعره دائماً .

غزله : ابتذال معانيه . مثل منه . رأيه في المرأة . بعض ما يمثله .

هجاؤه : شدته وعفته . مقارنة بينه وبين الحطيئة من هذه الناحية . سبب ترفعه عن القذف . فنه في الهجاء . بعض صوره الفنية في هذا الباب .

مديحه : سلامته من التناقض والاستجداء . انغماسه في السياسة . مثل من مديحه السياسي والشخصي .

فخره : نسجه على منوال عمرو بن كلثوم . مثل من فخر الشاعرين .

خمرياته : أصالتها . بعض ما يمثلها . يوم من أيام لهوه وطربه . نقد وتحليل . نظرة عامة في وصفه .

***

(أ) حياته : هو غياث بن غوث بن الصلت ، من تغلب ، وتغلب قبيلة كبرى من ربيعة . وكنيته أبو مالك ، ومالك هذا أكبر أولاده . والأخطل لقب غلب عليه ، قيل في سبب إطلاقه عليه إنه كان يهاجي - وهو غلام - كعب بن جعيل شاعر تغلب قبل نبوغه وتفوقه فقال له: « يا غلام إنك لأخطل اللسان! » أي بذيئه فلقب منذ ذلك الحين بالأخطل . وهناك أقوال أخرى كثيرة متضاربة في سبب إطلاق هذا اللقب عليه جمعها صاحب الأغاني في الجزء السابع من كتابه فليراجعها من أراد .

ومصادر الأدب القديم لا تعين زمن ولادته ولا مكانها . إلا أن الأب صالحاني ناشر ديوانه يرجح أنه ولد حوالي سنة ٦٤٠ للميلاد أي حوالي سنة ١٩ للهجرة. ولهذا الترجيح ما يبرره ، لأن صاحبنا كان شاعراً مجيداً في أيام معاوية، وخلافة معاوية تمتد كما تعلم من سنة ٤١ إلى سنة ٦٠ للهجرة وشاعر ينبغ في هذا العهد يمكن افتراض ولادته بسهولة في التاريخ الذي عينه الأب صالحاني .

أما مسقط رأسه فأكبر الظن أنه في الجزيرة الفراتية حيث تتنقل قبيلته وحيث نشأ وترعرع باجماع الرواة . وقد فقد المترجم أمه وهو صبي ، فكانت زوجة أبيه تسيء معاملته وتضطهده وسيمر بك عند الكلام عن أخلاقه ما يدل على سوء معاملتها له .

ويظهر أنه قال الشعر صبياً ، فالرواة يحدثوننا أنه هاجى كعب بن جعيل شاعر تغلب وهو غلام فضربه أبوه وقال له : « أبغرزمتك[1] هذه تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟! » . فلم ينهه ذلك عن المضي في مهاجاة كعب الذي كتب له الاستخذاء والخمول على يده . وقد أراد كعب أن ينتقم لنفسه من صاحبنا عندما ندبه يزيد بن معاوية لهجاء الأنصار فرفض مشيراً إلى مكانة الأنصار الدينية ودفاعهم عن

---

(١) الغرزمة : الابتداء في قول الشعر .

الرسول (ص) ولكنه نصحه بانتداب الأخطل لهذه المهمة ظاناً أنه يرمي خصمه بقاصمة الظهر . ولم يخطىء ظنه كثيراً ، فان النعمان بن بشير شاعر الأنصار طلب إلى معاوية أن يقطع لسان الأخطل جزاء له على قوله :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا　　　واللؤم تحت عمائم الأنصار

ونزل معاوية عند رغبة النعمان لولا أن يزيد أجار المترجم وفاءاً بعهده الذي قطعه له بحمايته من غضب أبيه . عندئذ نجح صاحبنا في مجازفته هذه النجاح كله ، فظفر بعطف بني أمية وصار شاعرهم الخاص يقدمونه ويقربونه ويجزلون صلته . فهذا يزيد يسامره ويعاشره ويحضره مجالس الطرب التي كان يعقدها في دار ابن سرجون مدير شؤون المال في دولة أبيه ويمضي في مسايرته ومحاسنته إلى حد مشاركته في أكل الخنانيص[1] . وهذا عبدالملك بن مروان يسمح له بالدخول عليه متى أراد ومن غير إذن ويجالسه ويستمع إلى حديثه وهو ثمل ، ويلقبه مرة شاعر أمير المؤمنين وتارة شاعر بني أمية . وهذا الحجاج بن يوسف على جلالة قدره وعظم خطره يستزيره فيأبى أن يزوره ويكتفي بارسال مدحته إليه مع أحد أولاده .

وصحيح أن الأخطل فقد نفوذه في بلاط دمشق على عهد الوليد بن عبدالملك الذي اتخذ عديّ بن الرّقاع شاعراً رسمياً له وأنه ـ أي المترجم ـ كف عن الادلال على بني أمية بهجاء الأنصار خدمة لهم ودفاعاً عنهم ، وأنه صار يشير في قصائده إلى أيدي الأمويين عنده إشارة الشاكر الممتن[2] بدلاً من أن يشير إلى يده عندهم

---

(١) الخنانيص : جمع خنوص وهو ولد الخنزير .

(٢) من ذلك قوله في قصيدة يمدح بها الوليد :

بني أمية قد احدث فواضلكم　　　منكم جيادي ومنكم قبلها نعمي
فان حلفت لقد اصبحت شاكرها　　　لا احلف اليوم من هاتا على اثم

إشارة المتبجح المستطيل . إلا أن هذا حصل بعد أن سطع نجم الأخطل في سماء دولة بني أمية نحواً من ربع قرن ، وحسبك هذا دليلاً على أنه أحرز بفضل مكيدة خصمه كعب بن جعيل كل ما كانت تصبو نفسه إليه من جوائز سنية وشهرة واسعة وجاه عريض .

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن حظوة المترجم عند بني أمية حملت قبيلته تغلب على الانفضاض عن خصمه كعب المتقدم ذكره والالتفاف حوله فصار شاعرها ولسانها والمقدم بين زعمائها . وبعبارة أخرى كان منها مكان عمرو بن كلثوم الذي لم تفتر تغلب عن الفخر ببطولته وشاعريته والتغني بمعلقته .

لـكن الذي قد لا يخلو من غرابة هو أن حظوة الأخطل عند بني أمية لم تمنعه تماماً من الفقر ولم ترفعه عن الاستجداء . فالرواة يحدثوننا أنه عرض مديحه على عبد الملك بن المهلب نظير جائزة نفيسة فاعتذر هذا بخوفه أن يقال لعبدالملك بن مروان إنه : « يسأل في غرم ويعطي الشعراء ». ويحدثوننا كذلك أن عجوزاً تدعى « أم زنبة » فقدت أولاداً في خدمة عبدالملك في يوم الرحوب لم تنل من التعويض ما نال غيرها ممن فقد أحداً في خدمة الخليفة المرواني في هذا اليوم ، التمست من الأخطل أن يشفع لها عند الخليفة بتعويضها عن فقد أولادها في خدمته أسوة بغيرها من الناس فشفع لها ونجحت الشفاعة فدفع له العوض على أن يدفعه إلى العجوز . إلا أن حاجته إلى المال دعته إلى إنفاقه فأنفقه ولبثت العجوز تطالبه به مدة من الزمن ثم إنها شعرت أنه لا سبيل إلى تحصيل شيء من الشاعر فرضيت منـه بالمديح عوضاً عن المال فمدحها بشعر أقرب إلى الهجاء منـه إلى المديح وهو قوله :

إذا ذكر النساء بيوم خير ... فنامي أم زنب ولا تراعي !

وظاهر أن الأخطل يريد أنه لا يد لأم زنبة في عمل الخير ، ولـكن العجوز

رضيت بهذا وعدته مديحاً ، وزادت على ذلك أنها أعطته بعيراً علاوة على مالها عنده من المال .

قد تقول : وكيف توفق بين هاتين الروايتين وبين ما ذهبت إليه من ترفع الأخطل عن زيارة الحجاج رغم توسط الخليفة ؟! وأجيب عن ذلك بأنه لا يبعد أن يكون الأخطل قد امتنع عن إجابة رغبة الحجاج في فترة رخاء وفي ساعة خيلاء وزهو. ونحن لم نقل إنه قضى حياته كلها فقيراً معدماً، وإنما قلنا إن حظوته عند بني أمية لم تمنعه تماماً من الفقر ولم ترفعه عن الاستجداء والفرق بين القولين كبير.

وقد شاء سوء الطالع للأخطل أن يدخل بين جرير والفرزدق مع أنه كان في غنى عن هذا فتعرض لمناجزة جرير ومهاجاته ، وكان قد أسن وتحطم فلذعه جرير بقوارصه التي مر بنا بعضها عند الكلام عن شعره . وكان الأخطل قد قضى لجرير على الفرزدق بادىء بدء استناداً إلى رأي ولده مالك الذي أوفده إلى العراق ليطلع على ما يدور بين الشاعرين الكبيرين المتناجزين عن كثب . فوافاه هذا برأيه المشهور (جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر .) إلا أن مجاشعاً رهط الفرزدق قدمت له هدية فاخرة عندما قدم الكوفة وافداً على بشر بن مروان وسألته أن يفضل صاحبها ففعل . على أن هناك شيئاً أحب أن ألفت نظرك إليه ، وهو أن الأخطل كان لبقاً في عدوله عن رأيه وتفضيله الفرزدق على جرير بعد أن فضل جريراً عليه اتباعاً لرأي ولده ، ذلك أنه كان يفضل الفرزدق على صاحبه من حيث النسب، ولم يكن يفضله من حيث الشاعرية . فكان يقول لجرير إن الفرزدق أكرم منه أباً وأشرف حسباً ولا يقول له إنه أخصب منه قريحة وأفصح بياناً وأسير قافية :

أجرير إنك والذي تسمو له ... كأسيفة فخرت بحدج حصان [1]

---

(١) الحدج : مركب من مراكب النساء . والأسيفة : الأمة .

أتعد مأثرة لغيرك ذكرها | وسناؤها في غابر الأزمان
في دارم تاج الملوك وصهرها | أيّام يربوع مع الرعيان (١)
فاخسأ إليك كليب إن مجاشعاً | وأبا الفوارس نهشلاً أخوان
قوم إذا خطرت عليك فحولهم . | جعلوك بين كلاكل وجران (٢)
وإذا وضعت أباك في ميزانهم | رجحوا وشال أبوك في الميزان

وبهذه الطريقة اللبقة أرضى صاحبنا مجاشعاً دون أن يغضب ضميره ودون أن يقع في تناقض يسيء إلى سمعته ويحط من منزلته .

وتوفي الأخطل في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولم يعين الرواة سنة وفاته ولا الموضع الذي توفي فيه . ولكنهم يحدثوننا أنه سئل قبيل موته أن يوصي فأوصى الفرزدق أن لا يقصر في هجاء جرير :

أوصي الفرزدق قبل الممات | بأم جرير وأعيارها

(ب) أخلاقه : وثلاثة أمور لا بد من التنبيه إليها في أخلاق الأخطل وهي ظرفه وتسرعه وتدينه . فقد غلب الظرف على أقواله وأعماله منذ الحداثة ؛ وليس ثمة من يجهل قصته مع زوجة أبيه التي كانت تظلمه وتحرمه أطايب الشراب والطعام مؤثرة أولادها بها . فحدث أن رأى عندها ذات يوم تمراً وزبيباً وشكوة لبن فقال لها : « يا أماه » آل فلان يزورونك ويقضون حقك وأنت لا تزورينهم وعندهم عليل ! فقالت له : « جزيت خيراً يا بني ، لقد نبهت إلى مكرمة . » وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم. فما كادت تغادر البيت حتى سطا على الزبيب

---

(١) يقول ان الملوك يتزوجون من دارم لعلو مكانتها .

(٢) الكلاكل جمع كلكل وهو الصدر ومقدم العنق وواضح أن الأخطل يريد به الصدر لأنه أشار الى مقدم العنق بكلمة جران التي لا تدل على شيء سواه .

والتمر فمسحها مسحاً وعلى الشكوة فشرب ما فيها . فلما عادت ورأت ما حل بها أخذت تلعنه وتصيح فقال :

ألمّ على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لمم
فظلت تنادي : ألا ويلها ! وتلعن، واللاعن منها أمم[1]

ومن هذا القبيل ما يروى من أنه كان ذات يوم يشرب في أحد متنزهات دمشق ومعه صديق له فطرأ عليهما طارىء استثقلاه ولم يجرؤا على طرده ، وفيما هما كذلك إذ سقطت ذبابة في باطية الأخطل فقال له الطارئ : الذباب في باطيتك يا أبا مالك ! فأجابه مرتجلاً :

وليس القذى بالعود يسقط في الانا ولا بذباب نزعه أيسر الأمر
ولكن قذاها زائر لا نحبه رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري[2]

ومن ظريف ما يحكى عنه أنه قدم الكوفة فنزل على سعيد بن بيان رئيس تغلب فيها، و كان أعور قبيح المنظر، وكانت عنده برّة بنت هاني التغلبية و كانت ذات جمال فائق ، فاحتفى به سعيد وأحسن ضيافته ، فلما أخذت الكأس منه جعل ينظر إلى برّة وجمالها وإلى سعيد وقبحه ودمامته وعوره فتعجب من صبرها عليه . فقال له سعيد : يا أبا مالك أنت رجل تدخل على الملوك وتأكل معهم وتشرب ، فأين ترى هيئتنا من هيئتهم؟ وهل ترى عندنا عيباً تنهانا عنه ؟!. فقال له : ما لبيتك عيب غيرك ! فأجابه سعيد : أنا والله يا نصراني أحمق منك لأني أدخلتك بيتي !! وأخرجه ، فخرج وهو يقول :

وكيف يداويني الطبيب من الجوى وبرّة عند الأعور ابن بيان

---

(١) أمم : قريب .
(٢) يروى هذان البيتان والقصة في عدة أشكال اخترنا منها هذا الشكل .

فهلاّ زجرت الطير إذ جاء خاطباً   بضيقة بين النجم والدبران (١)

يُنهنهني الحراس عنها وليتني   قطعت إليها الليل بالرسفان (٢)

إلا أن ذكاء الطبع وسرعة الخاطر اللذين ألهما صاحبنا كل هذه النكت الظريفة وكثيراً أخرى غيرها كانا يسوقانه أحياناً إلى التسرّع أو التهوّر .

روي أنه دخل على بشر بن مروان وعنده الراعي ، فقال له بشر : « أنت أشعر أم هذا ؟ » قال : « أنا أشعر منه وأكرم . » فقال للراعي : « ما تقول؟ » قال : « أما أشعر مني فعسى ، وأما أكرم ، فان كان في أمهاته من ولدت مثل الأمير ، فنعم . » وكان الراعي من أخوال بشر ، فلما خرج الأخطل قال له رجل: « أتقول لخال الأمير : أنا أكرم منك !؟ » فأجابه : « ويلك ، إن أبا نسطوس وضع في رأسي أكؤساً ثلاثاً فوالله ما أعقل معها . »

أغرب من هذه الحادثة وأصدق دلالةً على تهوّر المترجم ما يروى من أن الجحاف بن حكيم أحد زعماء قيس دخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل فقال الخليفة للأخير : « أتعرف هذا ؟ » قال : « لا » ، فقال : « هو الجحّاف » فأنشد :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر   بقتلى أصيبت من سليم وعامر (٣)

وكانت لهذه الفلتة عاقبتها الوخيمة ، فقد غضب الجحاف غضباً شديداً ، وقام من فوره فجمع جموعه وأغار على تغلب في موضع اسمه « البشر » فقتل منها خلقاً كثيراً وأسر عدداً من رجالها كان في جملتهم الأخطل وكانت عليه عباءة

(١) ضيقة : منزل من منازل القمر مما يلي الدبران ، وهو طالع نحس فيما تزعم العرب .

(٢) يظهر أن الأخطل قد استظرف هذه الأبيات لذلك أدمجها في قصيدة مطولة مدح بها يزيد بن معاوية .

(٣) يشير الأخطل بهذا البيت الى ما اصيبت به قيس وحلفاؤها في يوم الكحيل وكان لتغلب على قيس .

قذرة فظنوا أنه عبد وأطلقوه ، وخشي أن يعرف فاختبأ في جب إلى نهاية المعركة التي كان ابنه « أبو غياث » بين قتلاها . وكان لا بد للأخطل من أن يشكو هذه الفاجعة إلى عبد الملك بن مروان ، وقد شكاها له فعلاً . ولكنه أساء التعبير إلى حد كاد يوقعه في غضب الخليفة . ذلك أنه أفرغ شكواه لعبد الملك بهذه الأبيات :

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعوّل

فسائل بني مروان : ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصّل ؟

فان لم تغيرها قريش بعدلها يكن عن قريش مستماز، ومرحل

فغضب عبد الملك وصاح به «إلى أين يا ابن النصرانية؟» وهنا فطن صاحبنا إلى عظم الزلة التي وقع فيها فتداركها بقوله : « إلى النار يا أمير المؤمنين » .

على أن أبرز ظاهرة في أخلاق الأخطل إنما هي تدينه ، فليس من شك في أنه كان شديد التمسك بنصرانيته حريصاً على مبادئها وتقاليدها كل الحرص.

حدّث إسحق بن عبدالله أحد أشراف بني هاشم قال : « قدمت الشام وأنا شاب مع أبي ، فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها ، فدخلت كنيسة دمشق وإذا الأخطل فيها محبوس . فجعلت أنظر إليه ، فسأل عني فأخبر بنسبي فقال : يا فتى إنك لرجل شريف، وإني أسألك حاجة ، فقلت : حاجتك مقضية . قال : إن القس حبسني هاهنا فتكلمه ليخلّي عني . فأتيت القس ، فانتسبت له ، فرحب وعظم . قلت : إن لي إليك حاجة . قال : ما حاجتك ؟ قلت : الأخطل تخلّي عنه . قال : أعيذك بالله من هذا ، مثلك لا يتكلم فيه ، فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزل أستعطفه حتى مضى معي متكئاً على عصاه . فوقف عليه ورفع عصاه وقال : يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات ؟؟ وهو يقول : لست بعائد ... ولا أفعل ، ويستخذي له . (قال) فقلت له : يا أبا مالك

الناس يهابونك والخليفة يكرمك ، وقدرك في الناس قدرك وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له ، فقال : إنه الدين ... إنه الدين !! »(١) .

وحدّث أبو عبد الملك أنه رأى الأخطل في الجزيرة « وقد شكي الى القس ، فأخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصيء كما يصيء الفرخ . فقال له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ ! فقال : يا ابن أخي ، إذا جاء الدين ذللنا »(٢) .

وروي أن عبد الملك بن مروان عرض عليه الاسلام جاداً أو هازلاً فقال له : « إن أنت أحللت لي الخمر ، ووضعت عني صوم شهر رمضان أسلمت !! »

قد يكون في هذه الأخبار شيء من المبالغة ولكنها تدلنا دون أدنى ريب على أن الرجل كان معروفاً بتدينه على أنه لولم يكن كذلك لجارى خلفاء بني أمية ولا سيما عبد الملك بن مروان واعتنق الاسلام ، ولزاده ذلك عزاً إلى عزه وجاهاً إلى جاهه ، ولكنه ما كان ليبيع دينه نظير شيء من عرض هذه الحياة كائناً ذلك ما كان . ولقد أثر دينه في أدبه فعصم لسانه من الهجر ونزه هجاؤه عن الفحش ولقد كان على حق عندما قال : « إنه لم يهج أحداً بما تستحي العذراء أن تنشده أباها » .

(ج) شعره : للأخطل ـ كما لصاحبيه ـ ديوان ضخم عالج فيه معظم أنواع الشعر . وقد طبعه الأب أنطون صالحاني ببيروت سنة ١٨٩١ م وشرحه شرحاً مستفيضاً وضم إليه ما تفرق من أخبار صاحبه فجاء أثراً عظيم القيمة جم الفائدة . ولم تقف عناية الأب صالحاني بالأخطل عند هذا الحد ، بل ظل يتتبع شعره في دور الكتب وينشر كل ما ظفر به منه في ذيول وملاحق ظهر آخرها عام ١٩٣٨ م.

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٧١ .

وهكذا أدى الأب صالحاني للأخطل وللأدب العربي خدمة لا تنسى .

وقد خلا ديوان المترجم تقريباً من الرثاء ، فليس فيه سوى أربعة أبيات من الرثاء ندب فيها الشاعر ولي نعمته يزيد بن معاوية لا قيمة لها البتة ، وحفل بالنسيب ، ولكنه نسيب لا يساعد كثيراً على علو منزلة صاحبه الشعرية . أما فيما عدا ذلك فانه يحتوي على طائفة حسنة من غرر الشعر ونفائسه .

والمعروف أن الأخطل يهذب شعره ولا يألو جهداً في تنقيحه . ولكني أشك في أنه كان يفعل ذلك دائماً لأنه لو فعل ذلك دائماً لما تغزل بمثل قوله :

يرمين بالحدق المراض قلوبنا فغويهن مكلف مضرور

وبمثل قوله :

وإذا نصبن قرونهن لغدرة فكأنما حلت لهن نذور

ولو فعل ذلك دائماً لما ندب شبابه بمثل قوله :

إمّا تريني حناني الشيب من كبر كالنسّر أرجف والانسان مهدود
فقد يكون الصبا مني بمنزلة يوماً وتقتادني الهيف الرعاديد

وأخيراً لو فعل ذلك دائماً لما مدح بني أمية بمثل قوله :

وأعطيتم على الأعداء نصراً فأبصرتم به والناس عور

فما أظن أنك بحاجة إلى أن أدلك على مكان الغثاثة من قوله : (فغويهن مكلف مضرور) ! أو على مكان الركاكة من قوله : (كالنسر أرجف والانسان مهدود) ومن قوله (وتقتادني الهيف الرعاديد) ، أو على مكان السماجة من قوله : (وإذا نصبن قرونهن لغدرة) ومن قوله :

وأعطيتم على الأعداء نصراً فأبصرتم به والناس عور !

تلك السماجة التي يخيل لك معها في البيت الأول أن حبيبات الشاعر عبارة عن جماعة أعنز ! . وفي البيت الثاني أن البيت الأموي فئة قليلة جداً ، ممن أنعم الله

عليهم بسلامة البصريين جموع لا تحصى ممن ابتلوا بعاهة العور... ولكنه ـ أعني الأخطل ـ ربما أحسن تنقيح رائيته الشهيرة التي مطلعها : « خف القطين فراحوا منك أو بكروا ... الخ » والتي يبدو فيها أثر التنقيح واضحاً جلياً ، وربما فعل ذلك أيضاً في بعض خمرياته .

غزله ورأيه في المرأة : قلت لك إن غزل الأخطل لا يحتل المكان الأول من ديوانه وأقول لك الآن إنه لا يعدو أن يكون تكراراً لما قاله مئات الشعراء قبل المترجم . فمن من شعراء العرب لم يشيّع حبيبة ظاعنة ، ولم يبك على طلل دارس ، ولم يتوجع لهجر طال أمده أو يتطلع إلى وصل هو كل ما يتمنى في هذه الحياة ؟ ! . وعلة هذا الجفاف الغريب في غزل شاعرنا أنه لم يكن صاحب غرام فيشبب على نحو ما يفعل الشعراء العشاق الصادقون ، ولم يكن صاحب فجور فيتحدث عن مغامراته كما يتحدث الشعراء المجان المتعهرون ولم يكن في النهاية صاحب خيال رقيق يلهمه بدائع الغزل في غير حب ولا مجون كما حصل لصاحبه جرير . ولعلّي أروي لك أحسن غزل الأخطل إذا رويت لك هذه الأبيات :

ألا يا اسلمي يا هند ، هند بني بدر وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر
وإن كنت قد أقصدتني إذ رميتني بسهميك فالرامي يصيد وما يدري
أسيلة مجرى الدمع أما وشاحها فجارٍ وأما الحجل منها فما يجري
وكنتم إذا تنأون عنا تعرضت خيالاتكم أو بت منكم على ذكر

وهذه الأبيات :

ليالي نلهو بالشباب الذي خلا بمرتجة الأرداف طيبة النشر
أسيلة مجرى الدمع خفاقة الحشا من الهيف مبراق الترائب والنحر
وتبسم عن ألمى شتيت نباته لذيذ إذا جادت به واضح الثغر
وإني وإياها إذا ما لقيتها لكالماء من صوب الغمامة والخمر

وأنت ترى أنه ليس فيما رويت لك شيء يستوقف نظر الباحث . بيد أنه إن كان الأخطل غير مجيد في وصف حوادث الغرام ومحاسن المرأة الجسمية إجادة تذكر فانه مجيد دون أن يكون أصيلاً في وصف خلق المرأة وميلها إلى الشباب ونفورها من المشيب(١) . وقد عالج الأخطل هذا الموضوع مراراً عديدة نجح في أكثرها نجاحاً لا بأس به . عالجه في دالية مدح بها يزيد بن معاوية فقال :

يقلن : لا أنت بعل يستقاد له ، ولا الشباب الذي قد فات مردود !

وعالجه في رائيته الشهيرة التي مدح بها عبد الملك بن مروان فقال :

يا قاتل الله وصل الغانيات ! إذا أيقنّ أنك ممن قد زها الكبر (٢)
أعرضن لما حنى قوسي موترها ، وابيض بعد سواد اللمة الشعر (٣)
ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا لهن إلى ذي شيبة وطر

ولكن أحسن ما وقع له في هذا الباب قوله في قصيدة يهجو فيها جريراً ويفتخر على قيس : —

ما إن رأيت كمكرهن إذا جرى فينا ، ولا كحبالهن حبالا
المهديات لمن هوين مسبّة ؛ والمحسنات لمن قلين مقالا
يرعين عهدك ما رأينك شاهداً ، وإذا مذلت يصرن عنك مذالا(٤)
إن الغواني إن رأينك طاوياً برد الشباب ، طوين عنك وصالا

(١) اقدم وأحسن من سبقه الى هذا فيما اعلم علقمة الفحل الذي يقول :

فان تسألوني بالنساء فانني بصير بأدواء النساء طبيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب
فان شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب

(٢) زهاه الكبر : استخفه .
(٣) اللمة : من الشعر ما جاوز شحمة الأذن .
(٤) مذل : كره وضجر .

وإذا وعدنك نائلا أخلفنه ووجدت عند عداتهن مطالا
وإذا دعونك عمّهن، فإنه نسب يزيدك عندهن خبالا
وإذا وزنت حلومهن إلى الصبا رجح الصبا بحلومهن فمالا (١)

فما أشك في أنك تستطرف معي هذه المنتخبات ولا سيما الأبيات الأخيرة لأنها من نفاسة الوصف ودقة التحليل بحيث يمكن أن تعتبر من أحسن ما قيل في هذا الباب إن لم تكن أحسن ما قيل. على أنه قد لا يبعد أن يكون الأخطل أول شاعر فطن إلى هذه اللباقة النسوية التي يمثلها قوله :

المهديات لمن هوين مسبة والمحسنات لمن قلين مقالا

هجاؤه : وتسألني أن أحدثك عن هجاء الأخطل فأقول لك إنه شديد إلى أقصى حدود الشدة قاس إلى أبعد حدود القسوة، إلا أنه منزه عن القذف، خلو من الفحش والهجر (٢). والأخطل من هذه الناحية عظيم الشبه بالحطيئة الذي كان هجاؤه للزبرقان بن بدر من العفة بحيث حمل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على القول بأنه لم يهجه، ومن الشدة بحيث حمل حسان بن ثابت على القول بأنه

---

(١) لجرير في الشيب وسوء أثره في نفس المرأة خطرات لطيفة أيضاً أحسنها فيما أعلم هذه الأبيات :

وقالت : فيم أنت من التصابي متى عهد التشوق والدلال
فما ترجو ؟ وليس هوى الغواني لأصحاب التنحنح والسعال
رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
ومن يبقى على غرض المنايا وأيام تمر مع الليالي

(٢) الواقع ان هذه القاعدة التي جرى عليها الأخطل في هجائه وهي — الشدة على الهجو في غير فحش ولا اقذاع — لا تخلو من شذوذ. ومن امثلة هذا الشذوذ قوله في هجاء النابغة الجعدي :

وما أم ربوت على يديها بطاهرة الثياب ولا حصان

ولكن هذا قليل في هجائه الى الغاية.

سلح عليه . وأكبر الظن أن عفة هجاء الأخطل ناشئة عن تمسكه بدينه . فقد رأيت أن النصرانية لم تكن (لعقة على لسانه) كما كان الاسلام عند جرير والفرزدق :

على أن الأخطل لا يقتصر في هجائه على الغمز واللمز بل إنه يرسم لمهجوه أحياناً صورة فنية تثير في نفس القارىء شعوراً مزدوجاً هو شعور الازدراء للمهجو ، والاعجاب بالهجاء . فمن ذلك قوله واصفاً هزيمة أحد زعماء بني العجلان في معركة هزمه بها التغالبة رهط الأخطل :

ونجّى ابن بدر ركضه من رماحنا   بنضّاحة الأعطاف ملهبة الحضر (١)
إذا قلت : نالته العوالي ، تقاذفت   به سوحق الرجلين صائبة الصدر (٢)
كأنهما ، والآل ينجاب عنهما ،   إذا انغمسا فيه ، يعومان في غمر (٣)
يسرّ إليها ، والرماح تنوشه :   فدى لك أمي، إن دأبت إلى العصر
فظل يفدّ بها ، وظلت كأنها   عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر

فهذا التفصيل في التحدث عن هزيمة ابن بدر ، وهذه السخرية المرة التي تصوره ملهباً ظهر فرسه بالسوط مرة ، ومفدّياً إياها بأمه تارة تجعل من هذه الأبيات الخمسة صورة فنية لا نبالغ إذا قلنا إنها على جانب كبير من الأصالة والنفاسة . وفي هذه القصيدة التي يهجو بها الأخطل طائفة كبرى من خصومه شذرات أخرى لطيفة منها قوله :

تنق بلا شيء شيوخ محارب   وما خلتها كانت تريش ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت   فدل عليها صوتها حية البحر

---

(١) نضاحة الأعطاف : تفيض أعطافها عرقاً .
(٢) سوحق الرجلين : بعيدتهما . وصائبة الصدر : سريعة المر قاصدة في استوائها .
(٣) الآل : السراب .

إن تشبيه الثرثرة الفارغة بنقيق الضفادع تشبيه مبتذل ، ولـكن اهتداء حية البحر إلى الضفادع بفضل نقيقها تتمة طريفة للتشبيه تجعل من هذين البيتين صورة فنية رائعة . ولـكن هذه النزعة التي تثير في نفس القارىء الشعور باللذة الفنية ليست غالبة على هجاء الأخطل وإنما تغلب عليه صرامته وعفته .

مديحه : وكما نزه الأخطـل هجـاءه عن الفحش والهجر نزه مديحـه عن الاستجداء الذي سقط فيه مديح جرير ، ونزهه كذلك عنه التناقض الذي وقع فيه مـديح الفرزدق . وعلة ذلك أنه لم يكن من ضعة النسب وشدة الطمع بحيث يقف من ممدوحيه موقف السائل يشكو لهم كثرة عياله مرة ، ويذكرهم ما عند الله من أجر في صلة أمثاله تارة ، وأنه أخلص إلى بني أمية الاخلاص كله فقصر مديحه على خلفائهم وأمرائهم وعلى من خدمهم من كبار الولاة والقواد والزعماء . وقد جرى الأخطل في مديحه على غرار من سبقه من كبار الشعراء المـداحين كزهير بن أبي سلمى ونابغة بني ذبيان وأعشى بكر . فوصف أخلاق ممدوحيه وشمائلهم ومآثرهم ومفاخرهم وصفاً يشيع فيه الصدق وتغلب عليه البساطة ويندر فيه الغلو والاسراف . فبنو أمية يبارون الريح سخاءاً إذا أجدب العام وهم من قوة البطش وشدة البأس بحيث لا يلينون إلا إذا استسلم لهم العدو . هـذا إلى أنهم ذوو صدور رحبة وأخلاق سمحة ، يحسنون الصفح إذا قدروا والعفو إذا ظفروا ، ورجلهم عبد الملك بن مروان قائد جيوش وقامع فتن وموطد أركان مملـكة ، وأخوه بشر مطعام مضياف ذو رأي حصيف وحلم رزين . أما الحجاج بن يوسف عامله الأكبر فانه صعب المراس شديد الاخلاص للعرش الأموي يأتي البريد في كل يوم بتحفة من تحفه الثمينة وخبر من أخباره السارة ، وهلم جراً.

ولم يكن للأخطل بد من أن يعالج السياسة ، لأنه شاعر قصر له سياسته وله مصالحه التي لا تستغنى عن دعاية قوية واسعة ، ولأنه لسان قبيلة يهمها أن تنتفع

بشعره إلى أبعد حد مستطاع . وقد صدع الأخطل بمشيئة هذه الظروف ، فاصطنع السياسة في شعره ولا سيما في مديحه مراعياً مصلحة قبيلته قبل كل شيء . ولك أن تقرأ رائيته الشهيرة التي مطلعها « خفّ القطين ... الخ » والتي تقدم بعضها لتتبين منها كيف يتوخى مصلحة قومه في تحريضه بني أمية على زفر بن قيس زعيم قيس عيلان وفي التهجم على حلفائه من سليم وكليب يربوع وغيرهم لأن زفر بن قيس وأنصاره الأدنين والأبعدين ليسوا أعداء لبني أمية فحسب بل إنهم أعداء لتغلب قبيلة الشاعر التي رأت أن من مصلحتها أن تشد أزر بني أمية وتؤيد سلطانهم وأن تقف إلى جانبهم في الحروب الداخلية التي دارت بينهم وبين خصومهم ، وبين زفر هذا وأشياعه وبين تغلب ، كما بينه وبين آل مروان ، حروب ووقائع سالت فيها الدماء كل مسيل . ومديح الأخطل الجيد ، سياسياً كان أم شخصياً بحتاً ، كثير . إليك منه هذه الأبيات التي يمدح بها عبد الملك بن مروان في قصيدة (خف القطين ... الخ) :

مقـدم مثـتي ألفٍ لمـنزله ... ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر
يغشى القنـاطر يبنيهـا ويهدمهـا ... مسوّم فوقه الرايات والقتر (١)
حتى يكون لهم بالطفّ ملحمة ... وبالثوية لم ينبض بهـا وترّ (٢)
وتستبين لأقوام ضـلالتهم ... ويستقيم الذي في خده صعر
ثم استقل بأثقال العراق وقـد ... كانت لهم نقمة فيه ومدّخر (٣)
في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر (٤)

---

(١) مسوم : معلم بعلامة يعرف بها . القتر : الغبار .

(٢) الثوية : موضع بقرب الكوفة . لم ينبض بها وتر : لم ترم بها النبال لقرب ما بين الجيشين .

(٣) عاقبهم على ما فرط منهم حال استيلائه عليهم وادخر لهم عقوبات اخرى للمستقبل .

(٤) النبعة : واحدة النبع وهو الشجر الذي تتخذ منه القسي ينبت في قلل الجبال . يعصبون بها : يطيفون بها .

وهـذه الأبيات التي يمدح بها خالد بن عبد الله بن أسيد بن أبي العيص بن أمية :

أبى عودك المعجوم إلا صلابةً ... وكفاك إلا نائلاً حين تسأل
ألا أيها الساعي ليدرك خالداً ... تناه وأقصر بعض ما كنت تفعل
فهل أنت إن مد المدى لك خالد ... موازنه أو حامل ما يحمّل
أبى لك أن تسطيعه أو تناله ... حديث شآك القوم فيه وأول

فخره : وكما ينسج الأخطل على منوال من تقدمه من الشعراء في المديح ينسج على منوالهم كذلك في الفخر ، أستغفر الله ، بل إنه ينسج على منوال سلفه أو عمه عمرو (١) بن كلثوم بصورة خاصة . فقد كان فخر الأخطل سجلاً حافلاً بوقائع تغلب وأيامها في القرن الأول للهجرة كما كان فخر ابن كلثوم ولا سيما معلقته سجلاً حافلاً بمآثر تغلب وأيامها في القرن السادس للميلاد . ولك أن تقارن بين قول الأخير :

وإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقاف بها اشمأزت ... وولتهم عشوزنة زبونا (٢)
عشوزنة إذا انقلبت أرنّت ... تدق قفا المثقف والجبينا

وبين قول الأول :

إذا الملك آلى أن يقيم قناتنا ... فليس علينا يومذاك بقادر

---

(١) أشار الأخطل الى عمرو بن كلثوم على أنه عمه بقوله :

أبني كليب ان عمي اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

اذ المراد بقوله « عمي » عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، وأخوه مرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر .

(٢) الثقاف : التقويم . اشمأزت : نفرت . عشوزنة : صلبة شديدة . زبون : دفوع .

إذا الأصعر الجبار صعّر خده ... أقمنا له من خده المتصاعر
بضربة سيف أو بنجلاء ثرة ... إذا نشجت مجت دماء الأباهر(١)

أقول : لك أن تقارن بين هذه الأقوال لتتبين أن الشاعرين يتكلمان لغة واحدة ويمثلان خلقاً واحداً ويعبران عن سجية واحدة . ومع أن الأخطل يبدو معتدلاً في غزله وفي مديحه وفي هجائه أحياناً فانه لا يحجم عن الغلو والاسراف على نفسه في الفخر اقتداءً بسلفه ابن كلثوم ، ولا أدل على ذلك من قوله :

إنا لنقتاد الجياد على الوجى ... نحو العدا بمساعر أبطال(٢)
في كل ذي لجب كأن زهاءه ... ليل تعرض أو رعان جبال(٣)
دهم يظل به الفضاء معضّلاً ... كالطود أرعن مجفل الأثقال(٤)
مابين أوله وآخر جمعه ... يوم يسار وليلة البغال
مجر تظل البلق في حافاته ... ينشدن بين تلمس وسؤال(٥)

أظن أن هذا الجيش الذي يصفه لنا الأخطل جيش دولة من أقوى الدول وأكثرها عدداً وعُدداً ، لا جيش قبيلة مهما عظمت سطوتها وكثر عدد أفرادها واتسعت رقعة سلطانها ؛ ولكن هذا الغلو في الفخر غير كثير على خليفة

---

(١) نجلاء : واسعة والمراد بها هنا الطعنة . ثرة : يتدفق منها الدم . نشجت : كان لها صوت كصوت النشيج . الأباهر جمع ابهر وهو الظهر أو الوريد .

(٢) الوجى : الحفى . المساعر : جمع مسعر وهو مسعر نار الحرب .

(٣) ذو لجب : جيش كثير العدد له ضوضاء وجلبة . زهاؤه : مقداره . رعان : جمع رعن : مقدم الجبل .

(٤) دهم : كثير العدد . معضل : ضيق . أرعن : له فضول تشبه رعن الجبل . مجفل : كثير الثقل .

(٥) مجر : جيش عظيم . البلق : جمع أبلق وهو من الخيل ما جمع بين السواد والبياض وما كان محجلا الى الفخذين .

عمرو بن كلثوم القائل :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

خمرياته : على أنه إن كان الأخطل مقلداً في كل ما سبق درسه من أنواع شعره فانه أصيل كل الأصالة في وصف الخمر وما يتصل بها من غناء وطعام وآنية وما إلى ذلك، ولست أعني أن شاعراً لم يسبقه إلى هذا الوصف، فقد سبقه وصّاف الخمر في الجاهلية والاسلام ، ولا سيما الأعشى ، إلى كل هذا وإنما أعني أنه استلهم حياته كل ما قال في وصف الخمر واستمد أخيلته وخواطره في هذا الباب من شؤون وحوادث ملأت نفسه ونفذت إلى أعماق حسه واحتلت المقام الأول من تاريخ حياته . فما أظن أنه يكذبنا في شيء عندما يخبرنا أن شرب « ثلاث زجاجات » بملأه « زهواً » حتى يخيل له أنه « أمير على أمير المؤمنين » وما أظن أنه يكذبنا في شيء كذلك عندما يحدثنا أنه ورفاقة شربوا ذات مرة حتى فقدوا صوابهم ثلاثة أيام متواليات، فلما أفاقوا لم يكن لهم همّ إلا استئناف الشراب. وما أظن أنه يصف لنا إلا نفسه أو أحد إخوانه عندما يصف لنا « صريع مدام » حف به إخوانه وهم « يهادونه أحيانا ويجرونه حيناً » . وما أريد أن أسرف في التلميح والاختصار أو التشويه والمسخ فاسمع الأخطل يحدثك عن يوم من أيام لهوه وطربه :

شربت ، ولاقاني ، لحلّ أليتي ، قطارتروّى من فلسطين مثقل (١)
عليه من المعزى مسوك روية مملأة يعلى بها وتعدّل (٢)

---

(١) الألية : اليمين . القطار : عدد من الأبل متتابع على نسق واحد .
(٢) المسوك : جمع مسك وهو الجلد والمعني به هنا الزق .

فقلت : اصبحوني ، لا أبًا لأبيكم ! وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
أناخوا ، فجروا شاصيات ، كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا (١)
وجاؤوا ببيسانية هي ، بعدما يعل بها الساقي ، ألذو أسهل ، (٢)
فصبوا عقاراً في إناء ، كأنها إذا لمحوها جذوة تتأكل
تمر بها الأيدي سنيحًا وبارحاً ، وتوضع باللهمّ حيّ ، وتحمل (٣)
وتوقف أحيانًا فيفصل بينها غناء مغن ، أو شواء مرعبل (٤)
فلذت لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مراح وأخيل (٥)
فما لبثتنا نشوة لحقت بنا توابعها مما نعل وننهل
تدب دبيبًا في العظام كأنه دبيب نمال في نقًا يتهيل
فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها ، وأطيب بها مقتولة حين تقتل !

فما أشك في أنك تحس الصدق والأصالة في كل بيت من هذه الأبيات : تحسهما في هذين البيتين اللذين يصف فيهما الأخطل قطاراً مثقلاً بالخمر قادمًا من فلسطين . وتحسهما في هذين البيتين اللذين يحدثنا فيهما الأخطل كيف ابتاع نصيبه من هذه الخمر . وتحسهما في هذا البيت الذي يعين به الاخطل نوع هذه الخمرة ويصفها بأحسن الأوصاف فيقول لنا : إنها بيسانية وإنها لذيذة الطعم خفيفة الأثر في عقل الشارب وجسمه . وتحسهما في هذه الأبيات التي يحدثنا فيها الأخطل كيف نادم جماعة من إخوانه على هذه الخمرة فشربوا وأكلوا وسمروا . وتحسهما أخيراً في

(١) شاصيات : مرتفعات القوائم من امتلائها .
(٢) بيسانية : نسبة الى بيسان قرية من قرى فلسطين .
(٣) السنيح : الآتي من جهة اليمين . والبارح : الآتي من جهة اليسار .
(٤) مرعبل : مقطع .
(٥) المراح : النشاط . والأخيل : الكبر .

هذا البيت الذي يصف فيه الأخطل دبيب هذه الخمرة في عظام شاربها فيشبهه بدبيب النمال في الرمال وهو تشبيه ما أظن أن شاعراً سبق المترجم إليه . وفي إمكانك أن تتبين الصدق والأصالة في صفحات أخرى عديدة من خمريات الأخطل تقدمت الاشارة إلى بعضها في هذا الفصل (١) .

(١) للأخطل وصف كثير اقتصرت هنا على الجانب الخمري منه لأنه أكثره أصالة وأجوده . وسأروي لك مثلا منه عند الفصل بين المترجم وصاحبيه .

الفصل الخامس

الفصل بين
جرير والفرزدق والأخطل

أ ـ أقوال الرواة والنقاد القدماء في هذا الباب .

ب ـ نقدها .

ج ـ صعوبة الفصل بين هؤلاء الشعراء .

د ـ الرجوع إلى قاعدتين أساسيتين في هذا الموضوع .

هـ ـ تفضيل جرير لتفوقه في خمسة أضرب من القريض . البرهنة على ذلك .
تفضيل الفرزدق على الأخطل لتفوقه في ضربين من الشعر . مثل من فخر الفرزدق . موازنة بين الفرزدق والأخطل في وصف القطا . موازنة أخرى بينهما في وصف لقاء الذئب . الأخطل ثالث الثلاثة لتفوقه في وصف الخمر فقط .

و ـ خاتمة .

***

(أ) والآن لنتبين منزلة كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين شغلوا العالم العربي وكانوا حديث الخاص والعام زمناً غير قليل .

الواقع أن أقوال الرواة والنقاد في تعيين منزلة كل منهم وتحديد مركزه بالنسبة إلى صاحبيه مختلفة كل الاختلاف، فهذا المفضّل الضّبي وهو الراوية الناقد الثقة يقول بتفوق الفرزدق ويقدمه على صاحبيه تقدمة شديدة . وهذا ابن سلام

ينسج على منواله في تقديم الفرزدق على صاحبيه . وهذا يونس النحوي يقدم الفرزدق مرة ويقدم الأخطل تارة . وهذا حماد الراوية يفضل الأخطل ويقول: إن شعره حبب إليه النصرانية . وهذا أبو عبيدة يفضل الأخطل ويقول: إنه أشبه بالجاهلية وأشدهم أسر شعر وأقلهم سقطاً . وهذا أبوعمرو بن العلاء وهو الراوية الناقد والقارىء أيضاً يفضل الأخطل ويشبهه بالنابغة الذبياني لصحة شعره ويقول: « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً ! »والله أعلم بما لهذا الرأي المبني على عبادة القديم من قيمة . وهذا ناقد عذري يسأله عبدالملك عن أمدح بيت قالته العرب فيجيب قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وعن أهجى بيت قالته العرب فيجيب : قول جرير

فغض الطرف إنك من نمير فـلا كعباً بلغت ولا كلابا

وعن أفخر بيت قالته العرب فيجيب قول جرير :

إذا غضبت عليـك بنو تميم حسبت النـاس كلهم غضابا

وعن أغزل بيت قالته العرب فيجيب : قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننـا ثم لا يحيين قتلانـا

وعن أحسن تشبيه قالته العرب ، فيجيب : قول جرير :

سرى نحوكم ليلا كأن نجومه قناديـل فيهنّ الذبال المفتـل

وعبد الملك يقره على رأيه ويأمر له بجائزة . وهذا جرير يقول عن الفرزدق إنه « نبعة الشعر » ويصف موقفه من الأخطل فيقول : « أدركته وله ناب واحد،ولو أدركته وله نابان لأكلني » ويقول عن نفسه مرة إنه « مدينة الشعر منها يخرج وإليها يعود » وتارة إنه « نحر الشعر نحراً . » وهذا الفرزدق يقول لسليمان بن عبد الملك وقد سأله عن أشعر الناس « كفاك بابن النصرانية إذا مدح » . وهذا

مالك بن الأخطل يقول « جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ».
وأخيراً هذا مروان بن أبي حفصة يقول :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو الكلام ومره لجرير
ولقد هجا فأمضّ أخطل تغلب وحوى اللهى بمديحه المشهور

(ب) وغني عن البيان أن ناقداً حديثاً لا يمكنه أن يستمد رأيه من هذه الأقوال المجملة على العموم إجمالا تاماً والتي لا يخلو بعضها من التعصب ، والتي لا تعتمد في جملتها على درس حقيقي أو نقد صحيح،والتي لا تخلو من الوضع والافتعال أيضاً. فما أظن أن قصة العذري من الصحة في شيء . ولك أن تراجعها في (ج٧ص٥٠) من الأغاني لتتحقق وجاهة هذا الزعم .

(ج) على أن الفصل بين هؤلاء الشعراء الثلاثة وتحديد منزلة كل منهم بالنسبة إلى صاحبيه أمر لا يخلو من صعوبة ومشقة ذلك أن حسنات كل منهم تختلف وحسنات صاحبيه في موضوعاتها وأغراضها وطرق أدائها اختلافاً شديداً . مثال ذلك أن القدماء يستحسنون كثيراً قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

وهو استحسان في محله ، ولاسيما بالنسبة إلى البيت الثاني . ويستحسنون كثيراً أيضاً قول الفرزدق :

قالت : وكيف يميل مثلك للصّبا وعليك من سمة الحليم وقار؟!
والشيب ينهض بالشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

وهو استحسان في محله كذلك ، ولكن مما لا شك فيه أنه ليس بين بيتي جرير وبيتي الفرزدق صلة يستطيع ناقد أن يتخذها أساساً لمقارنة أو موازنة بين الرجلين،

وقل مثل ذلك عن أكثر محاسن هؤلاء الفحول الثلاثة إن لم نقل عنها جميعاً ، ومعنى هذا أن الفصل بينهم من الصعوبة بمكان .

(د) ومع ذلك أحب أن أقول كلمة متواضعة في هذا الباب .

يخيل إليّ أن الفصل بين جرير والفرزدق والأخطل يقوم على أمرين اثنين لا ثالث لهما ، أحدهما عدد أبواب القريض التي برّز فيها كل من هؤلاء الشعراء ، وثانيهما ما ترك من غرر الشعر ونفائسه في هذا الباب .

(ه) وعلى هذا يكون جرير أكبر الثلاثة وأعلاهم كعباً في صناعة القريض لأنه يبذ صاحبيه في خمسة من أبوابه هي : المديح والغزل والهجاء والعتاب والرّثاء ، فما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل في المديح مثل قول جرير في الحجاج :

دعوا الجبن يا أهل العراق فانما ... يباع ويشرى سبي من لا يقاتل
لقد جرّد الحجاج بالحق سيفه ... لكم فاستقيموا لا يميلنّ مائل
فما يستوي داعي الضلالة والهدى ... ولا حجة الخصمين حق وباطل
وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم ... سوياً ولا عند المراشاة نائل
ومن غل مال الله غلت يمينه ... إذا قيل أدّوا لا يغلنّ عامل

ولا مثل قوله في عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك :

فيومان من عبدالعزيز تفاضلا ... ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تحوط المسلمين جياده ... ويوم عطاء ما تغبّ نوافله

ولا مثل قوله في نفس القصيدة :

فلا هو من الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله(١)

---

(١) قد يقال ان جريراً أخذ هذا المعنى من الأخطل الذي يقول في مدح بشر بن مروان .

اغر خليه التاج لا متعبس ... ولا ورق الدنيا عن الدين شاغله

ولكن أظن أنه من الحق أن نقرر أن جريراً أخذه وهو « قطعة خشب فأعاده سبيكة ذهب » هذا اذا فرضنا انه اخذه اخذاً وهو ما استبعده .

فهذا بديع ليس في الناس مثله   وهذا مديح لا يكذب قائله

ولست أنكر فضل الأخطل في قوله :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف   إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم   وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ولكن أيقاس هذان البيتان بما تقدم ذكره من مدح جرير براعة وصف وجزالة لفظ ومتانة سبك وحلاوة جرس ؟! إنني أشك في ذلك[1].

وما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل كلمة في الغزل فيهـا من رقة الشعور ولطف الخيال وجمال اللغة وحسن التأليف مثل ما في قول جرير :

غيّضن من عبراتهن وقلن لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

وقوله في العيون :

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننـا ثم لا يحيين قتلانـا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقوله في نفس القصيدة :

لقد كتمت الهوى حتى تهيّمني   لا أستطيع لهذا الحب كتمانا

وقوله من أخرى :

تركت محلّئين رأوا شفاء   فحاموا ثم لم يردوا وحاموا

وما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل كلمة في الهجاء فيها من شدة النكاية ونزاهة العبارة ومتانة الأسلوب مثل ما في قول جرير :

---

(١) لولا وجود شك بنسبة البيت التالي الى الفرزدق وهو :

يغضي حياء ويغضى من مهابته   فمـا يكلم الا حين يبتسم

لكان الفرزدق عندي أمدح الثلاثة بهذا البيت، فان فيه من عمق التفكير ودقة التصوير وجمال الأداء ما لا نظير له في مديح جرير والأخطل كله .

فغض الطرف إنك من نمير　　فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وقد حدثتك عن رثاء الفرزدق حديثاً لا يخلو من تطويل زعمت فيه أنه خلو من أهم عنصر من عناصر الرثاء ألا وهو « الكلام المؤثر الذي يصور نبضات القلوب المحزونة وخلجات النفوس المتألمة » ، وأشرت إلى رثاء الأخطل فقلت لك إنه عبارة عن أربعة أبيات لا قيمة لها البتة ، وقلت لك أيضاً إن جريراً مجيد في الرثاء كما أنه مجيد في الغزل ، وأقول لك الآن إنه لولم يكن له فيه سوى مرثيته لزوجته لكفى ، وهذه المرثية مشهورة ومع ذلك أروي لك منها هذه الأبيات :

لولا الحياء لعادني استعبار　　ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلبي إذ علتني كبرة　　وذوو التمائم من بنيك صغار
صلى الملائكة الذين تخيروا　　والطيبون عليك والأبرار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر　　ومع الجمال سكينة ووقار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا　　ليل يكرّ عليهم ونهار

ولسنا نعرف للفرزدق ولا للأخطل عتاباً يستحق الذكر ، ولكن يائية جرير التي يعاتب بها جده الخطفى على استرداده مالاً نحله إياه إثر ولادة صبية ولدت له والتي يقول فيها :

وإني لمغرور أعلّل بالمنى　　ليالي أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة　　فان عرضت أيقنت أن لا أباليا
وإني لعفّ الفقر مشترك الغنى　　سريع إذا لم أرض داري انتقاليا
بأي سنان تطعن القوم بعد ما　　نزعت سناناً من قناتك ماضيا

أقول هذه اليائية من خير ما عاتب به شاعر إنساناً أساء إليه ونال منه . وإذن فجرير مقدم على صاحبيه في هذه الأبواب الخمسة التي له فيها غرر ومحاسن لا نعرف لها نظيراً في شعر الفرزدق والأخطل . ويليه الفرزدق في المنزلة لأنه يبذ صاحبيه

في بابين فقط من أبواب القريض هما الفخر والوصف . فمن غرره التي يقدم بها على صاحبيه في الفخر قوله :

وركب كأن الريح تطالب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم ... على شعب الأكوار من كل جانب
إذا ماراأوا ناراً يقولون ليتها ... وقد خصرت (١) أيديهم نار غالب

وقوله :

وقد علم الجيران أن قدورنا ... ضوامن للأرزاق والريح زفزف

وقوله :

وكنا إذا الجبار صعّر خده ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع (٢)

وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا فراره ... ويهرب منا جهده كل ظالم

فلست أعرف لجرير ولا للأخطل فخراً يداني هذا الفخر في جمال معناه وجلال مبناه .

أما الوصف فليس لجرير فيه إذا استثنينا وصف عظاء الرجال شيء يذكر . ولكن للأخطل وصف كثير أحسنه في الخمر . وقد حدثتك عنه عند الكلام عن شعره وهو في هذا النوع من الوصف مقدم على صاحبيه ، إلا أنه دون الفرزدق فيما عدا ذلك .ولك أن تقارن بين ما قاله الفرزدق في وصف القطا وزقّ أفراخه وبين ما قاله الأخطل في هذا الشأن لتتبين من السابق في هذه الحلبة ، قال الفرزدق :

---

(١) خصرت : تقلصت من شدة البرد .
(٢) الأخادع : جمع أخدع وهو شعبة من الوريد .

ويدعو القطا فيها[1] القطا فيجيبه   توائم أطفال من السبسب المحل
دوارج أخلفن الشكير كأنمـا   جرى في مآقيها مراود من كحل
يسقين بالموماة زغباً نواهضاً   بقايا نطاف في حواصلها تغلي
تمج أداوى في أداوى بها استقت   كما استفرغ الساقي من السجل بالسجل

وقال الأخطل :

إذا صدرت عنـه[2] حمام تركنه   لورد قطاً يسقي فرادى وتوأما
تراها إذا راحت رواءً ، كأنها   معلقة عنـد الحنـاجر حنتما[3]
تـأوّب زغبـاً بالفـلاة تركنها   بأغبر مجهـول المخـارم أقتما[4]
إذا نبهتهنّ الروافد بالقرى ،   سقين مجاجات هوامد جثما[5]
ينبهن قيظي الفراخ كأنمـا   ينبهن مغموراً من النوم أعجما[6]
ثنين عليها الريش حتى تلاحقت ،   وصـار شعاعاً قيضها قد تحطما[7]
فطارت شلالاً وابذعرت كأنها   عصـابة سبي شمّ أن يتقسما[8]

فلا نزاع في أن الفرزدق أصدق تصويراً وأروع خيالاً وأنصع ديباجة. وما أشك في أنك تدرك ذلك إدراكاً تاماً وتؤمن به إيماناً تاماً . ولك أن تقارن أيضاً بين أبيات الفرزدق النونية التي روى فيها قصة لقائه الذئب ومقاسمته زاده وأبيات

---

(١) الضمير في « فيها » عائد الى البيداء الموصوفة بأبيات سابقة .
(٢) الضمير في (عنه) عائد الى الماء المذكور في بيت سابق .
(٣) الحنتم : الجرة الخضراء شبه بها حواصل القطا .
(٤) تأوب : تعود . المخارم : الطرق المشتبكة .
(٥) يعني بالروافد : أمهات الفراخ . الهوامد : جمع هامد وهو الضعيف . جثم : جمع جاثم وهو اللاصق بالأرض .
(٦) القيظي : ما فرخ في القيظ .
(٧) شعاع : متفرق . القيض : قشور البيض .
(٨) شلال . متفرقة . ابذعرت . أسرعت في تفرقها شم : تفرق هارباً .

للأخطل في عروضهـا وقافيتها تحدث فيها عن ذئب وغراب تضيفاه . قال الفرزدق :

وأطلس(١) عسال وما كان صاحباً — دعوت بنـاري موهنـاً فـأتاني
فلما دنا قلت ادن دونك إنني — وإياك في زادي لمشتركان
فبت أقـد الزاد بيني وبينـه — على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكاً — وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فان عاهدتني لا تخونني — نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما — أخيين كانا أرضعـا بلبـان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى — رمك بسهم أو شباة سنان
وكل رفيقي كل رحل ـ وإن هما — تعاطى القنا قوما هما أخوان

وقال الأخطل :

خليـلي ليس الرأي أن تـذراني — بدوّيّة يعوي بهـا الصديان (٢)
وأرقني من بعد ما نمت نومـة — وعضب جلت عنه القيون يماني
تصـاحب ضيفي قفرة يعرفانهـا — غراب وذئب دائم العسلان
إذا حضراني عند زادي لم أكن — بخيلاً ولا صباً إذا تركاني
إذا ابتدرا ما تطرح الكف فاته — به حبشي كيّس اللحظان
يباعـده منـه الجنـاح وتـارة — يراوح بين الخطو والحجلان

إذا لم يخطىء ظني فكل ما يقوله الأخطل هو أنه لا يجرؤ على البقاء وحـده في الصحراء وأنه منح الغراب والذئب ضيافته ولكنهما لو تركاه لـكان ذلك خيراً

---

(١) أطلس : الذئب الذي في لونه غبرة الى سواد . عسال : مضطرب في عدوه .
(٢) الدوية : القفر الذي يسمع فيه صوت الريح . والصديان : مثنى الصدا والمراد بهما هنا البوم والهامة .

له . فأين هذا من دعوة الفرزدق ذئبه إلى القرى وقسمته الزاد بينه وبينه مع علمه بغدره واستعداده لمواجهته؟! . هذا فضلاً عن الأسلوب القصصي الرائع الذي تمتاز به أبياته . الحق أن الفرزدق أمهر الثلاثة في الوصف غير مدافع فيما عدا الخمر .

والأخطل ثالث الثلاثة لأنه لم يتقدم صاحبيه إلا في وصف الخمر . وهذا يعني أنه يتفوق في نوع واحد من أنواع القريض بينا يتفوق جرير في خمسة من هذه الأنواع والفرزدق في اثنين .

وغرر الأخطل التي تثبت تفوقه في وصف الخمر وما يتصل بها كثيرة .رويت لك مثلاً منها عند الكلام عن شعره . وأروي لك الآن منها هـذا البيت وهو:

وأدنيت منهم سبحلياً [1] كأنه   قتيل من السودان عبل مجرّح

وهذا البيت الرائع :

وإذا تعاورت الأكف زجاجها   نفحت فشمّ رياحها المزكوم [2]

(و) هذا ما أزعم أنه رأيي في المثلث الأموي وربما كان خليقاً بما عقبت به على أقوال الرواة والنقاد القدماء ؟ .

---

(١) السبحلي : الواسع الضخم والمراد به هنا الزق .

(٢) في الواقع ان الأخطل أخذ هذا من قول الأعشى .

وادكن عاتق حجل ربحـل   صبحت براحه شرباً كراما

من اللاتي حملن على المطـايا   كريح المسك تستل الزكاما

ولـكنه احق به منه لأنه افرغه بقالب اجمل .

خاتمة الكتاب

رأيت فيما تقدم أن القرآن يحتوي على نثر فنيّ بليغ وأن هذا النثر قد أثّر تأثيراً عميقاً جداً في خطب صدر الأسلام ودولة بني أمية وفي عهود هذا العصر وكتبه، وأن المدارس الشعرية التي تخرج فيها المخضرمون قديمة العهد وطيدة التقاليد مضى على بعضها في الجاهلية مئة سنة أو أكثر[1] وأن المرأة العربية لم تكن محرومة في ذلك العصر من نعمة الأدب، وإنما كانت تفكّر كما يفكر الرجل وتنشيء كما ينشيء، وتنال من بعد الشهرة وذيوع الصيت مثل ما ينال، وأن الشعر العربي على عهد صدر الاسلام ودولة بني أمية لم يكن أداة كسب ووسيلة ارتزاق ليس غير، وإنما كان منه ما يعنى بالمثل العليا والمبادىء السامية، وما يعنى بالجمال والعواطف عناية صادقة. رأيت هذا كلّه وأنت إذا أردت أن تخرج بنتيجة منه كانت هذه النتيجة:

أولاً — أن (عصر القرآن) أو عصر صدر الاسلام ودولة بني أمية من أخصب عصور الأدب العربي وأغزرها إنتاجاً وأشدّها إشراقاً.

ثانياً — وأن الأدب الذي تمخّض عنه هذا العصر أدب عربي صراح لا يد فيه للفرس ولا اليونان ولا لأحد غير هؤلاء وأولئك، لأن أحداً من كبار الخطباء أو نوابغ الكتّاب أو فحول الشعراء الذين يمثّلون هذا العصر لم يكن من أصل غير عربي.

---

(١) من امثلة ذلك ان زهير بن ابي سلمى الذي ادرك الاسلام عمر اكثر من ثمانين سنة باجماع الرواة. وقد كان طفلا صغيراً عندما ترملت والدته وتزوجت اوس بن حجر شاعر مضر الذي تولى تربيته وتخريجه.

ثالثاً — وأن العصر الجاهلي الذي سبق هذا العصر مباشرة كان عصر أدب وبيان ولسن وفصاحة ، لأنه ليس من المعقول أن عصر القرآن على كثرة ما أنجب من عقول نيّرة وقرائح خصبة يظهر فجأة على مسرح التأريخ دون مقدمة أو تمهيد . إنما المعقول أن يكون ثمرة عصر نشطت فيه القرائح وتفتحت الأذهان وقطع الخيال والعقل أشواطاً لا بأس بها في مضمار التقدم والارتقاء ؟

الفهرس

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١	وبعزاولة	وبجزالة
٦	٤	(كانون الثاني ١٩٤٠)	(كانون الثاني وآذار ١٩٤٠)
١٠	١٨	وله	وقوله
١٧	٧	في أجزائه	في مختلف أجزائه
١٩	٦	فنلاحظ	فلنلاحظ
٢٢	١٥	لعمر بن العزيز	لعمر بن عبدالعزيز
٢٤	١٠	بكتابة	بكتابه
٢٤	١٢	شعاشاً	شعاعاً
٢٥	١٩	صحيحة	فصيحة
٢٧	آخر الحاشية	أعاذنا من شره	أعاذنا الله من شره
٤٢	١٥	أجسامهم	أجسادهم
٥٤	١٤	والمرسلين	المرسلين
٥٧	٩	ولم يغفل	وان يغفل
٦٩	٩	واعتنق	اعتنق
٧١	١٢	رواية	راوية
٧٧	١٠	يا معشر	ما معشر
١١٦	١	إلى	إلاّ
١٥٥	١٧	أن	هو أن
١٧٠	٩	يهويني	يهوينني
١٧١	١	المواعيد	المواعد
١٨١	١٦	لفسقة	لفسقه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٥	١	فالتحهم	فالتحم
١٨٨	٢١	سذاجة	سذاجته
١٩٠	١٩	أهم عناصر	أهم عنصر من عناصر
١٩٨	الحاشية ٣	نهر يصب في دجلة	نهر ينشعب من دجلة
١٩٩	٤	السبب	السبسب
١٩٩	٧	أدواى في أدواى	أداوى في أداوى
٢١١	١٣	والرعاديد	الرعاديد
٢١٦	٦	عنه التناقض	عن التناقض
٢١٦	١٢	سلمي	سلمى
٢٢٠	١٢	ورفاقة	ورفاقه

تنبيه :

ورد في فهرس الفصل الأول من الباب الأول (النثر الفني في عصر القرآن) والصواب (النثر الفني في القرآن) . وسقط من آخر فهرس الفصل الأول من الباب الثاني هاتان الجملتان :

{ ص ٦٥ ـ ٦٦ مكان المخضرمين من الأدب العربي
{ ص ٦٦ عبث الرواة بشعر المخضرمين

فليلاحظ .

أهم كتب المؤلف المطبوعة :

١ - تاريخ القضية العراقية (جزآن ظهر في بغداد في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤)

٢ — شعر كورني الغنائي (بالفرنسية . طبع في مونبيليه سنة ١٩٣٧)

٣ — بعث الشعر الجاهلي (طبع ببغداد سنة ١٩٣٩)

٤ — نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (طبع ببغداد سنة ١٩٤٦)

أهم كتب المؤلف المخطوطة :

١ — البركان (ديوان شعر سياسي)

٢ — زبد الأمواج (ديوان شعر كذلك يحتوي على أغلب أنواع الشعر المعروفة)

٣ — سوانح (مجموعة خطب ومقالات ومحاضرات في السياسة والاجتماع والأدب)

٤ — الموشح في الأندلس وفي المشرق (كتاب يعالج نشأة الموشح وتطوره من نهاية القرن الثالث للهجرة إلى هذا اليوم)